الجمهوريّة الجزائريّة الدّيمقراطيّة الشّعبيّة

وزارة التّعليم العالي والبحث العلميّ

جامعة العقيد أكلي محند أولحاج

كلّيّة الآداب واللّغات

قسم اللّغة والأدب العربيّ

بلاغةُ اللُّغَةِ في أدبِ المقالِ الإصلاحيِّ عندَ محمّد البشيرِ الإبراهيميّ

- عيونُ البَصَائرِ نموذجًا -

مذكّرة لنيل شهادة الماجستير

الفرع: اللّغة والأدب العربيّ

التّخصّص: بلاغة ونقد أدبيّ

إعداد الطّالبة: **أحلام بالولي**

إشراف الأستاذ: **د. سالم سعدون**

لجنة المناقشة:

– د أحمد حيدوش	أستاذ التعليم العالي	جامعة البويرة	رئيسا
– د سالم سعدون	أستاذ محاضر – أ –	جامعة البويرة	مشرفا ومقرّرا
– د خالد عيقون	أستاذ محاضر – أ –	جامعة تيزي وزو	عضوا ممتحنا
– د بوعلام طهراوي	أستاذ محاضر – أ –	جامعة البويرة	عضوا ممتحنا
– د مصطفى ولد يوسف	أستاذ محاضر – ب –	جامعة البويرة	عضوا ممتحنا

السّنة الجامعيّة: 2013/ 2014

مقدّمة:

يمثّل المقالُ إحدى الطّرق الفنّيّة النّثريّة التي أُعتمِد عليها في التّعبير عن قضايا المجتمع في شتى المجالات. ولقد عرج هذا الفنّ في سلّم الإصلاح في العالم على مرّ العصور –رغم اختلاف النّقّاد في ظروف نشأته– فكان له الدّور الرّائد في تغيير الأوضاع بنشر الأفكار والإيديولوجيّات المختلفة –خاصّة في القرن العشرين– حيث حاول إيقاظ وعي الشّعوب المقهورة، وأسهم في التّواصل الثّقافيّ بين الأمم، فتخلّص الإنسان المتحضّر من فكرة الصّراع، وتبنّى أسلوب الحوار وسيلة للتّعامل الحضاريّ. ولقد كان العالم العربيّ آنذاك في قلب المعركة الإيديولوجيّة، لأنّه كان تحت وطأة الاحتلال الأوروبّيّ، فبرز فيه مفكّرون إصلاحيّون بمختلف التّوجّهات، فحاولوا –كلّ حسب منطلقاته وأهدافه– الإسهام في تحرير العقول قبل الأوطان. ولمّا كانت الجزائر جزءا من هذا العالم الذي عانى من ويلات الاحتلال الفرنسيّ الغاشم الذي ضربها في صميم هويتها عقيدة وتاريخا ولغة، بوسائل الترهيب والترغيب، وأساليب القمع والتّنكيل، كان لزاما أن يبرز من يأخذُ بيدها وينجدُها.

إنّ من يعرفُ رجالَ الجزائرِ العظامَ لن يغفلَ حتما عن معرفة إمام اللّغة العربيّة، وفارس البيان الشّيخِ محمّد البشير الإبراهيميّ الذي أفنى عمره في مقاومة الظّلم والظّلاميّة، فأنار دروب الضّالين، ونوّر أذهان الغافلين، وبارز العتاة المعتدين. لقد كافح هذا الاحتلالَ بسلاح اللّغة والفكر الإصلاحيّ، فتمكّن أيّما تمكّن في لغة الضّاد، فبثّ فيها الرّوح في ربوع الوطن الأسير، بعد قرن من الطّمس والإذلال، وغاص في أسرارها، وأبحر في لجّة آدابها، ونهل من آثار عربها وأعرابها، فحفظ المتون والأشعار، ودرس كتب الفقه والآثار. ولقد تربّع على عرش الإصلاح، فسعى لرأب الصّدع الذي ألمّ بالهويّة الجزائريّة العربيّة الإسلاميّة، ودعا أبناء الأمّة إلى نبذ الفرقة والتّحلّي بالرّوح الوطنيّة.

اجتمع الشيخ البشير الإبراهيميّ مع ثلّة من رفقاء درب الإصلاح من أجل رسالة نبيلة ثلاثية الأهداف جسّدها شعار (الإسلام ديننا والعربيّة لغتنا والجزائر وطننا). فاستغلّ كل الفرص السانحة داخل الوطن وخارجه، وتصدّر كل المنابر سواء في المساجد، أو في النوادي، أو في الملتقيات المختلفة، تحت لواء جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين، التي أسّسها مع رفيق دربه عبد

الحميد بن باديس. وقد أصبح هذا الثالوث المقدّس الشغل الشاغل الذي ناضل من أجل تحقيقه أولئك العلماء، بهدف:

أولا: إعادة الجزائريين إلى بيضة الإسلام بعد فترة من محاولات المسخ ونشر الدين النصراني بغلق المساجد وتشييد الكنائس من جهة، ونشر الشرك بتشجيع الطرقيّة والجهل والبدع من جهة أخرى.

ثانيا: إعادة إحياء الحرف العربي بعدما أوشك على الاندثار، بسبب سياسة تشجيع اللهجات المحلّية على حساب لغة الضّاد، ومحاولة إحلال اللغة الفرنسية مكانها بتدريسها في المدارس الجزائرية.

ثالثا: التأكيد على الماضي المجيد والمصير المشترك بين كل الجزائريّن، تحت ظل وطن واحد لا يقبل التّجزئة مهما كانت النعرات العرقيّة والدعاوى الجهويّة.

وكان المقال الأدبيّ وسيلةً لجأ إليها الرّعيل الأوّل من الإصلاحيّين، من أجل تربية النشء وتوعيته بخطورة ما آل إليه الجزائريّ من ذلّ، وهوان، وتبعيّة، وعبودية للمحتلّ. لذا مثّلت جريدة (البصائر) مع شقيقاتها (السّنة) و (الشريعة) و(الصراط) الألسنة الأربعة التي اتخذتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين نوافذَ إعلاميّةً وروافدَ فكريّةً، للتّعبير عن هذه الرّسالة بالرّغم من تعرضها إلى التوقيف، وإغلاق مقرّاتها، ومساءلة السلطات الفرنسية لأصحابها. وإن لم يُكتب لشقيقاتها الثلاث الاستمرارُ، فإنّ لجريدة البصائر مسيرةً حافلةً امتدت على مر سنينَ طوالٍ، مثّلت نقطة التقاء نخبة من العلماء الأجلاّء. وقد حمل أحمد طالب الإبراهيميّ نجلُ الشّيخ على عاتقه مهمّةَ جمع تراث أبيه، فصنّف كتبا منها كتاب "عيون البصائر" الذي ضمّ فيه مقالاتِ والده المنشورةَ في هذه الجريدة، وفيه أهمّ ما عالجه العلاّمة في الفترة الممتدة من سنة 1947 إلى سنة 1953. فلم يَدَعْ قضيّة تعني الأمّة الإسلامية في الجزائر وخارجها إلا وتطرّق إليها، فقد كتب عن قضايا اجتماعيّةٍ مثل "الشبان والزواج"، و"الطلاق"، وسياسيةٍ مثل "فصل الدين عن الحكومة" و"التعليم العربي والحكومة"، و دينيةٍ مثل "عيد الأضحى" و"أثر الصوم في النفوس"، ومصيريّةٍ مثل: "العرب واليهود في الميزان" ، و"واجبات فلسطين على العرب".

إن القارئ لكتاب عيون البصائر سيفهم أنّ لهذا المفكّر هدفا ورسالة يريد تبليغها بدقّة في معالجته المستجدّاتِ، بعرضٍ منطقيٍّ في مضمونها، وحجّة قويّة في نقدها، وفي الوقت نفسه سيتذوّق بلاغة اللّغة في سحر بيانها، وفصاحةَ اللّسان في أسلوبها، وجزالةَ الألفاظ في معانيها.

وقد وقع اختياري على هذا الموضوع لأنّه يهتمّ بالأدب الجزائريّ أوّلا، وبوجه خاصّ أدب أولئك الكتّاب الذين تركوا بصماتهم على منحى الفكر، بفضل رصيدهم المعرفيّ واللغويّ، وثانيا لأنّه يتّصل بتراث الشّيخ البشير الإبراهيميّ من خلال مقالاته التي تعدّ أهمّ آثاره على الإطلاق. وتكمن أهمّية الموضوع في أنّه محاولة لإبراز مدى فاعليّة الأسلوب الجماليّ الفنيّ في الإقناع وإيصال الفكرة عند الإبراهيميّ. ومن الدّراسات التي سبق وأن تطرّقت إلى أدب الإبراهيميّ: بناء الأسلوب في المقالة عند الإبراهيميّ لعبد الحميد بوزوينة؛ البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه لمحمد مهداوي؛ النّثر الفنّي عند البشير الإبراهيميّ لعبد المالك بومنجل؛ نثر الشيخ البشير الإبراهيميّ في الفترة من 1929 إلى 1939 لمحمد العيد تاورتة؛ الإبراهيمي أديباً لعباس محمد.

وقد استعنت لإنجاز هذا العمل بمجموعة من الكتب منها كتاب عيون البصائر لمحمّد البشير الإبراهيميّ، وكتاب فنّ المقالة لمحمّد يوسف نجم، وكتاب عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتّربية في الجزائر لتركي رابح، وكتاب فنون النّثر الأدبيّ في الجزائر لعبد الملك مرتاض، وكتاب آثار البشير الإبراهيميّ.

إنّ المقال الأدبي في رسالته الإصلاحيّة من بين العوامل التي أدت إلى إصلاح حال الجزائريّين وإيقاظهم بعد سبات عميق، فأهّلهم لأن يحملوا مسؤولية الحفاظ على هويّتهم، واسترداد حرّيتهم بعد أن تسلّحوا بحبّ الوطن والدّين. فما وظيفة المقال الأدبيّ الإصلاحيّ؟ وما هي خصائصه عند الإبراهيميّ؟ وكيف وظّف المفردات والتّراكيب لإثراء تشكيله اللّغويّ في ظرف كانت اللّغة العربيّة تصارع من أجل بقائها؟ وهل خدم الأسلوبُ البلاغيُّ التقليديُّ الحامل لكمّ هائل من المحسنّات البديعيّة والصّور البيّانيّة الفكرَ الإصلاحيَّ الذي كان يدعو إليه؟

من أجل الإجابة عن هذه الأسئلة، قسّمتُ عملي هذا إلى ثلاثة فصول بدأتها بتمهيد، تعرّضت فيه إلى دور جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين في الإصلاح. أمّا الفصل الأوّل فعنوانه "فن المقال"،

تندرج منه ستة عناصر تطرّقت فيها إلى مفهوم المقال، ونشأته وتطوّره، ثمّ ذكرت أنواعه، ولكي أدخل في موضوع الإصلاح عند الإبراهيميّ قدّمت ظروف ظهور المقال الإصلاحيّ في المشرق العربيّ ومغربه، وعرضت بعض قضايا الإصلاح التي تناولها الكاتب في عيون البصائر، مع التّركيز على الخصائص العامّة للكتابة عند الإبراهيميّ.

أمّا الفصل الثّاني فقد بحثت فيه عن التّشكيل اللّغويّ في مقالات عيون البصائر، فقسمّته إلى محورين رئيسين. أولهما نظام المفردات في مقالات الإبراهيميّ، وفيه التّرادف، والاشتقاق، والغريب، والدّخيل. وثانيهما نظام التّراكيب في مقالات الإبراهيميّ، وفيه التّقديم والتّأخير، والاقتباس، والقصر، والإيجاز والإطناب، والخبر والإنشاء.

أمّا الفصل الثّالث فخصّصته للحديث عن التشكيل البلاغيّ في مقالات عيون البصائر، وقسّمته إلى محورين هما: المحسّنات البديعيّة وأسباب استعمالها، وتناولت فيه السّجعَ والجناس والطّباق والمقابلة؛ والصّور البيانيّة وأسباب استعمالها، وذكرت فيه التّشبيه والمجاز والاستعارة والكناية.

وختمت العمل بعرض أهمّ النتائج المتوصّل إليها بالإجابة عن مختلف الإشكاليّات المطروحة، وإعطاء فكرة واضحة عن خصائص أسلوب الإبراهيمي من خلال استقصائي لنماذجَ عديدةٍ من مقالاته في كتاب عيون البصائر.

وقد استوجبت طبيعة الدّراسة الاعتماد على المنهج الجماليّ الذي يقصد به دراسة القيم الجمالية في العمل الأدبي، من أجل وضعه في مكانه الصّحيح بين الأعمال الأدبية الأخرى، حيث يقوم هذا المنهج على أساس اختيار إنتاج أدبي خلّفته شخصيّة أدبيّة، وهذا بكشف أسراره الفنّيّة وخصائصه المميّزة له.

تمهيد:

جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين ودورُها في الإصلاح

في الوقتِ الّذي بدأتْ حركاتُ الوعيِ الدّينيِّ والسّياسيِّ تدبُّ في جسدِ الأمّةِ العربيّةِ الإسلاميّةِ في المشرقِ أواخرَ القرنِ التّاسعَ عشرَ، كان المجتمعُ الجزائريُّ غارقًا في بحرِ الظّلماتِ، متخبّطًا في أُتونِ الفقرِ والجهلِ، مقيّدًا بأغلالِ الاستعبادِ والإذلالِ، إذْ وصلَ بهِ اليأسُ والضّعفُ إلى الحضيضِ بعدَ أنْ فشِلتْ المقاوماتُ الشّعبيّةُ في إخراجِ المحتلِّ الغاشمِ من أرضِ الجزائرِ. هذا الوضعُ المُزْرِي الّذِي عاشهُ الشّعبُ الجزائريّ بدا واضحًا من خلال أحواله المعيشيّةِ في النّواحي المختلفة.

فاجتماعيّاً، أدّت سياسةُ الاستيطان العنصريّ الّتي انتهجتها فرنسا إلى ظهور طبقتين اجتماعيّتين في الجزائر المحتلّة هما: المعمّرون الأوروبيّون واليهود الموالون من جهة، والمسلمون الجزائريّون من جهةٍ أخرى. وبهذا أُعتبِر الجزائريّون مواطنين من الدّرجةِ الثّانية في أحسن الأحوال، بل عوملوا معاملة العبيد، خاصّة بعد إصدار قانون الأهالي*، "**هذا النّظامُ الجائرُ الذي كان من جملة ما تشتمل عليه قوانينه أنّ من لم يدفع الضّرائب من الجزائريّين يُسجن، ومن قطن جهة نائية عَرّضَ نفسَه للسّجن أيضا، وربّما أدّى بعض ذلك إلى تهديم دارِه. ومن جَمَعَ في منزله أكثرَ من خمسةِ أشخاصٍ ولو كانوا أصدقاءَ وإخوانًا دون رخصةٍ مسبقة، عرّض نفسه لعقوبة شديدة...**"[1] فكان على الجزائريّين تأديةُ الواجباتِ، دون الاستفادةِ من أدنَى الحقوقِ المكفولةِ لنظرائهم من الطّبقة العليا. وفي المقابل، كان المعمّرون واليهود يستأثرون بكلّ الحقوق السّياسيّة والمدنيّة الّتي فاقت تلك الّتي كان يتمتّع بها أقرانُهم في بلدانهم الأصليّة. ونتيجةً لهذه الظّروف القاسية، لجأ الكثيرُ من الجزائريّين إلى الهجرة الدّاخليّة من مناطق الاضطهاد إلى أماكن أكثر أمنا، هُروبًا من تعسّفِ الإدارة، لا سيّما الريفيّة، "**غير أنّ هذه الهجرة الدّاخليّة لم تُنجِ الجزائريّين من الخطر الدّاهم، والخطب القاتم**"[2]، فاضطرّوا إلى الهجرة الخارجيّة نحو فرنسا أو المشرق العربيّ

* قانون الأهالي نظام عنصري ظالم طبق على السكان الأصليين في المستعمرات الفرنسية في أواسط القرن 19م، تمّ وضعه في الجزائر، وعمّم على كل المستعمرات. ينظر: موسوعة وكيبديا الحرة.

[1] عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر1931-1945، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1983، ص12، 13.

[2] المرجع نفسه، ص24.

بحثًا عن سبل العيش الأفضل، "**وهذه الهجراتُ السّياسيّةُ الكثيرةُ الّتي أصابت المجتمع الجزائريّ منذ بداية الاحتلال الفرنسيّ، كانت لها آثارٌ واضحةٌ في المجتمعِ الجزائريّ الّذي ظلّ متّسمًا بالقلق والخوف والاضطراب. حيث انقسمت أُسَرٌ، وتفرّقت شَذَرَ مَذَرَ.**"[1]

وفي الجانب الاقتصاديّ، فإنّ الجزائر الّتي كانت قبل سنة 1830 م بلادًا مستقلّة تملك كلَّ خصائصِ الدّولة في ذلك العصر، ومن بينها الاقتصاد المعتمدُ أساسًا على قطاع الزّراعة، سرعان ما انهارت بسبب سياسة الاحتلال الفرنسيّ الّتي أتت على الأخضر واليابس، عن طريقِ مصادرةِ الأراضي الزّراعيّةِ ذاتِ المردوديّةِ الإنتاجيّةِ العالية، بالتّهديدِ والطّردِ بسنِّ قوانينَ تعسفيّةٍ، مثل إجبارِ المالكِ على التّنازلِ عن ملكيّته بالكامل. فقد أعلن الجنرال بيجو(Thomas Bugeaud)* "**في 14 مايو سنة 1840 في مجلس النّواب الفرنسي، أنّه حيث وجدت مياه غزيرة، وأراض خصبة، يجب أن يقيم المعمّرون، دون الاهتمام بالسّؤال عن أصحاب الأرض.**"[2] وفي بعض الأحيان تعمّدوا استعمال الحيلة مثل "**إعدام الوثائق الرسميّة للملكيّة العقاريّة، حتى يتمكّن من وضع يده عليها بحجّة عدم وجود مالكين لها، من النّاحية القانونيّة.**"[3] كما تمّ الاستيلاء على الأراضي الرّعويّة والغابات، لتضييق الخناق على قطاع الرّعي الّذي كان مصدرَ الرّزق الرّئيسيَّ لغالبيّةِ سكّان الأرياف، فكان مصيرُهم إمّا البطالةَ، أو العملَ في مزارع المعمّرين كالعبيد بالنّظر إلى الأجرِ الّذي "**كان زهيدا جدًّا. وكان يتمثّل – في كثير من الأحوال – في نيل مقدار ضئيل من الشّعير.**"[4] وبهذا صار اقتصاد الجزائرِ موجّهًا لغرض خدمةِ مصالح الاقتصاد الفرنسيّ، والمضيِّ قُدُمًا في استغلال ثرواتِ الجزائر على حساب خُصوصيّتِها وتقاليدِها. ونضربُ مثالًا على هذا التوجّهِ

[1] عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص24.

* توماس بيجو (1784-1849)م، قائد عسكري فرنسي. حكم الجزائر من 1840إلى 1847م. سلك سياسة الإبادة والتهجير في إطار الحرب الشاملة التي مارسها تجاه الجزائريين. ينظر: موسوعة وكيبديا الحرة.

[2] حسن عبد الرحمان سلوادي،عبد الحميد بن باديس مفسّرًا،المؤسسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، 1984، ص17.

[3] تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 4، الجزائر، 1984، ص89.

[4] عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص26.

استثمارَها في الميدانِ الفلاحيِّ بزراعة الكروم وتخصيصِ أراضٍ شاسعةٍ لذلك بغية إنتاج الخمور، حيث "**بلغ الإنتاج الجزائري من الخمر في عام 1954 (19,3 مليون هيكتولتر).**"[1]

وأمّا في الجانب السّياسيّ، فقد عُدّت الجزائرُ حسب منطق الاحتلال جزءًا لا يتجزّأ من فرنسا، إلاّ أنّ سكّانَها اعتُبِرُوا أشباه فرنسيّين، إذ كانوا في الواقع عبيدًا للمعمّرين، ولم يكونوا فرنسيّين بما تحمله الكلمةُ من معنى المواطنِ الكاملِ الحقوقِ والواجبات. وقد أدّى تنظيمُ احتفاليّاتِ مرورِ مئةِ سنةٍ على احتلالِ الجزائر تحت شعار (الجزائر فرنسيّة) إلى تحريك همم الغيورين على الوطن، إذ لم تنطلِ هذه الخديعةُ على الجيل الجديد من أحرار الجزائر الّذين راودهم حلمُ النّضال من أجل إبرازِ معالمِ الأُمّة، وقطعِ روابطِ التّبعيّة لتحقيقِ استقلالها. فبعدما استيقنَ الشّعبُ الجزائريُّ عدمَ جدوى مجاراةِ الاحتلال، بسبب فشلِ المقاوماتِ الشّعبيّة – الّتي وإن اتّسمت بالحماسة والاندفاع لم توحّد الصّفوف، ولم تجد العدّة والعتاد الكافِيَيْن– هبّت رياحُ الوعيِ السّياسيّ، فبرزت الأحزابُ السّياسيّة، ونشطت الحركةُ الوطنيّة فاتحةً المجالَ أمام تكوينِ منظّماتٍ وطنيّةٍ شعبيّةٍ، وأحزابٍ سياسيّةٍ، من أهمّها حركةُ الأمير خالد*، التي "**كانت تطالب بالمساواة المطلقة بين الجزائريّين والفرنسيّين في جميع الحقوق.**"[2] وحزبُ نجم شمال إفريقيا لمؤسسه مصالي الحاج** الذي طالب في البداية بـ "**المساواة العاجلة بين الجزائريّين والفرنسيّين في كلّ المجالات، ثمّ**

---

[1] تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ص85.

*خالد بن الهاشمي (1875– 1936)م، حفيد الأمير عبد القادر، وأول زعيم سياسيّ جزائريّ في القرن 20م ناضل سياسيا لاسترجاع كرامة الجزائريين، ونقل مطالبهم المشروعة في الجزائر وفرنسا والهيئات الدولية. أسس جريدة (الإقدام) سنة 1920م. ينظر: موسوعة وكيبيديا الحرة.

[2] عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص14.

** مصالي الحاج (1898–1974)م ، زعيم وطني جزائري كان أحد المطالبين بالاستقلال عن فرنسا. أسس أول حزب سياسي وطني (نجم شمال إفريقيا) فحلّته الإدارة فتحول إلى حزب الشعب الجزائري، ثم إلى حركة انتصار الحريات الديمقراطية. عارض الثّورة وتصادم مع جبهة التحرير. ينظر: موسوعة وكيبيديا الحرة.

الاستقلال الكامل للجزائر."[1] وجمعيّةُ العلماء الّتي دعتْ إلى "**استرجاع الشّخصيّة الثّقافيّة العربيّة الإسلاميّة للجزائر بواسطة التّعليم، والوعظ...**"[2]

والملاحظ أنّ هذه الأحزابَ السّياسيّةَ على اختلافِ توجّهاتها وخلفيّاتها الفكريّة، تميّزت بالمطالبةِ ببعضِ الحقوقِ السّياسيّة والاجتماعيّة، من أجل تغيير الواقع المعيش، إلاّ أنّ هذه الآراءَ تقاربت بعد الحرب العالميّة الثّانية، واتّجهت إلى توحيد الجهود للمطالبة بالاستقلال.

وأمّا في الجانب الثّقافي، فإنّ ما تمثّله الثّقافة للمجتمع من مقوّماتٍ "**تتميّز بها المجموعات البشريّة الواحدة، ومنها اللّغة والتراث والقيم والعادات والتقاليد وغيرها، وقد تعني بالإضافة إلى ذلك الاعتزاز بتلك المقوّمات والاستعداد المطلق لحمايتها، والدّفاع عنها، والاستمساك بها**"[3]، يمكن لها أن تتعرّضَ إلى اختلالٍ يهزّ كيانها، فيفقدُ المجتمعُ صلتَه بماضيهِ، ويضيع في صراعاتٍ مفتعلةٍ لا طائلَ منها، كمسألة الهُويّة والمسائل الخلافيّة في الدّين. ولمّا كان الاحتلالُ يعي أهمّيّة العنصرِ الثّقافي في مشروعه التّخريبيّ، عَمدَ إلى طمسِ أحدِ أهمِّ معالمِ الهويّة ألا وهو اللّغةُ العربيّة، إذ" **بدأ حربه ضدّ اللغة العربيّة الفصحى ومعاهدها ورموزها ورجالاتها لكي يتمكّن من تقطيع أوصال هذه الأمّة وتجزئتها وعزلها عن دينها الإسلام، بعزلها عن كتابها ومرشدها القرآن العربيّ المبين."**[4] فأغلقَ المدارسَ الحرّة بالقوّة، واعتقلَ المعلّمين واتّهمهم بالعمل ضدّ السّلطات الفرنسيّة، واستبدلَ مواليه بهؤلاء للإشراف على تعليم النّاشئة في المساجد والمدارس، بالتّضييق على اللّغة العربيّة، حيث أدرك أنَّ "**انتشار اللّغة العربيّة يشكّل خطرا على الوجود الإفرنسي في الجزائر الإسلاميّة، ويقضي على مخطّطاته الهادفة إلى فرنسة الجزائريّين والقضاء على أصالتهم. ولذا عملت على محاربة اللّغة العربيّة بشتى الوسائل ومختلف الأساليب للحدّ من تعلّمها وانتشارها.**"[5]

ومن هذه الأساليب تشجيعُ اللّهجاتِ العامّيّةِ المنتشرةِ بين أوساط أغلبِ الجزائريّين، كونهم لم يُسْعِفْهم

---

[1] أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1900–1930، ج2، دار الغرب الإسلاميّ، ط4، بيروت، 1992، ص294.

[2] المرجع نفسه، ص294.

[3] حسن عبد الرحمان سلوادي، عبد الحميد بن باديس مفسّرًا، المؤسسة الوطنيّة للكتاب،الجزائر ،1984،ص27،28.

[4] أحمد بن نعمان،اللّغة العربية أسئلة التطوّر الذّاتي والمستقبل،مركز دراسات الوحدة العربيّة،لبنان، 2005، ص59

[5] بسام العسلي،عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثّورة الجزائريّة، دار النّفائس،ط2، بيروت، 1986، ص50،49.

الحظُّ في الالتحاقِ بمقاعدِ الدّراسةِ، بسببِ هذه السياسة التي أدّت إلى منافسَة اللّغة العربيّة الفصحى "**لتحقـيقِ غايتيْنِ: الأولـى إضعافُ العربيّةِ التــي ترتـبطُ بالـهُويّةِ والعقـيدةِ معًا، والثّانيةُ الفصلُ قدْرَ الإمكانِ بين الدّولِ العربيّةِ التي تُعدُّ اللّغةُ العربيّةُ أحدَ مقوّماتِ وِحدتِها وترابطِها**."[1]

ولئن نجحَ الاحتلالُ في ضربِ اللّغةِ العربيّةِ باللّهجات العاميّة، فإنّه في الوقت نفسه أسهم –من حيث لا يدري– في إحياء ثقافةِ المجتمعِ الشّعبيّةِ، فأعاد بناءَ كيانِها من جديد بالعودة إلى جذوره وأصالته. وتجدر الإشارة إلى أنّ تعليم الفرنسيّة لم يكن بهدفِ تثقيفِ الجزائريّين ومنحِهم تعليمًا وتكوينًا في المستوى، إنّما لجعلهم في بوتقةِ الفرنسةِ والاندماجِ والتّجنيسِ الّتي عجزت عن تحقيقها بالقوّة والقهر، مخافةَ أن يتمكّنَ هذا الجيلُ الصّاعد من الحصولِ على ثقافةٍ عربيّة إسلاميّة تُكسبُهم وعيًا بحالِ وطنهم المسلوبِ، فينقلب بذلك السّحرُ على السّاحر. ولا شكّ أنّ هذه النّتيجةَ غيرَ المرغوبِ فيها قد وقعت بالفعل، إذ كان المثقّفون الجزائريّون المفرنسون –لا سيما الأدباء– قد استعملوا اللّغةَ الفرنسيّةَ في نضالهم من أجل استرداد الحرّيّة. أَضِفْ إلى ذلك تدريسَهم تاريخًا مزيّفًا خاليًا من أمجادِ الحضارة الإسلاميّة جمعاءَ، فكان الطّلاب يُلقّنون أنّ بلادنا– ويقصدون الجزائر الملحقة بفرنسا– "**تسمّى قديما الغال La Gaule وأجدادنا يسمّون الغاليين Les gaulois**"[2]، وركّزوا على تمجيدِ تاريخ فرنسا وثورتِها، حتّى صيّروهم قسرًا "**ملمّين إلمامًا كبيرا بتفاصيل تاريخ فرنسا من جميع النّواحي وفي جميع العصور**."[3] فلم يكن غزوُ الفرنسيّين للجزائرِ حملةً عسكريّةً فحسب، بل هو "**قرن من الصّليبيّة نجم، لا جيش من الفرنسيين هجم**"[4]، حيث نقض بنود معاهدة

---

[1] محمّد الصّالح الجابري، الفصحى وعاميّاتها: لغة التّخاطب بين التّقريب والتّهذيب، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، ص31.

[2] تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ص135.

[3] المرجع نفسه، ص 135.

[4] محمّد البشير الإبراهيميّ، عيون البصائر، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، دت، ص171.

*–لويس فكتور،(1773–1846)م، عسكري فرنسي، وزير الحربية ومارشال، قاد حملة غزو الجزائر سنة 1830م.
–حسين باشا (1765–1838)م، آخر دايات الجزائر، خلف علي خوجة، انفتح على الأوروبيين وأقام علاقات ديبلوماسية معهم. كان طرفا في حادثة المروحة التي أخذتها فرنسا ذريعة لاحتلال الجزائر سنة 1830. نفي إلى نابولي وتوفي بالإسكندرية. ينظر: موسوعة ويكبديا الحرة.

تسليم الجزائر الّتي أبرمَها دي بورمون* (Louis Victor De bourmond) مع الدّاي حسين، يوم سقوط الجزائر العاصمة، وقد نصّت على تعهّد الفرنسيّين على عدمِ المساسِ بالمساجدِ والأوقاف، واحترام الحرّيّات الشّخصيّة، وكلّ ما يتعلّق بالهويّة واللّغة والمعتقدِ الدّينيّ، وكذلك ترك الممتلكات لأصحابها، فخان العهد "**وأصدر أمرا يوم 8 أيلول – سبتمبر– 1830، يقضي بالاستيلاء على الأوقاف الإسلامية. والاستيلاء على الأوقاف إنّما يعني الاستيلاء على الدين، لأن المساجد والشّؤون الدّينيّة الأخرى وما يترتّب لها من خدمات تموّل كلّها من الأوقاف.**"[1] وهكذا تسنّى للعقلِ الفرنسيّ المخرّبِ التحكّمُ في أقدسِ مقوّمٍ من مقوّماتِ وجودِ الإنسان الجزائريِّ، فضيّقت الخناقَ على المسلمين في مواجهةٍ صريحةٍ بين الإسلام والصّليبيّة، "**فأصبحت فرنسا المسيحية تتصرّف على هواها في شؤون مساجد المسلمين وقضائهم وتعليمهم، فلا تعيّن مفتيا أو إمامًا أو حتى خادما إلاّ إذا أظهر استعداده للتّجسّس على إخوانه المسلمين.**"[2] ثم تعدّى ذلك إلى هدمِ المساجدِ وبناء الكنائسِ عوضًا عنها، بدعوى نشر الدّين المسيحيّ، "**ولم تلبث حين احتلّت الصّحراء أن وجّهت إليها إرساليات عديدة من الآباء البيض، معتقدة أنّ هذه المناطق ستكون تربة خصبة لبذورهم. وبثّت الإرساليات التبشيرية الأخرى في كلّ مدينة وقرية.**"[3] وسَعتْ إلى تشويهِ الدّين الإسلاميّ بضربِ أساسِهِ المتمثّلِ في عقيدةِ التّوحيد، فشجّعت الطّرقَ الصّوفيّة المنحرفةَ، وتحالفت معها ضدّ علماء الدّين الأحرارِ بمدّها بالسّلطة والمال، و"**أخذت تختلق الخرافات والأساطير، وتنسبها إلى العلماء والأولياء الصّالحين، وشجّعت على إقامة الولائم العامّة وحفلات الزّار (الوعادي) التي أصبحت فيما بعد مراكز خطيرة لنشر دعاية الاستعمار الإلحاديّة.**"[4] ولقد وقف بالمرصاد لخرافاتِ وبدعِ الطّرقيّينَ ثلّةٌ من العلماء الرّبّانيّين المتمرّسين في علومِ الدّين واللّغة، وقد جمعتهم رايةُ جمعيّةِ العلماءِ المسلمينَ الجزائريّينَ الّتي أسّسوها رِدْءًا للإسلام، وذودًا عن الوطن، وتنبيهًا منهم للأمّةِ بخطرِ الجهلِ الّذي نخرَها، والانحرافِ العَقَدِيِّ الّذي أصابَها. ولقد جاء في القانون الدّاخليّ للجمعيّة في مادّته التّاسعة والسّتّين: "**فالواجب إذن أن نبدأ بمحاربة تلك البدع**

---

[1] بسام العسلي،عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثّورة الجزائريّة، ص64.

[2] المرجع نفسه، ص64.

[3] المرجع نفسه، ص67.

[4] المرجع نفسه، ص 70.

والخرافات بطرق حكيمة تقرب من أذواق النّاس، فإذا ماتت البدع والخرافات وصَفَت الفِطَرُ من ذلك الشّوب سَهُلَ تلقينُ العقيدة الصّحيحة وتلقّتها النفوس بالقَبول."[1] فكشفوا بذلك زَيْغَ المبتدِعينَ، وحاجّوهم بالدّليل الشّرعي، فأثبتوا بطلانَ عقيدتِهم الّتي تُضاهي الإلحادَ، وبيّنوا فسادَ منهجِهم في اتّباعِ البدع، وفضحُوا خبثَ نواياهم في الاستكانة إلى العدوِّ بتخديرِ النّاسِ و إلهائِهم وثنيِهم عن واجبهم الدّينيِّ المتمثّلِ في الجهادِ المقدّس. ومن باب الإنصاف تجب الإشارةُ إلى أنّ هناك من الصّوفيّين المعتدلين من كانوا ضدَّ الاحتلال منذ أن حلّ بأرض الوطن، بل أسهموا في تحفيظِ كتابِ اللّهِ وعلومِ الدّين في الزّوايا المنتشرة في أرجاء البلاد. ولمّا رأوْا شراسةَ الاحتلالِ، وحربَ الإبادةِ الّتي أعلنها في المنتصف الثّاني من القرن التّاسعَ عشر، انخرطوا في المقاومةِ الشّعبيّة. وكان من أبرز هؤلاء المقرانيّ* زعيم ثورة 1871م، "**غير أنّ فرنسا استطاعت تدمير هذه الحركة الدّينيّة من الدّاخل، وصرفها عن أهدافها، وتنصيب من يضطلع بتشويه الدّين عن طريق ضعاف النّفوس.**"[2]

في هذه الظّروفِ العصيبة، كان لزامًا على الأمّة أن تتحرّك وتستنهضَ همّتَها، لا سيّما بعد ظهور الدّعواتِ والحركاتِ التّحرّريّة في المشرق الإسلاميّ، – وسيأتي ذكرها– الّتي كانت في مُجملِها تدعو إلى نهضةِ الأمّة بالفهمِ الصّحيحِ لمقاصدِ الدّينِ الإسلاميّ ومحاربةِ الاحتلال.

وقد امتدّت هذه النّهضةُ من المشرقِ إلى المغربِ لارتباطهما منذ العهودِ الإسلاميّة الأولى، وقد بدأ التّأثيرُ في أواخرِ القرن العشرين من خلالِ متابعةِ الجزائريّين لكلّ ما يكتُبُه المشارقةُ بشغفٍ كبيرٍ، ثمّ زيارةِ علماءَ وأدباءَ ومثقّفين بارزين للجزائر، وأذكر على سبيل المثال الزّيارةَ التّاريخيّةَ للإمام محمّد عبده "**التي احتفل الجزائريّون بها احتفالا شديد الاحتفاء، وحضروا دروس الشّيخ**

---

[1] محمّد البشير الإبراهيميّ، آثار الإمام البشير الإبراهيميّ 1929–1940، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيميّ، ج1، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1997، ص86.

*محمد بن أحمد المقراني (؟–1871)م، أحد قادة الثورات الشعبية في الجزائر في القرن التاسع عشر الميلادي بعد الغزو الفرنسي. بعد وفاة الأب عيّن مكانه بلقب "باش آغا" لكنّه عام **1871**م قدّم استقالته للسلطات الفرنسية وفي السنة نفسها ثار على الاحتلال الفرنسي وقاد مقاومة ببرج بوعريريج. ينظر: موسوعة ويكيبيديا الحرة.

[2] بسّام العسلي، عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثّورة الجزائريّة، ص74.

التي ألقاها ببعض مساجد قسنطينة والجزائر."[1] وقد أسهم عاملُ الهجرةِ بشكلٍ كبيرٍ في مدّ جسور تواصلِ الجزائريّين بإخوانهم، خاصّةً بعد تعرّضهم لقمع الاحتلال والنّفي، فبدأت أفكارُ المصلحين المشارقةِ تنتشرُ وتلقى صدًى لدى الطّبقةِ الواعية، فنجد الشّيخ الإبراهيميّ مثلًا قد عَضُدَ الشّيخَ ابنَ باديسَ في حملِ همِّ الأمّة حينما التقيَا في المدينة المنوّرة. وكانا يقضيان جلّ وقتهما في بحث الوضع المتردّي بالجزائر، واتّفقا على التأسّي بروّاد الإصلاح العربيّ من أجل تجسيد "**العمل الإصلاحيّ الذي انطلق في مصر... وكان هذا العمل يحمل طابع التّجديد من النّاحية الدّينيّة والسّياسيّة والثقافيّة.**"[2]

إنّ لكلّ أمّةٍ علماءَها ومثقّفيها ومفكّريها وأدباءَها الّذين يحملون على عواتقهم مهمّة تعليمِ النّاس، وتربيةِ النّشءِ، ورسمِ معالمِ الطّريق، من أجل بعثِ أمجادها، وبثّ الرّوحِ فيها من جديدٍ، بعد أمدٍ من الجمودِ والرّكودِ المفروضيْن عليها. هذه المهمّة النّبيلة قد باشرها منذ العشرينيّات من القرن الماضي ذلك الرّعيلُ الأوّلُ من روّادِ الحركةِ الإصلاحيّةِ أمثالِ ابن باديسَ والإبراهيميّ، والطّيب العقبيّ، ومبارك الميليّ، والعربي التبسيّ، وأحمد توفيق المدنيّ، وغيرهم ممّن أدركوا بأنّ الوقتَ قد حان للنّهوضِ بعمليّةِ التّنويرِ الّتي هي أساسُ التّغييرِ المنشودِ. إذ أنّ هذه المعركةَ لا يمكن أن يقوم بها شخصٌ واحدٌ أو جماعةٌ محدودةُ العددِ، لذلك تطلّعوا إلى الدّخول في مرحلةٍ جديدةٍ تتكامل فيها وسائلُ العمل النّضاليّ، فبات الاجتماعُ حول منظّمة خاصّة بهم تتبلور فيها أفكارهم، وتتمحور عليها مبادِئُهم، وتتجسّدُ بها أهدافُهم، ضرورةً ملحّة أملتها شموليّةُ فكرةِ النّهضة، وعمقُها الحضاريُّ البعيدُ المدى، فجاء "**تأسيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين ليضع حدّا فاصلاً وحاسمًا بين ماضي الجزائر، وهي تحت النير الاستعماري، وبين حاضرها الذي أشرق زاهيا في ميدان النهضة**

[1] عبد الملك مرتاض، الثقافة العربيّة في الجزائر بين التأثير والتّأثّر، دار الحداثة بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعيّة ، الجزائر، 1982، ص75.

[2] روجي غارودي، مقال: الإبراهيمي العالم المصلح، مجلة: الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، ع87، دار الأمّة للطباعة والنّشر والتوزيع، 1985، ص140.

الإسلامية العربية. ولقد كان ذلك الحاضرُ الجديد هو الأساسَ الرّاسخَ المتينَ الذي بني عليه المستقبل، مستقبل الجزائر تحت راية الحرّيّة والاستقلال."[1]

في صباح يوم الثلاثاء السّابع عشر من شهر ذي الحجة عام 1349 للهجرة الموافق للخامس من ماي 1931 للميلاد "**اجتمع بنادي الترقي بعاصمة الجزائر اثنان وسبعون من علماء القطر الجزائري وطلبة العلم فيه، إجابة لدعوة خاصّة من لجنة تأسيسية متألّفة من جماعة من فضلاء العاصمة عميدها السّيّد عمر إسماعيل – أحسن الله جزاء الجميع – وغرض الدعوة هو تحقيق فكرة طالما فكّر فيها علماء القطر فرادى، وهي تأسيس جمعيّة العلماء المسلمين."**[2]

وقبل الخوض في أهداف جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين لا بدّ من التّذكير بأهمّ العوامل الّتي دفعت أعضاءها لتأسيسها، ويمكن تقسيمها إلى عوامل خارجيّة تتمثّل في:

– تأثير الشخصيّاتِ الإصلاحيّةِ العربيّةِ – كما سبق ذكره – سواء عن طريق الاحتكاك المباشر معها أثناء مواسمِ الحجّ والرّحلاتِ التعليميّةِ إلى جامعة الزّيتونة، والأزهر الشريف، والحجاز والشّام، أو عن طريق المؤلّفات والمجلّات والصّحف التي ذاع صيتها في أوائل القرن العشرين، والّتي كانت "**تصل سرّا إلى الجزائر، ومن هذه الصّحف والمجلات (العروة الوثقى، والمنار، وجريدة اللّواء والمؤيّد)."**[3]

–التأثّر بالنّزعة الجديدة التي سرت في معظم البلدان المقهورة كالمطالبة بالحرّية والمساواة وهذا بعد مشاركة أبنائها في الحرب العالميّة الأولى، وفي الجزائر "**كانت أخبار المعارك التي تخوضها قوات الأمير عبد الكريم الخطّابي تتوارد على الجزائر من الريف المغربي."**[4]

– التعرّف على مختلف التّنظيمات الحزبيّة والنّقابية والعمل الجمعويّ في أوروبا عموما وفرنسا على وجه الخصوص كأداة للمطالبة القانونيّة بالحقوق المدنيّة.

[1] بسام العسلي،عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثّورة الجزائريّة، ص115.

[2] محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي(1929–1940)، ج1،جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، ص71.

[3] حسن عبد الرحمان سلوادي، عبد الحميد بن باديس مفسّرًا، ص21.

[4] المرجع نفسه، ص21.

أمّا أهمّ العوامل الدّاخليّة فهي:

– الثورة التّعليميّة التي أحدثها ابن باديس مباشرة بعد عودته من المشرق العربيّ إذ بات تأسيس تنظيم يجمع تلامذته ويجسّد أفكاره الإصلاحية أكثر من ملحّ.

– النّشاط الصّحفيّ ذو التوجّه الإصلاحيّ الذي شاع في الجزائر بشكل ملفت ما سهّل على الدّعاة التّأثير على الجزائريّين، حيث أدّت الصّحف الوطنية آنذاك دورا بارزا في معركة التحرّر الفكري رغم ما عانته من قهر ومنع ،" **ويأتي على رأس هذه الصّحف جريدة (الجزائر) لعمر راسم التي صدرت 1908م، و(الفاروق) لعمر قدور، و(الأقدام) للأمير خالد، و(المنتقد) و(الشهاب) لعبد الحميد بن باديس، و(الإصلاح) التي صدرت في بسكرة سنة 1927م للطيّب العقبي...**"[1]

– مشكل الطّرقية وآثارها السّلبية على الجزائريّين الّذي بات في تلك الفترة هاجسًا يؤرّق المشايخ خاصّة وأنّ الاحتلال مضى في سياسة الطّمسِ، وأحكم قبضته على العقول والأجساد.

لقد أراد روّاد الجمعيّة من خلال هذا المنبر الدّعوي تحقيقَ غايتين كان لهما الوقع العظيم على مصير الأمّة هما:

1– تنقية الدّين الإسلاميّ ممّا شابهُ من خرافاتٍ وبدع بسبب المخطّط الصليبيّ الّذي بذل كلّ جهده لإطفاءِ جذوةِ النّورِ الإلهيّ في ربوع الوطن.

2– بعث اللغة العربية بعد أن وأَدَها الاحتلال على مرّ أكثر من قرن من الإذلال.

ويظهر هذا جليّا في الخطاب الذي ألقاه الشّيخ البشير الإبراهيمي في اجتماع الجمعيّة العامّ، حيث يقول: "**إنّ جمعيّتكم هذه أسّست لغايتين شريفتين، لهما في قلب كلّ عربيّ مسلم بهذا الوطن مكانة لا تساويها مكانة، وهما إحياء مجد الدين الإسلامي وإحياء مجد اللغة العربية.**" [2]

لا غرابةَ أن تُحصر أهدافُ الجمعيّةِ في هاتين الغايتين، لأنّ بهما تصبو الأمّةُ إلى كلِّ الغايات. فالأولى هي الإسلامُ بمعناهُ الشّاملِ عقيدةً ومنهجَ حياةٍ يُبنى به الفرد والمجتمع وفقَ ما أراده عزّ وجلّ، والثّانيةُ هي أداةُ فهمِه والحصنُ المنيعُ الّذي يقي الأمّةَ من الضّياع والتّشرذم. ويدلّ

---

[1] حسن عبد الرحمان سلوادي،عبد الحميد بن باديس مفسّرًا، ص33.

[2]محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1929–1940)، ص133.

على هذه المتلازمة قولُ البشير الإبراهيميّ مخاطبًا أعضاءَ الجمعيّة:"... **ويأبى لكم الله والإسلام أن تضيّعوا لغة كتاب الله ولغة الإسلام. يأبى لكم الله إلاّ أن ترجعوا إليها لا لتحيوها، بل لتحيوا بها الفضيلة الإسلاميّة في نفوسكم ولتحيوا بها الحياة التي يريدها الله منكم...**"[1]

ومن أجل تحقيق هاتين الغايتين، سعت الجمعيّة إلى تعليم الكبارِ الدّينَ الصّحيحَ واللّغةَ العربيّةَ في المساجد، والصّغارِ ذكورًا وإناثًا في المدارس، والشبابِ في النّوادي، سعيًا منها إلى تخريج دعاةٍ متمرّسين واعين يأخذون على عاتقهم مهمّةَ نشرِ رسالةِ الإصلاحِ في كلّ أنحاء الجزائر، من أجل دفعِهم وتحضيرِهم لتحقيق الأمنيةِ العزيزةِ ألا وهي الاستقلالُ. ومن وحيِ هاتين الغايتين، صاغَ العلماءُ شعارَ الجمعيّةِ الخالدَ: الإسلامُ دينُنا، العربيّةُ لغتُنا، الجزائرُ وطنُنا. ومَضَوْا في تطبيق هذا الشّعارِ على أرضِ الواقع، فحقَّقُوا أعمالًا مجيدةً للشّعب، نذكر بعضا منها:

– أسّست في فترة لا تتجاوز العقدين من الزمن نحو مئة وخمسين من المدارس الابتدائية لتعليم اللغة العربية والدين الإسلامي.

– بَنَت الكثير من المساجد في أنحاء القطر، لأداء الشعائر وإلقاء الدروس الدينية، وكانت السلطات الفرنسية تنظر بعين الريبة إلى هذه المساجد، وتترصّد كل شاردة وواردة فيها لأنّها كانت تعدّها حصونا مسلحة وليست أماكن للعبادة فقط.

–أنشأت عشرات من النوادي في مدن الجزائر وحتّى في مدن فرنسا، تلقي عليهم فيها المحاضرات العلمية والدينية والاجتماعية...[2]

هكذا انتشلت الجمعيّةُ عشراتِ الآلافِ من أبناء الجزائر من الأميّة، بعد أن اختار علماؤها المنهج التعليميَّ التّربويَّ الإصلاحيَّ في خوضِ معتركِ النّضال، وتحاشوا الدّخولَ في السّياسة – كما يتراءى لمتصفّح قوانين الجمعية – إذ كان هذا مبدأً متفقًا عليه، نجده في الفصل الثّالث من قانونها الأساسيّ: "**لا يسوغ لهذه الجمعية بأي حال من الأحوال أن تخوض أو تتدخل في المسائل السياسية.**"[3] والباحثُ المتمرّسُ عن سبب هذا الإعلان الصّريحِ عن تجنّب ابن باديسَ وإخوانِه

[1] المصدر نفسه، ص135.

[2] ينظر: تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ص360، 361.

[3] أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنيّة الجزائرية 1900 – 1930 ، ج2 ، دار الغرب الإسلامي، ط4، بيروت،

العملَ في الميدان السّياسيّ، لن يفوتَه أنّ ذلك لم يكن إلاّ خطّةً استراتيجيّةً ذكيّةً من المؤسّسين، لاجتناب الصّدام مع السّلطات الفرنسيّة، حتّى لا يلقَوْا "**المصير الذي لقيته معظم الحركات السياسية الوطنيّة في الجزائر في ظلّ الأحكام الاستثنائية الزّجرية (قوانين الأندجينا) التي كانت تكتم أنفاس الجزائريين وتحصي عليهم حركاتهم وسكناتهم.**"[1]

وفي خضمّ هذا العملِ الدّعويّ الصّرفِ، والنّشاطِ التّعليميِّ والتّربويِّ، الّذي بُنِي على أساسِ أنَّ تحريرَ الأبدانِ والأوطانِ لن يتحقّق إلاّ بعد تحريرِ العقولِ والأرواحِ، لم يتوانَ المشايخ من إبداء آرائهم حول كلّ القضايا الّتي تعني الشّعبَ والوطنَ الجريحَ بما فيها السياسيّة، إذ "**كانت جمعيّة العلماء تخوض في الأمور السياسية، وتوجّه الشّعب توجيها عربيّا إسلاميا وطنيا يناقض كل المناقضة سياسة الاحتلال وتوجيهه، دون أن تستطيع الإدارة الاستعمارية أن تتعرّض لها... كما أنّ الجمعيّة قد تركت لأعضائها الحرية الكاملة في الخوض في المسائل السياسية العامّة، بصفتهم الشّخصية لا بوصفهم أعضاء فيها**"[2] ولا بأس أن نذكر على سبيل المثال ما قاله رئيس الجمعية الشيخ عبد الحميد بن باديس في محاضرة ألقاها بتونس عام 1937:" ... **وكلامنا اليوم عن العلم والسياسة معًا وقد يرى بعضهم أن هذا الباب صعب الدخول لأنهم تعوّدوا من العلماء الاقتصار على العلم... ولا ينهض العلم والدين كل النهوض إلا إذا نهضت السياسة بجدّ.**"[3] وبفضل أسلوب المراوغة هذا، استطاعت الجمعيّةُ التّصدّي للسّياساتِ التّعسّفيّةِ، وإبداءَ رأيِها في القضايا المصيريّةِ دون أن يصدرَ في حقّها قرارُ الحلِّ، مع ما تعرّضت له صحفُها من إيقافٍ بعد أعدادٍ يسيرةٍ، ومن بين هذه السّياسات:

ـ سياسة التّجنيس الصّادرة في 1919 م والّتي جاءت كتعديلٍ لقانون الأهالي، حيث خُيِّرَ المسلم الجزائريُّ بين أمرين أحلاهما مرٌّ، فإمّا أن يكون مسلمًا جزائريًّا بلا حقوق، أو يتجنّس بالجنسيّة الفرنسية لينال الحقوق الفرنسيّة. ولقد تفطّنت الجمعيّة إلى الهدفِ من هذا القانون الّذي يرمي إلى تفرقةِ الجزائريّ عن أخيه، وتنصيلِه عن دينه الإسلام ، فأصدرت فتواها المزلزلةَ وجاء

1992، ص433.

[1] تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ص70.

[2] تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ص70.

[3] المرجع نفسه، ص221.

فيها أنّ" **التجنّس بجنسية غير إسلامية يقتضي رفض أحكام الشريعة، ومن رفض حكما واحدا من أحكام الإسلام عُدّ مرتدّا عن الإسلام بالإجماع...**"[1]

ـ فصل الدّين عن الحكومة –أو ما يسمّى باللّائكيّة – الّذي تفنّنت فرنسا في تطبيقه حسب هواها، فمن جهةٍ تنفي عن نفسها التّدخلَ في الدّين، إذ لم يكن للتّشريعِ الفرنسيِّ أيُّ علاقةٍ بالدّيانة المسيحيّة بحكم علمانيّة فرنسا، ولكن في المقابلِ كانت تتدخّل في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ في الشّعائرِ الإسلاميّة، وتُحكِمُ الوصايةَ على الأوقاف والمساجد زاعمةً حِرصَها على حفظِ الدّين الإسلاميّ. ولقد صدح البشير الإبراهيميّ بلسان الحقّ فكشف هذا النّفاقَ، بحججه الدّامغة حينما وصف حكومة الاحتلال بكونها "**حكومة لايكية في الزعم والمظهر، وإن كانت مسيحية في الحقيقة والجوهر، وعلى أيّ الحالتين كانت فلا يصدّقها أحد في دعوى المحافظة على الإسلام، لأنّها إن كانت لايكية فاللايكية لا همّ لها بل لا معنى لها إلاّ محو الأديان،... وإن كانت مسيحية فالمسيحية همها محو الإسلام على الخصوص...**"[2]

لقد أسهمت جمعيّة العلماء بنضالها مع أخواتها في التّمهيد للكفاح المسلّح، ولعلّ أبلغ وصف لهذه الجهود ما قاله شاعر الثورة مفدي زكريا:

"وفـــي الـــدّار جَمـــعيةُ العُلماء   تُغذّي العـــقولَ بوحيِ السَّماء
وتَهدي النفوسَ الصراطَ السَّويَّ   وتغرسُ فيـها مـعانـــي الإباء"[3]

لم تقف جمعيّة العلماء عند حدود القضايا الوطنيّة، رغم الظّروف القاهرة التي كانت تحيط بها ومحدوديّة وسائلها، بل عنت بقضايا الأمّة المصيريّة كقضيّة تحرير فلسطين من اليهود، ومصر من الإنجليز، ومشروع المغرب العربيّ الإسلاميّ. وهذا خير دليل على رؤية العلماء الواسعة، وبعدِهم القوميّ، إذ آمنوا بوحدة الأمّة ومصيرها المشترك تحت ظلّ الدّين الإسلاميّ،

[1] عبد الحميد بن باديس، جريدة البصائر، ع95، السنة الثالثة، 1938، ص1 ضمن تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ص73.

[2] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص113.

[3] مفدي زكريّا، إلياذة الجزائر، المعهد التربوي الوطني، الجزائر، دت،ص46.

مصداقًا لقوله صلّى الله عليه وسلّم: **((المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضا.))** متفق عليه.

الفصل الأوّل:

فنّ المقال

لقد تعدّدت فنونُ النّثر الأدبيّ من خطابةٍ، وقصّةٍ، وروايةٍ، ومسرحيّةٍ، وخاطرةٍ، ويُعدُّ المقالُ الأدبيّ من الفنون النّثريّة الجديدة الوافدة إلى الأدب الحديث.

1ـ مفهوم المقال:

لـغة: اشتقّت كلمة (مقال) من الفعل الثّلاثي المعتلّ الوسط (قَوَلَ) الذي تُقلَبُ وَاوُه ألفًا أي (قال)، وقد وردت في القرآن الكريم بصيغة الفعل (قالَ)، كقوله تعالى: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا**﴾ الآية 4 من سورة مريم.

وبصيغة المصدر (قولٌ) كقوله عزّ وجلّ: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ الآية 33 من سورة فصّلت.

وبصيغة المصدر (قيلٌ) كقوله: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللهِ قِيلاً**﴾ الآية 122 من سورة النّساء.

وتُجمع المعاجمُ اللّغويّةُ العربيّة على أنّ المقالَ من الفعل قَوَلَ: " **قول: قال يقول قولاً وقالاً وقيلاً وقولةً ومقالاً ومقالةً: تلفظّ أي تكلّم... المقالةُ: القولُ أي القطعة من الكتاب.**"[1]

وفي لسان العرب لابن منظور: "**قال يقول قولاً وقالاً وقيلاً وقولةً ومقالاً ومقالةً، وأنشد ابن برّي للحطيئة يخاطب عمر رضي الله عنه:**

تحنّن عليّ هداك المليك فإنّ لكلّ مقام مقالاً"[2]

اصطلاحا: لقد تباين مفهومُ المقالِ بين النّقّاد نظرًا لتشعّبه وتداخله بنسبٍ متفاوتةٍ شكلًا ومضمونًا مع الفنونِ النّثريّة الأخرى كالخطابة والمقامة والرّسالة والخاطرة والقصّة، مع انفرادِه واستقلاليّته بخصائصِه المميّزة. ومن أجل إعطاءِ مقاربةٍ تلمّ بمفهوم فنّ المقال، سنعرض بعضا من التعريفات حسب زوايا نظرٍ مختلفة.

[1] لويس معلوف، المنجد في اللّغة والأدب والعلوم، المطبعة الكاثوليكيّة، ط19، بيروت، 1966، ص663.

[2] ابو الفضل جمال الدّين ابن منظور، لسان العرب، م5، ج39، دار المعارف، القاهرة، دت، ص3778.

لا يرى جونسون* (Samuel Johnson) أيّ علاقةٍ تجمع بين المقال والنّثر الإنشائي، إذ هو عنده **نزوة عقليّة لا ينبغي أن يكون لها ضابط من نظام فهي قطعة لا تجري على نسق معلوم ولا يتم هضمها في نفس كاتبها.**[1]

والمقال من حيث شكلُه ومنهجيّتُه الفنّيّةُ يشبهُ إلى حدٍّ ما بحثًا حول موضوع محدّد، فهو "**قطعة إنشائية ذات طول معتدل تدور حول موضوع معيّن، أو حول جزء منه.**"[2] أي أنّ المقال من أكثر الفنون الأدبيّة استيعاباً وشمولاً لشتّى الموضوعات، على اختلاف مجالاته السّياسيّة والاجتماعيّة والثّقافيّة والرّياضيّة والعلميّة والاقتصاديّة والدّينية وغيرها. فموضوعٌ عن تهاوي أسعارِ النّفط وأسبابِه وانعكاساتِه مثلًا لا يمكن أن نجدَه في قصيدةِ شعرٍ، ولا في حبكةِ قصّةٍ، ولا في حوار مسرحيّةٍ، والمقالُ وحدَه هو الّذي يعالج مثل هذه المواضيع. وفي هذا السّياق يعرّف أدموند جوس* (Edmund Gosse) المقالَ بأنّه " **قطعة إنشائية ذات طول معتدل تكتب نثرا، وتلمّ بالمظاهر الخارجية للموضوع بطريقة سهلة سريعة، ولا تعنى إلا بالناحية التي تمس الكاتب عن قرب.**"[3] والمقصود بالطّريقة السّهلة والسّريعة أنّ دورَ كاتبِ المقالِ لا يعدو عن تسجيلِ تأمّلاتٍ، أو تعبيرٍ عن تصوّراتٍ، أو توصيفٍ لمشاهداتٍ تغلب عليها العفويّةُ والسّرعة، تختلف عن المعالجة المتأنّية الّتي تُجمع فيها الحقائقُ وتُصنّف بالاعتمادِ على تقنياتِ البحث العلميّ كالإحصاء والتّجربة والمتابعة. والمقصود بالنّاحية الّتي تمسّ الكاتب تعبيرُ المقال عن ذات الكاتب أكثرَ من تعبيره عن موضوعه الّذي يتضمّنه، لأنّ الكاتبَ يرى الأشياءَ من خلال ذاته الّتي لا تخلو من مشاعرَ وانفعالاتٍ.

---

*جونسون (1709- 1784)م، كاتب إنجليزي،من أشهر مؤلفاته قصة «راسلاس، أمير الحبشة» سنة 1759 وكتاب «حياة الشعراء» سنة 1779. ينظر: الموسوعة العربية الميسرة.

[1] ينظر: محمد يوسف نجم، فن المقالة، دار الثقافة، ط4، بيروت، 1966، ص93، 94.

[2] المرجع نفسه، ص94.

* أدموند جوس (1849-1928)م، شاعر وناقد إنجليزي، وأستاذ للأدب الإنجليزي بجامعة كمبردج (1884-1890). له عدّة دواوين شعرية منها « قصائد جديدة ». كتب رواية بعنوان « الأب والإبن » 1907 وصف فيها علاقته مع والده. ينظر: الموسوعة العربية الميسرة.

[3] محمد يوسف نجم، فن المقالة، ص94.

والمقالُ من حيث مضمونُه وتسلسُله المنطقيُّ يحتوي على ما يريدُ الكاتبُ إيصالَه للمتلقّي من معلوماتٍ وأفكارٍ معتمدًا خطّةً ما، فهو " **فكرة قبل كلّ شيء وموضوع، فكرة واعية وموضوع معيّن يحتوي قضيّة يراد بحثها، قضية تجمع عناصرها وترتّب، بحيث تؤدّي إلى نتيجة معيّنة وغاية مرسومة من أوّل الأمر.**"[1] فللكاتب إذن رسالةٌ يريد عرضَها للقارئ قصدَ إقناعِه بفكرته الّتي يؤمن بها، ويستعملُ من أجل ذلك أدلّةً وبراهينَ شتَّى.

ولقد حاول محمّد يوسف نجم إعطاء تعريفٍ جامعٍ عن مفهوم المقال، فاعتبره "**قطعة نثرية محدودة في الطول والموضوع، تكتب بطريقة عفوية سريعة خالية من الكلفة والرّهق، وشرطها الأول أن تكون تعبيرًا صادقا عن شخصيّة الكاتب.**"[2] فصدقُ الكاتب إذن في التّعبير هو معيارٌ يتحكّم في مصداقيّةِ المقال.

وبعد هذه التّعريفات، تتجلّى لنا أوجهُ التّشابه والاختلاف بين المقال والفنون النّثريّة الأخرى، ونلخّصها في الجدول الآتي:

الفن النثري	أوجه التشابه مع المقال	أوجه الاختلاف مع المقال
الخطبة	ـ توجيه رسالة إلى القرّاء والجماهير. ـ معالجة موضوع عامّ يتصل بقضايا المجتمع.	ـ هدف المقال الإمتاع والفائدة أمّا هدف الخطبة فالإقناع والوعظ والإرشاد.
الرّسالة	ـ معالجة شؤون تمسّ المجتمع. ـ القصر.	ـ يمكن أن توجّه الرسالة إلى أشخاص محدّدين من مرسل إلى مرسل إليه أما المقال فيستهدف جميع النّاس.
المقامة	ـ تناول فكرة محدّدة بتركيز دون تعمّق. ـ الهدف هو الإمتاع.	ـ يطغى اللّفظ المنمّق على المعنى في المقامة باستعمال أساليب البيان والبديع، في حين يركّز الكاتب في المقال على المعنى

[1] سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق، ط8، القاهرة، 2003، ص106.

[2] محمد يوسف نجم، فن المقالة، ص95.

		بتوظيف أسلوب خال من التكلّف عامّة.
الخاطرة	ـ التّراوح بين الاعتدال والطول.	ـ الاعتماد على الذّاتيّة مع غياب الموضوعيّة في الخاطرة، في حين نجدهما في المقال.
القصّة القصيرة	ـ القصر.	ـ اعتماد القصة على الإيحاء والتّصوير أكثر من اعتمادها على الحادثة نفسها، والعكس نجده في المقال.

هذا مفهوم فنِّ المقال سواء عند النّقّاد العربِ أو عند الغربيّين، ولا شكّ أنّ تعدّد هذه المفاهيم يُسهم في إثراء هذا الفنّ النّثري الّذي يُجمع هؤلاء على دوره الرّائد في إيقاظِ وعيِ الجماهيرِ في شتّى المجالات و تثقيفِهم ومن ثمّ التّأثير في رأيهم.

2 ـ نشأة المقال وتطوّره:

يختلفُ النّقّادُ والمؤرّخون حول جذور المقال، فمنهم من يوغرُ في التّاريخ فيعزوها إلى الإنسان القديمِ، ومنهم من يردّها إلى عصرِ النّهضة الأوروبيّة. أمّا بعض النّقّاد العربِ فيعتبرونها امتدادًا لفنّ الرّسائل الّذي ظهر في الجاهليّة. ونستعرض هنا هذه المراحل:*

2 ـ أ – نشأة وتطوّر المقال من العصر القديم إلى العصور الوسطى:

يكاد المؤرّخون والنّقّاد يجمعون على أنّ المقال بوجهه الحديثِ ظهر في عصر النّهضة الأوروبيّة، ولكنّه كباقي الفنون الأدبيّة عرفه الإنسان البدائيّ بشكل يختلفُ عمّا نعرفه الآن لبساطة وسائل الاتّصال آنذاك، إذ عبّر عن موضوعاته "**منذ فجر التاريخ في تهاويل السّحر ورسوم الكهوف، ووجدت في أحاديثه ومسامراته قبل عهد التدوين متنفّسا ومراحًا.**"[1] وكان المقال لا يرتقي إلى قيمة أدبيّة، لأنّ أكثر ما يعبّر عنه ذلك الإنسان هو تأمّلاتُه وخواطرُه بطريقة ساذجة.

وبظهور الكتابة، ارتبط المقالُ القديم في الثّقافاتِ الشّرقيّة القديمة الفارسيّة والهنديّة والصّينيّة بموضوعات الدّين والفلسفة. ففي الأدب الصّيني القديم مثلاً نجدها جليّة في "**الأقوال المأثورة التي تنسب إلى كونفوشيوس (حوالي 500 ق.م)، وكذلك في آثار تسي زي في ذلك العهد، ثمّ في كتابات منشيوس (حوالي 300 ق.م)...**"[2]

ولقد بدأت معالم المقال تلوح عند الإغريق والرّومان في الفترة الممتدّة من القرن السابعِ قبل الميلاد حتى القرن الثّالث، حيث كان لكتاباتِ الفلاسفةِ أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو–الّتي اتّسمت بالحريّة في التّفكير والمنطق–الأثرُ الكبيرُ فيما بعد على المقال الحديث. ولقد عَدَّ المؤرّخون " **ثيوفراطوس، تلميذ أرسطوطاليس، رائدا لمقالة الشخصيات...أمّا فلوطارخوس فقد وضع أسس المقالة التّأمّليّة.**"[3]

ولقد أسهم الأدب اللّاتينيّ– ما بين القرن الثّاني قبل الميلاد والقرن الرّابع بعده– في انتعاش

---

*تعمّدت عدم ترتيب هذه المراحل حسب التسلسل الزّمني لإزالة أيّ اعتقاد بأنّها مراحلُ مترابطةٌ فيما بينها.

[1] محمد يوسف نجم، فن المقالة، ص8.

[2] المرجع نفسه، ص10.

[3] المرجع نفسه، ص12، 13.

المقال، فتوسّعت موضوعاتُه إلى تأمّلية ونقديّة ووصفيّة، ونبغ فيها هوراس* (Horace).

وفي عصور الهيمنة البابويّة على أوروبا، دخل الأدب في سباتٍ عميقٍ، وكاد فنّ المقال يندثر، وانصرف رجال الدّين إلى الوعظ والإرشاد فقيّدوا عقولهم باستثناء بعض من تفرّغ لكتابات فلسفيّة ودينيّة للدّفاعِ عن الدّيانة النّصرانيّة "**وردِّ كيد خصومها ومقارعتهم الحجة بالحجة... ولعلّ (اعترافات القديس أغسطين) حوالي 400 م، هي أبرع استهلال لهذا النوع.**"[1]

2 ـ ب – نشأة وتطوّر المقال في عصر النهضة:

لقد ارتبط ظهورُ المقال بالثّورة العلميّة والفكريّة والثّقافيّة الّتي ميّزت عصرَ النّهضة الأوروبيّة، بعد أن فكّ الإنسان الأوروبيّ عن نفسه الأغلالَ الّتي قيّدته بها الكنيسةُ في العصور الوسطى، فأصبح حرّا في التّعبير عن رأيه والإسهام بخبرته من أجل تجسيد أفكاره. "**وظهر في هذه الفترة بعض الأعلام الذين مهّدوا السّبيل أمام ازدهار هذا الفنّ الأدبي. نذكر منهم على سبيل المثال، لا الحصر، دانتي وبترارك ومكيافيلي ...**"[2]

ولقد ظهر المقال بصورته الحديثة في فرنسا على يد الفرنسيّ مونتين** (Michel de Montaigne) في القرن السّادسَ عشرَ الميلادي، وتميّز آنذاك بالإفراط في الذّاتية والأحاديث الشّخصيّة، ويمكن القول إنّ مونتين هو الّذي " **بذر في مقالاته هذه بذور التراجم الشخصية التي استوت فيما بعد فنًّا قائما بذاته له أصوله ومشتقّاته.**"[3] ولمّا اشتهرت مقالاتُه في أوروبا بفضل التّرجمة وانتقلت إلى إنجلترا، صارت على نقيض ما نشأت به، إذ تجلّى في مقالات الإنجليز انعدام "**العنصر الشّخصي وصور التجارب الخاصة.**"[4]

---

*كوينتس هوراتيوس فلاكس أو هوراس (65 ق م – 8 ق م)، شاعر روماني غنائي وناقد أدبي لاتيني، عرف بالقصائد الغنائية والمقطوعات الهجائية. ينظر: موسوعة ويكيبيديا الحرّة.

[1] محمد يوسف نجم، فن المقالة، ص15، 16.

[2] المرجع نفسه، ص16.

** ميشيل دي مونتين (1533– 1592)م ، أديب فرنسي وفيلسوف وقاض. تعدّ مقالاته نموذجاً لأدب المقالة في تاريخ الآداب كلّها. ينظر: موسوعة ويكيبيديا الحرّة.

[3] محمد يوسف نجم، فن المقالة، ص30.

[4] المرجع نفسه، ص34.

دخل المقال في القرنِ السابعَ عشرَ في مرحلةٍ جديدة، حيث رُوعيَ فيه التّصميمُ والتّنسيقُ والحديثُ المرسل المستفيض ، والمزجُ بين أسلوبي مونتين وباكون* (Francis Bacon) حيث نجد "**هذا الطور الذي يشمل مرحلة التأثّر بمونتين أولا ثم به وبباكون ثانيا... واجتمع أثرهما فيها، فيما أبداه الكتّاب من عناية بالموضوعات الأخلاقيّة بمعناها الواسع. على أن تعالج هذه الموضوعات في ظل الحكم الكلاسيكيّة السّائرة، أو بالروح الكلاسيكية في الأخلاق والتأمّلات.**"[1]

وفي القرنِ الثّامنَ عشرَ، بلغ المقالُ من التطوّرِ مبلغًا كبيرًا، ونبغَ فيه ريتشارد ستيل(Richard Steel) وجوزيف أديسون (Joseph Addison)، بفضل ما تميّزوا به من موهبةٍ ووعي. فالمقالُ في هذا القرن لم يقف عند التّأمّلات الذّاتيّة، بل تجاوزها إلى تحليل مظاهر الحياة المعاصرة، كما تغيّر أسلوبُه، فأصبح إنشائيًّا جديدًا. واستُحدِثت طرقٌ في العرض والتّحليل، حيث عُولجت مختلفُ القضايا بلغةٍ أدبيّةٍ تتّسم بالبلاغة.

في مطلعِ القرنِ التّاسعَ عشرَ، اتّسعت دائرةُ اهتمامِ المقال بشتّى المجالاتِ وظهرت شخصيّةُ الكاتب فيه، وازداد طوله بسبب تصميمِ المجلّات. وأشهر روّاده لي هنت(Leigh Hunt) ، ودي كونسي (De Quincey)، وصارت كلّ قطعة نثرية تعتبر مقالا، سواء كان بحثا علميّا قصيرا أو قطعة أدبيّة فنيّة. وفي خضمّ هذه الظروف تأثّرت البلاد العربيّة بأدب المقال، بسبب الاحتكاك

* أهم روّاد فنّ المقال في الغرب:

-فرانسيس باكون (1561-1626)م، فيلسوف ورجل دولة وكاتب إنجليزي، من الرواد الذين انتبهوا إلى غياب جدوى المنطق الأرسطي الذي يعتمد على القياس. ينظر: موسوعة ويكيبيديا الحرّة.

-ريتشارد ستيل (1672-1729)م، كاتب مسرحي إنجليزي. نبغ في بلورة أسلوب المقالة و هيكلها. اشترك في تحرير مجلتي «تاتلر» و«سبكتيتور» انفرد باللباقة و بالبعد عن التكليف. ينظر: الموسوعة العربية الميسرة.

-جوزيف أديسون(1672-1719)م، كاتب مقالات وشاعر وسياسي إنجليزي. من رواد المقالة الاجتماعية، وتمتاز مقالاته بأسلوبها الكلاسيكي الرصين الناصع وبروح الدعابة والسخرية الخفيفة. ينظر: الموسوعة العربية الميسرة.

-لي هنت (1784-1859)م شاعر وكاتب وناقد إنجليزي من أنصار الرومانسية. ينظر:الموسوعة العربية الميسرة.

- توماس دي كونسي(1859- 1785)م. كاتب إنجليزي. اتصف بالإفراط في الزخرفة اللغوية، وحفل بالإيقاعات اللطيفة المرهفة الحس من حيث صوت الكلمات وترتيبها. ينظر: الموسوعة العربية الميسرة.

[1] محمد يوسف نجم، فن المقالة، ص45، 46.

بالغرب عن طريق الاستشراق والاستيطان والتّرجمة.

2 ـ **جـ – نشأة وتطوّر المقال في الأدب العربي حتى منتصف القرن العشرين:**

قبلَ الحديثِ عن نشأة المقال عند العرب، نشير إلى أنّه لم يكن معروفًا في الجاهليّة بسبب اهتمامِ العرب بالشّعر والخطابة والأمثال، وهي فنونٌ مرتبطة بالمشافهة. ويذهب الكثيرُ من النّقاد العرب إلى أنّ المقال ظهر في الأدب العربيّ مع بزوغ شمس الإسلام، إلاّ أنّه لم يأخذ المنحى الّذي كان بالإمكان أن يتطوّر به بسبب اعتماده على "**الصنعة الثقيلة الممجوجة، في الأسلوب الإنشائي وفي الصّور البديعية والبيانية.**"[1] ولقد عُرِف هذا الفنُّ – آنذاك– باسم الرّسالة، أو الكتاب، لأنّها كانت تُرسل من شخص إلى آخرَ مكتوبةً على قطعة ورقيّة أو رُقعة جلديّة.

وفي العهد النّبويّ، استعملت الرّسالة وسيلةً للتّواصل بين الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– وعمّاله، واتّبع الخلفاء الرّاشدون هذا المنهج في إسداء تعليماتهم وتوجيهاتهم للقادة والولاة في مجالي السّياسة والحرب، ممّا جعل استعمالَ الرّسالة يتزايد باتّساع رقعة الدّولة الإسلاميّة جرّاء الفتوحات.

وكانت الرّسائل الدّيوانيّة والإخوانيّة في العصر الأمويّ أحسنَ مثالٍ عن هذا الفنّ الّذي برع فيه المتكلّمون العرب وكذلك الفقهاء إلى حدّ كبير، وتمثّلت في مقالات المناظرات والمواعظ السّياسية والدّينية. ويعدّ عبد الحميد الكاتب واحدا من هؤلاء الّذين بادروا بالتّنظير للكتابة، بل وضع قواعدَ لها، وقد قيل "**فتحت الرّسائل بعبد الحميد...**"[2] واشتهر برسالته التي وجّهها إلى الكتّاب حيث أوصاهم بالتّفقّه في الدّين، وحفظ كتاب الله، والاضطلاع باللّغة العربيّة، وإجادة الخطّ، ورواية الشّعر، والإلمام بتاريخ الأمم عربِها وعجمِها، وكذلك تعلمّ علم الحساب. وهذا بحقّ مميّزات كاتب المقال الواسع الثّقافة اليوم.

ومن أمثلة رسائل عبد الحميد الكاتب هذه الرّسالة التي خطّها بأمر من الخليفة إلى ولاة الأمصار لمنع لعبة الشّطرنج الّتي شاعت شيوعا عظيما حتى صارت ملهية: "**أمّا بعد فإن الله شرع دينه، بإنهاج سبله، وإيضاح معالمه بإظهار فرائضه، وبعث رسله إلى خلقه دلالة لهم على ربوبيته...**

[1] محمد يوسف نجم، فن المقالة، ص18.

[2] شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، ط9، مصر، دت، ص114.

فكان فيما تقدّم إليهم فيه نهيه، وأعلمهم سوء عاقبته، وحذّرهم إصره، وأوعز إليهم ناهيا وواعظا وزاجرا الاعتكاف على هذه التماثيل من الشطرنج... وقد بلغ أمير المؤمنين أنّ ناسا ممن قبلك من أهل الإسلام قد ألهجهم الشيطان بها وجمعهم عليها، وألّف بينهم فيها. فهم معتكفون عليها من لدن صبحهم إلى ممساهم ملهية لهم عن الصّلوات شاغلة لهم عمّا أمروا به... فآذن بذلك فيهم وأشده في أسواقهم وجميع أنديتهم، وأوعز إليهم فيه وتقدّم إلى عامل شرطتك في إنهاك العقوبة لمن رفع إليه من أهل الاعتكاف عليها...والسلام."[1]

وهذه الرّسالة تعالج آفة اجتماعيّة خطيرة أبعدت النّاس عن أداء واجباتهم الدّينية والدّنيوية، وزرعت فيهم الكسل والخمول بدعوى الرّياضة الفكريّة في لعبة الشّطرنج.

وفي أوائل العصر العباسيّ، ظهر ابن المقفّع ونبغ في فنّ الرّسائل لاحتكاكه بالخلفاء، وعملِه في الدّواوين، ولقد ألّف (رسالة الصّحابة) التي جعلها دستورا يسير عليه الخلفاء العبّاسيون، مقتبسا مضمونه الإصلاحيّ من تاريخ الفرس في مجال النّظم السّياسيّة والإداريّة، واعتمد في ذلك على البراهين والحجج. وفيما يأتي فقرة من رسالة لابن المقفّع، في باب صحبة السلطان:

"إن استطعت أن تجعل صحبتك لمن قد عرفك بصالح مروءتك وصحة دينك وسلامة أمورك قبل ولايته، فافعل. فإنّ الوالي لا علم له بالناس إلاّ ما قد علم منهم قبل ولايته. فأمّا إذا ولي، فكلّ الناس يلقاه بالتزيّن والتّصنّع، وكلّهم يحتال لأن يثني عليه عنده بما ليس فيه. غير أن الأنذال والأرذال هم أشدّ لذلك تصنّعا وأشد عليه مثابرة وفيه تمحّلا. فلا يمتنع الوالي ـ وإن كان بليغ الرّأي والنّظر ـ من أن ينزل عنده كثير من الأشرار بمنزلة الأخيار، وكثير من الخانة بمنزلة الأمناء، وكثير من الغدرة بمنزلة الأوفياء؛ ويغطّى عليه أمر كثير من أهل الفضل الذين يصونون أنفسهم عن التمحّل والتصنّع."[2] ويبدو الكاتب ناصحا كلّ إنسان تقرّب من الوالي أن لا ينافق، وأن ينزع عنه التزلّف له لأنّ ذلك يضعه في خانة الأنذال. ولا شكّ أنّ موضوع هذه الرّسالة يندرج ضمن المجالين الاجتماعيّ والسّياسيّ اللّذين يمثّلان المقالة الذّاتية في عصرنا الحديث.

---

[1] حنّا الفاخوري، منتخبات الأدب العربيّ، منشورات المكتبة البوليسية، ط5، بيروت، 1970، ص133، 134.

[2] عبد الله بن المقفّع، الأدب الكبير، تح: أحمد زكي باشا، جمعيّة العروة الوثقى الخيريّة الإسلاميّة، الإسكندرية، 1912، ص31،32.

وفي أوجّ العصر الذّهبي للدولة العباسية، ازدهرت فنون الأدب لا سيّما علم الكلام والفلسفة والأدب، فأضفوا على كتاباتهم دقّةَ الوصف، وقوّةَ الاستدلال والسّخرية، ونمّقوها بمحسّنات بديعيّة. ويعدّ الجاحظ ممّن أسهموا في ارتقاء هذا الفنّ، إذ نجد ذلك واضحًا في رسالة التّربيع والتّدوير، إذ أنّ لها "**قيمة علميّة قائمة على ما ذكر الجاحظ من القضايا الفلسفية والعلمية والتاريخية؛ ولها قيمة فنّيّة أدبيّة قائمة على التهكم والسخريّة اللاذعة وذلك عن طريق المفارقات والمتناقضات، والجدل والاحتجاج والحوار، والتصوير الكاريكاتوري الناطق، واللباقة في الحديث.**"[1] وهذه فقرة من رسالة علميّة للجاحظ حول موضوع أصل العدّ:

"... **ومن أول من عدّ إلى عشرة وجعل العشرة منتهى وغاية، ثمّ ضـاعفها وجعل غايات الأعداد عشر العشرات وعشرات عشـرات العشرات أبدا، ثمّ كسر على العشرة مـما دون أعدادها، لأن الأصابع عـشرة؟ وكيف لم يـجعل الغاية ما له نصف وثُلث ورُبع وسُدس وثُمن؟ أم رأى أن التضعيف أبدا لا يكون إلا للعشرات فقد نجده في عشر العشرات، أم الـقول الأوّل: الأشياء كلّها عشرات؟**"[2] وهذا يبيّن خبرة الكاتب في علم الحساب، إذ تحدّث عن نظام العد بالأساس عشرة، وربطه بعدد الأصابع، وهي محاولة تقترب من المقالة العلميّة الحديثة.

وفي العصر العبّاسي الثّالث* شاع كتّاب الرّسائل واشتهر بعضهم بالشّعر والنّثر معًا، كأبي الفضل محمد بن العميد، والصّاحب بن عبّاد، وبديع الزّمان الهمذانيّ، وأبي منصور الثّعالبيّ، وأبي حيّان التّوحيديّ. وقد مالت الرّسائل إلى التكلّف دون إهمال المعنى،"**إلا أنه يبقى للأسلوب قوته وبهاؤه وجودته، لأنّ الصنعة لم تصل فيه إلى حدّ التكلّف الممقوت.**"[3] وكان التوحيديّ ممّن اتّصفوا بحرّيّة التّعبير، وجزالة اللّفظ، وسعة العلم، لأنّه عاش في القرن الرّابع الهجريّ الّذي نضجت

---

[1] حنّا الفاخوري، منتخبات الأدب العربيّ، ص259.

[2] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، التربيع والتّدوير، تح: شارل بلات، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1955، ص81.

*العصر العبّاسي الثّالث 335–447هـ/ 946–1055م. يبتدئ بقيام الدّولة البويهيّة واستقلالها بالسّلطان، وينتهي بسقوط بغداد في أيدي السّلاجقة. ينظر: موسوعة ويكيبيديا الحرّة.

[3] عبد اللطيف محمد السّيد الحديدي، فن المقال في ضوء النقد الأدبي، الدّار الإسلاميّة للطّباعة والنّشر، ط3، مصر، 2003، ص117.

فيه العلومُ وازدهرت، ممّا جعل الكثيرَ من النّقّاد يشهدون له بالرّيادةِ في فنّ الرّسائل الشّديدِ القربِ من المقالةِ الفلسفيّة العلميّة، بخلاف الآخرين. وهذا جزءٌ من رسائل أبي حيّان التوحيديّ حول ماهيّة النّفس: "...**إنّ الكلام في النفس صعب، والباحثون عن غيبها وشهادتها وأثرها وتأثّرها في أطراف متناوحة وللنّظر فيهم مجال، وللوهم عليهم سلطان، وكلّ قد قال ما عنده بقدر قوّته ولحظه، وأنا آتي بما أحفظه وأرويه، والرأي بعد ذلك إلى العقل الناصح والبرهان الواضح.**

قال بعض الفلاسفة: إذا تصفّحنا أمر النفس لحظناها تفعل بذاتها من غير حاجة إلى البدن، لأن الإنسان إذا تصوّر بالعقل شيئا فإنّه لا يتصورّه بآلة كما يتصوّر الألوان بالعين والروائح بالأنف، فإنّ الجزء الذي فيه النفس من البدن لا يسخن ولا يبرد ولا يستحيل من جهة إلى أخرى عند تصوّره بالعقل، فيظنّ الظّانّ منا أن النفس لاتفعل بالبدن، لأن هذه الأمور ليست بجسم ولا أعراض جسميّة..."[1] ونرى جليّا تمكّنَ الكاتب من علوم شتّى، وقدرتَه على توظيف المصطلحات المناسبة لموضوع هذه الرّسالة مثل العقل، والبدن، والنّفس، والذّات... وهذا يقرّبها من المقالات الموضوعيّة.

وفي أواخر العصر العباسيّ، تراجعت الرّسالة، وأُصيبت بالضّعف، وتدحرجت نحو الجمود، بسبب التكلّف المقيت، والإمعان في التّعقيد. ومن روّاد الكتابة في هذه الفترة القاضي الفاضل وعماد الدّين الأصفهاني، والحريريّ الّذين مالوا "**إلى تنميق العبارة، والمبالغة في الإطراء، والتأنّق في الإنشاء... والاسترسال في تزويق العبارة بأنواع البديع والجناس.**"[2] وهذه الفقرة من رسالة للقاضي الفاضل إلى الخليفة ببغداد يبشره بفتح بلد من بلاد النوبة: "**ولم يبق إلاّ مواقد نيران رحلت قلوبهم بضرامها، وأثافيّ دهمٍ أعجلت المهابة ما ردّ سغبهم عن طعامها، وغربان بينٍ كأنّها في الدّيار ما قطع من رؤوس بني حامها، وعوافي طير كانت تنتظر من أشلائهم فطر صيامها؛ وعادت الرّسل المنفذة لاقتفاء آثارهم وأداء أخبارهم ذاكرة أنّهم لبسوا اللّيل حدادا على النّعمة التي خُلعت، وغسلوا بماء الصّبح أطماع نفس كانت قد تطلّعت، وأنّهم طلعوا الأوعار أوعالا، والعــقاب**

[1] أبو حيّان التوحيديّ، الإمتاع والمؤانسة، صحّحه وضبطه وشرح غريبه: أحمد أمين وأحمد الزين، ج1، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، د ت، ص198.

[2] جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج3، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، 1983، ص43.

عقبانا، وكانوا لمهابط الأودية سيولا، ولأعالي الشجر قضبانا..."[1]

والملاحظ في هذه الرّسالة أنّ الكاتب لفّ ودار، وأثقل هذه الرّسالة – الّتي تحمل في الأساس بشرى– بالمحسّنات والصّور، وتكلّف انتقاءَ الألفاظ الصّعبة الفهم حتىّ كادت تُفقد الرّسالةَ هدفَها.

وفي عصر الانحطاط، تحت الحكم التّركي، صارت الرّسائل ضعيفةَ البناء، مبتذلةَ الأفكار، مثقلةً بأنواع من المحسّنات البديعيّة والصّور البيانيّة، تعكس البيئة الأدبيّة المترديّة الّتي كانت سائدة آنذاك. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا الجمودَ لم يحلْ دون نبوغ أدباءَ وعلماءَ يعدّون من أعلام الأمّة، أمثال عبد الرحمان بن خلدون في التّاريخ، وابن بطّوطة في أدب الرّحلات، وجلال الدّين السّيوطي في التّفسير، والخطيب القزويني في البلاغة.

وفي بداية العصر الحديث، ظهر المقال في العالم العربيّ تزامنًا مع ظهور المطبعة ابتداءً من القرنِ التّاسعَ عشرَ الميلادي، وسار بوتيرة بطيئة لأنّه ورث عن الرّسالة خصائصها المكبّلة، فجاء الأسلوب في تلك المرحلة "**مليئا بالصّنعة والبديع المتكلّف، كما كان موضوعها يتّصل – غالبا– بالموضوعات الرّسمية لشؤون الدّولة وتنظيمها.**"[2]

لا يكاد يختلف النّقّاد في الحقل الأدبي على فضل رفاعة الطّهطاوي الّذي يُعدّ واحدا ممّن أسهموا في إحداث ثورة ثقافيّة في العالم العربيّ، ومن الكتّاب الأوائل الذين كان لهم دورٌ في تأسيسِ الصّحافة في مصر، وبعثِ المقالة في ثوبها الجديد بعد عودته من رحلته إلى فرنسا. ولقد مكث بها بضع سنين، وألّف كتابه المشهور (تخليص الإبريز في تلخيص باريز)، وصف فيه حياة الفرنسيّين السّياسيّة والاجتماعيّة والثّقافيّة، وبهذا حمل معه بذور المقالة التي بدت متأثّرة أيّما تأثّر بالمقالة الغربيّة الحديثة. وتعتبر جريدة (الوقائع المصريّة) منبرًا صحفيّا ضمّ أقلامًا أدبيّة بجانب الطّهطاوي، أمثالَ حسن العطّار، وإسماعيل الخشّاب الّذين حاولوا التخلّصَ من نمطِ الكتابة القديمة، وفتحَ المجالِ لمرحلةٍ جديدة اتّسمت فيما بعدُ بخلوِّ المقال من البديع والبيان، واهتمامِ الكتّاب بقضايا المجتمع المصيريّة سيّما في أواخر القرنِ التّاسعَ عشرَ، إذ كانت الأمّة قد دخلت في

[1] حنا الفاخوري، منتخبات الأدب العربي، ص380.

[2] عبد اللطيف محمد السّيد الحديدي، فن المقال في ضوء النقد الأدبي، ص119.

مرحلة الوعي السّياسيّ، "**وهكذا تحرّر النثر في تلك المرحلة تحرّرا كبيرا من التكلّف والسّجع، وأصبح في الغالب سهلا مرسلا، وأصبح كتّابه يؤثرون بلاغة العبارة، واختيار اللّفظ، وسلامة التّركيب، والتعبير السليم، والمعنى الواضح.**"[1]

ولقد تميّزت هذه الفترة بانتعاش الكتابة الأدبيّة وبروز كتّابٍ وأدباءَ اتّخذوا من مصرَ وجهةً لهم، ومنطلقًا لنشر أفكارهم في مختلف الصّحف والمجلاّت ، كجريدة وادي النيل، وجريدة الأهرام، وجريدة مصر، وجريدة العروة الوثقى، وكان أبرزُ كتّابِ هذه المرحلة جمال الدّين الأفغاني، ومحمد عبده –وسيأتي ذكر أعمالهما لاحقا– ونخبةٌ من الشّباب كأديب إسحاق، وإبراهيم اليازجي، وجرجي زيدان، وولي الدين يكن، ومصطفى لطفي المنفلوطي.

وفي بداية القرن العشرين، وبازدياد الوعي وتنوّع الرّوافد الثّقافيّة للأدباء والمفكّرين العرب بسبب تأثّرهم بالغرب، "**مالت الأفكار إلى التجديد، والابتكار، والعمق، والغزارة ، والترتيب، والوضوح، والتحليل، والتعليل...وقد تبلور فن المقالة في صورته الناضجة النهائية في هذا القرن، فقد ازداد الوعي بأصول المقالة، ودخلها التيّار الوجدانيّ الفنّيّ، وأصبحت تتردّد بين الذاتية والموضوعيّة... وأصبح الكاتب يستخدم عبارة رقيقة عذبة، أو عبارة قويّة مؤثّرة تبعا لطبيعة الموضوع الذي يتناوله.**"[2]

وقد ظهر بعد الحرب العالميّة الأولى جيلٌ اعتبر نفسه مجدّدا نابذا كلّ قديم، فالأدب العربيّ القديم عنده ""**كلّه لا يصلح لحياتنا وكذلك أسلوبه الموشى بالسّجع وغير السّجع، بسبب بسيط وهو الرّقيّ العلميّ الحديث.**"[3] وقد عارض الرافعيّ بشدّة هذه الفكرة فكان أحد الروّاد الذين تمسّكوا بالقديم ودافعوا عنه، "**ومع ذلك حاول أن يقف بين القديم والجديد وأن يكوّن لنفسه نهجا خاصّا عرف بمذهب ((الرّافعيّة)) وغلبت عليه نزعة القديم.**"[4] هذا ما أسفر عن ظهورِ فئة من الأدباء وفقت بين الاتّجاهين، فحافظت على أسلوب القدماء ومزجته بأسلوب المجدّدين لتمثّل مرحلة

---

[1] عبد اللطيف محمد السّيد الحديدي، فن المقال في ضوء النقد الأدبي، ص121.

[2] المرجع نفسه، ص123.

[3] شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف، ط10، القاهرة، 1992، ص191.

[4] حنّا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربيّ، دار الجيل، بيروت، 1986، ص310.

أخرى لفنّ المقال الّذي حمل ميزاتٍ جديدةً على مستويي الشّكلِ والمضمون. وهؤلاء المجدّدون "**من أمثال طه حسين وهيكل والعقّاد والمازنيّ كانوا يرون أن يظلّوا مع الأسلوب الفصيح الرّصين الجزل، حتى يكون لأدبهم موقع حسن في الأسماع والقلوب، فهم يحرصون على الإعراب وعلى الألفاظ الصّحيحة التي تقرها المعاجم، وهم في داخل هذا الإطار يجدّدون تجديدا لا يخرج بهم عن أصول العربية، وإنّما يغنيها وينمّيها بما يضيفون من نماذج وفكر جديد.**"[1]

إنّ ما طرأ على الأمّة من أحداث، ومستجدّات وتطوّرات في شتّى المجالات، فتح الباب على مصراعيه للكتّاب لمخاطبة النّاس مباشرةً لتوعيتهم بقضايا وطنهم، وشؤون دينهم، وأمور حياتهم. ولقد أسهم انتشارُ المطابع في الوطن العربيّ في ذيوع المقال بين أوساط الجماهير المثقّفة، وبفضل الصّحافة استطاعت المقالة أن تتبوّأ مكانة لا يستهان بها في منظومة التّغيير والإصلاح، وأسهمت في بروز حركات التحرّر من الاحتلال الأجنبيّ في منتصف القرن العشرين.

[1] شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر، ص192.

3 ــ أنواع المقال:

يمكن تقسيم المقال إلى ذاتيّ وموضوعيّ إذا اعتُمِدَ في التّقسيم على مقدار توظيف الكاتب لأحاسيسه وآرائه الخاصّة. ويمكن تقسيمه إلى أدبيّ وصحفيّ حسب الغاية منه والأسلوب المستعمل فيه، إذ يكون المقال أدبيّا إذا كانت غاية الكاتب جماليّة، ويكون صحفيّا إذا كانت غايته الإخبار، ويتجلّى الفرق بينهما من خلال الأسلوب الموظّف.

I) أنواع المقال من حيث الموضوع المعالج:

I ــ 1 ــ المقال الذاتيّ:

في هذا النّوع من المقال، تظهر شخصيّة الكاتب "**قويّة آمرة تشدّ انتباه القارئ عمّا فيها من عاطفة مشحونة وانفعال قويّ، ويعتمد المقال الذاتي على أسلوب يتدفّق بالموسيقى والإيقاع الذي يترجم الفكرة كما يعتمد على التصوير الخيالي الذي ينبع من وجدان الكاتب.**"[1] وبهذا ينجح الكاتب في التّعبير عن مكنونات نفسه، معتمدًا على عواطفه الجيّاشة وخيالاته الفيّاضة من أجل التّأثير على القارئ بشتّى أنواع الانفعال من حزن وفرح. وكثيرًا ما يؤدّي هذا الانسياق نحو أغوار النّفس إلى اكتشافِ القارئِ ثنايَا شخصيّة الكاتب وخلفيّتَه الثّقافيّة ومن ثمّ توجّهاتِه الفكريّة والإيديولوجيّة. وينقسم المقال الذاتيّ بدوره حسب مضمونه إلى أنواع منها:

I ــ 1 ــ أ ــ المقال الاجتماعيّ:

يستهدف المقال الاجتماعيّ المشكلاتِ الّتي يعيشُها المجتمعُ كالآفات الاجتماعيّة، ومشاكلِ الأسرة، والعلاقاتِ بين أفراده، محاولاً إصلاحَها وإيجادَ الحلول لها، ويتميّز هذا النّوع "**بالوجدانية الصّادقة التي تعبّر عن شعور الكاتب الجماعي فهو في مقالاته الاجتماعية لا يعبر عن شعوره فحسب، بل يعبّر كذلك عن شعور أفراد مجتمعه، فيشاركهم معاناتهم وبؤسهم وشقاءهم في ظل ما يسود المجتمعَ من أوضاع اجتماعية سيّئة.**"[2] فالمقال الاجتماعيّ إذن اقترب

[1] عبد العاطي شلبي، فن النّثر الحديث، ج1، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ص2.

[2] عبد اللطيف محمد السيد الحديدي، فن المقال في ضوء النقد الأدبي، ص29.

في موضوعاته من حياة الشّعب وقضاياه المتنوّعة، فكان ميدانًا مفتوحًا لعرض أفكارِ الأديب وآرائه. ونجد كُتّاب المقال في الأدب العربيّ الحديثِ يهتمّون بهذا النّوع اهتمامًا خاصّا، وهذا دليل على وعيِهم الكبيرِ بواجبهم تجاهَ هذه القضايا بصفتهم مثقّفين، وحرصِهم الشّديدِ على المشاركة في إصلاح الأوضاع المعيشيّة. ويستمدّ المقال الاجتماعيّ موضوعاتِه من حياة عامّة النّاس العامرةِ بمشاكلَ مختلفةٍ، كالفقر والجهل والتفكّك العائليّ وقضايا المرأة، فيحلّل أسبابَها ويبحثُ عن حلولٍ لها. كما يتميّز بوضوح الفكرة، والمناقشة الهادئة، مع اقتراح الحلول المناسبة بالاعتماد على الأدلّة المنطقيّة والشّواهد الواقعيّة، والاهتمامِ بالمعنى و جمال الأسلوب بالقدر الذي يخدم الفكرة ويوضّحها في ذهن القارىء. "**ولا بأس أن يبدأ الكاتب مقالته الاجتماعية بالنّداء، أو الرّجاء، أو التمنّي، ولا تفيد الجملة في مستهلّ المقالة معنى محدّدا، أو يصل الكاتب بها إلى خلاصة أوفكرة، بل تكون استهلالا لمعان متتالية**."[1]

وتمثّل الفقرة التّالية مقطعا من مقال اجتماعيّ عنونه صاحبه أحمد أمين (العدل)**:** "**والمجتمع العادل هو المجتمع الذي له من النظم والقوانين ما يسهل لكل فرد من أفراده أن يرقي نفسه على قدر استعداده، فلا يكون المجتمع عادلا حتى تتوافر لكلّ طائفة من الناس وسائل رقيّهم... فكل إنسان مطالَب لأن يعمل لتحقيق العدل في مجتمعه على قدر استطاعته، فإذا احتاجت مدينة إلى مستشفيات مثلا فعلى الخطيب أن يخطب حاثّا على إنشائها، وعلى كتّاب الجرائد أن يكتبوا، ... وعلى الأغنياء أن يتبرعوا ... ثمّ على من في يدهم تنفيذه أن ينفذوا**."[2]

فإذا تأمّلنا في مضمون النّصّ، نجد الكاتب قد أبان عن فكرة العدالة الاجتماعيّة ألا وهي حقُّ الاستشفاء، فوضّح أن واجب تحقيقها يقع على عاتق الجميع، معتمدا على أسلوب سهل وجميل، مستعملا أدلّة واقعيّة بهدف إقناع هؤلاء للإسهام في بناء المستشفى.

I ـ 1 ــ ب ـ المقال الوصفيّ:

مقالٌ يَعرض فيه كاتبه وصفا ذاتيّا لبعض مشاهد الطّبيعة ومظاهر الحياة، من خلال

[1] عبد اللطيف محمد السيد الحديدي، فن المقال في ضوء النقد الأدبي، ص31، 32.

[2] أحمد أمين، الأخلاق، دار الكتاب العربي، بيروت، 1969، ص222.

أحاسيسه ومشاعره وعاطفته الخاصّة، برؤية وانطباع شخصيّين، بغرض إمتاع القارئ. ولو تأمّلنا فكرة المقال الوصفيّ نجد أنّ قيمتها الحقيقيّة تعتمد "**على دقّة الملاحظة وعلى التعاطف العميق مع الطبيعة الذي لا يحوّر إلى عاطفية مسرفة. ثم على الوصف الرّشيق المعبّر الذي ينقل أحاسيس الكاتب وصورة الطبيعة كما تنعكس على مرآة نفسه، بصدق وإخلاص.**"[1]

وهذا النّصّ جزء من مقال وصفيّ موضوعه وصف الطبيعة: " **يقف الشاعر بإزاء جمال الطبيعة، فلا يملك إلا أن يتدفّق ويهتزّ ويطرب لأنّ السرّ الذي انبثق هنا في الأرض، يريد أن ينبثق هناك في النّفس. والشّاعر نبيّ هذه الدّيانة الرّقيقة التي من شريعتها إصلاح الناس بالجمال والخير. وكلّ حسن يلتمس النّظرة يلتمس النّظرة الحيّة التي تراه جميلا لتعطيه معناه.**

وبهذا تقف الطبيعة محتفلة أمام الشاعر كوقوف المرأة الحسناء أمام المصوّر...ما أعجب سرّ الحياة! كلّ شجرة في الرّبيع جمال هندسيّ مستقلّ.ومهما قطعت منها وغيّرت من شكلها أبرزتها الحياة في جمال هندسيّ جديد كأنّك أصلحتها. ولو لم يبق منها إلاّ جذر حيّ أسرعت الحياة فجعلت له شكلاً من غصون وأوراق. الحياة الحياة. إذا أنت لم تفسدها جاءتك دائما هداياها. [2]

ونستشعر في هذه الفقرة وصفَ الكاتب لجمال الطّبيعة بكثير من العواطف الجيّاشة إزاء الطّبيعة، ونكاد نسمع موسيقى تصدر من كلمات رقيقة وظّفها من أجل نقل القارئ إلى عالم مليء بالأحاسيس المرهفة.

وهذا مثال آخر عن وصف لكوكب الأرض يعتمد على حقائق علميّة ليس للوجدان أيّ دخل فيه: **الأرض هي ثالث كواكب المجموعة الشمسية قربا من الشمس بعد عطارد والزهرة، ويطلق على هذا الكوكب أيضًا اسم العالم واليابس. تعتبر الأرض مسكنًا لملايين الأنواع من الكائنات الحية، بما فيها الإنسان؛ وهي المكان الوحيد المعروف بوجود حياة عليه في الكون. تكونت الأرض منذ حوالي 4,54 مليار سنة، وقد ظهرت الحياة على سطحها في المليار سنة الأخيرة. ومنذ ذلك الحين أدى الغلاف الحيوي للأرض إلى تغير الغلاف الجوي والظروف غير**

---

[1] محمد يوسف نجم، فن المقالة، ص 114.

[2] مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، راجعه: درويش الجويدي، ج1، المكتبة العصرية، بيروت، دت، ص31.

الحيوية الموجودة على الكوكب، مما سمح بتكاثر الكائنات التي تعيش فقط في ظل وجود الأكسجين وتكوّن طبقة الأوزون، التي تعمل مع المجال المغناطيسي للأرض على حجب الإشعاعات الضّارة، مما يسمح بوجود الحياة على سطح الأرض. تحجب طبقة الأوزون الأشعة فوق البنفسجية، ويعمل المجال المغناطيسيّ للأرض على إزاحة وإبعاد الجسيمات الأولية المشحونة القادمة من الشمس بسرعات عظيمة ويبعدها في الفضاء الخارجي بعيدا عن الأرض، فلا تتسبّب في الإضرار بالكائنات الحيّة.[1]

وبهذا يمكن القول إنّ ما يميّز المقال الوصفيّ هو تفاعل الكاتب مع الطّبيعة، دون أن ينحى منحى البحث العلميّ المعتمد على التّحليل والتّفسير.

I ـ 1 ـ جـ ـ المقال التأمّليّ:

يعتمد هذا النّوع من المقال على التّأمّل في مشكلات الحياة بعرض مآسي البشر، وضراوة صراعهم من أجل الاستمرار، بالإضافة إلى المسائل الكونيّة كالحياة والموت والوجود والعدم، فهذه القطعة من النّثر تسرف في الذّاتيّة في تناول هذه المشكلات، "**وتحاول أن تدرسها درسا لا يتقيّد بمنهج الفلسفة ونظمها المنطقيّ الخاصّ، بل تكتفي بوجهة نظر الكاتب وتفسيره الخاصّ للظّواهر التي تحيط بها.**[2] ويتطلّب هذا النّوع من المقالات من الكاتب أن يتعمّق في الموضوع حتى يحسّس القارئ بالحقيقة كما يراها هو في الواقع، بعيدة عمّا يخدع من زخرفِ المادّة وبريقِها.

والنّصّ التّالي وردَ في مقالة تأمّليّة عنوانها مناجاة: "**يا ناشر الليل من كبد النّهار ومضرم النّهار من محاجر الليل، طال ليل نشرته فوق أرض حسيرة عشواءَ، طال وادْلَهَمَّ وتغضّن وترهّل، ولكنّه ما شاخ بعد ولا ابيضّ فوداه، وبنو الأرض يدأبون في غضونه ويكدحون كما تدأب المناجذ وتكدح في غياهب التراب... من حشاشة الأرض يأكلون ومن مآقي المزن يشربون، ولكنّهم في غصّة دائمة بما يأكلون وبما يشربون...**" [3] فحينما نقرأ هذه الفقرة نحسّ بحزن الكاتب العميق لما

---

[1] ينظر: موسوعة ويكيبديا الحرة، **http://ar.wikipedia.org/wiki**.

[2] محمد يوسف نجم، فن المقالة، ص118.

[3] ميخائل نعيمة، البيادر، دار نوفل للطباعة والنشر والتوزيع، د ت، ص 129، 130.

يعانيه البشر من بؤس وشقاء، سبّبه المحتلّون الظّلمة. ونسمع وقع هذه الكلمات القاسية تتمكّن من نفوسنا فتنقلنا إلى تلك المعاناة.

I ـ 1 ـ د ـ المقال التّأبينيّ:

هو مقال يرثي فيه الكاتب شخصا عزيزا عليه وافته المنيّة، فيذكر خصالَه وصفاتِه الحميدةَ ومحاسن أعماله بأسلوب حسّاس نابع من قلب حزين وصادق. وعادة ما يختتم بالرّضا بقضاء الله وقدره، وتوديع المتوفّى والدّعاء له بالرّحمة. وفي ما يلي نصّ من مقال لرثاء أب لابنه:

"**الآن نفضت يديّ من تراب قبرك يا بني وعدت إلى منزلي كما يعود القائد المنكسر من ساحة الحرب، لا أملك إلا دمعة لا أستطيع إرسالها، وزفرة لا أستطيع تصعيدها.**

ذلك لأن الله الذي كتب لي في لوح مقاديره هذا الشقاء في أمرك، فرزقني بك قبل أن أسأله إياك، ثم استلبك قبل أن أستعفيه منك، قد أراد أن يتمم قضاءه فيّ وأن يجرعني الكأس حتى ثمالتها ... فله الحمد راضيا وغاضبا، وله الثناء منعما وسالبا، وله مني ما يشاء من الرضا بقضائه والصبر على بلائه ..."[1] ونستشفّ من هذه العبارات حزن الأب الرّاثي وأساه على فراق فلذة كبده، ولكنّه راض بقضاء الله وقدره بإيمان وصبر.

I ـ 1 ـ هـ ـ المقال الدّينيّ:

يتناول المقال الدّينيّ كلّ ما يتعلّق بالدّين سواء بتعليم النّاس أمورَ دينهم، أو بمحاربة الانحرافات والبدع التي يسقطون فيها، إمّا جهلا أو عمدًا، ومن ثمّ محاولة إصلاحها استنادا لرأي علماء الشّريعة الموثوق بعلمهم. "**ولهذا فإنّ أهمّ ما يجب أن يتوفّر فيه الصّدق في العاطفة، ودّقة التّصوير، وإقامة الدّليل على الفكرة والسّلاسة في التّعبير، حتّى يمكن لأيّ قارئ التأثّر به وإدراك أبعاده.**"[2] وهذا يتطلّب من الكاتب أن يكون ملمّا بالمسائل الشّرعية المختلفة وأقوال العلماء المعتمدة على مصادر الدّين كالقرآن والسنّة، كي لا يقع في الشّبهات فيصحّحَ الخطأ بآخر، ويحدث به فتنة لا تخبو. ويستعمل فيه الكاتب لغة مفهومة، بعيدة عن التّعقيد كونه يوجّه رسالته لشتّى

---

[1] مصطفى لطفي المنفلوطي، النّظرات، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، 1991، ص60.

[2] عبد اللطيف محمد السّيد الحديدي، فن المقال في ضوء النقد الأدبي، ص42.

طبقات المجتمع، مستعينا بآياتٍ وأحاديثَ وأقوالٍ مأثورةٍ، يستشهد بها لبيان الرّأي السّديد في القضيّة التي يعالجها.

وفي ما يأتي فقرة من مقال دينيّ يبرز حكمة الصّوم في الإسلام، وينبذ الإسراف في المأكل والمشرب الذي ينافي هذه الحكمة: "**إنّ هذا الاستعداد المتناهي الذي يستعدّه مسلمو اليوم لرمضان بالتّفنّن والاستكثار من المطاعم والمشارب مخالف لأوامر الدّين، مناف لحفظ الصّحّة، مناقض لقواعد الاقتصاد، ولو كان هؤلاء متأدّبين بآداب الدّين لاقتصروا على المعتاد المعروف في طعامهم وشرابهم، وأنفقوا الزّائد في طرق البرّ والإحسان الّتي تناسب رمضان... ولو فعل الأغنياء والمسرفون ذلك لأضافوا إلى قربة الصوم قربة أخرى ذات قيمة عظيمة عند الله، وهي الإحسان إلى المعدمين.**"[1] ونرى في هذه الفقرة قوّة حجّة الكاتب، وبعد نظره في حكمة الصّيام، ألا وهي استشعار الغنيّ لجوع الفقير، وإحساسه بمعاناته خلال أيّام السّنة كلّها، فيدفعه ذلك إلى الجود له بالصّدقات والمعونات.

I – 1 – و – المقال السّياسيّ:

هو المقال الذي يعبّر فيه صاحبه عن مشاعره وأحاسيسه تُجاه وطنه، بهدف إيقاظ الشعوب من غفلتها لمواجهة الوضع السّياسي الرّاهن. فيتحدّث عن ممارسات نظام الحكم مثلا، ودور الأحزاب السّياسية في نقده، ويمكن للكاتب في بعض الأحيان أن يوجّه رسالته إلى الحاكم مباشرة ليصله برعيّته من أجل أن يحلّ مشاكلهم. ولمّا كانت العبرة في التّأثير –إذ ليس كلّ من يكتب في السياسة يُسمَع له– فإنّ المقال السّياسيّ يتطلّب "**نوعيّة خاصّة من العاطفة الوطنيّة الصّادقة والمضمون الوطنيّ الحماسيّ الذي من شأنه أن يستنهض الهمم، ويؤكّد الرّأي الذي يميل إليه كاتب المقالة ويدعو إلى الإصلاح السّياسيّ ويشيد بالاستقرار السياسيّ.**" [2] ويتميّز المقال السّياسيّ بالبعد عن التّكلف باستعمال ألفاظ سهلة من أجل توضيح الفكرة، وإثارة الحماسة باللّعب على العواطف التي تجيش في قلوب الجماهير، فيغلّب الكاتب فكرته مستندا إلى براهينَ وشواهد

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص575.

[2] عبد اللطيف محمد السّيد الحديدي، فن المقال في ضوء النقد الأدبي، ص39.

تاريخيّة. وقد كتب في هذا النّوع الكثير من الكتّاب العرب، لأنّ أغلب البلدان العربيّة كانت خاضعة للمحتلّ، فكانت وسيلةً من وسائل محاربته بالقلم، ولقد ذاع صيتها إبّان الاحتلال لأنّ الهدف المشترك لدى الجميع هو الاستقلال ونيل الحرّية.

ومن أمثلة المقالات السّياسيّة، هذا المقال حول قوّة القانون الذي يجب أن تسهر على حمايته السّلطة الحاكمة، وتنفّذه على الجميع: "**هل القانون هو أحكام يحتجّ بها القويّ على الضّعيف، أم هو أحكام منتزعة من روابط النّاس بعضهم ببعض، وملاحَظ فيه طبائع أكثرية الأفراد، ومن نصوص خالية من الإبهام والتّعقيد وحكمها شامل كلّ الطّبقات، ولها سلطان نافذ قاهر مصون من مؤثّرات الأغراض، والشّفاعة، والشّفقة، وبذلك يكون القانون هو القانون الطّبيعيّ للأمّة فيكون محترما عند الكافّة، مضمون الحماية من قبل كلّ أفراد الأمّة؟**"[1] ونفهم من خلال هذه الفقرة حرصَ الكاتب على وجوب تطبيق القانون على كلّ فرد من أفراد المجتمع، سواء كان غنيّا أوفقيرا، قويّا أو ضعيفا، ذا نفوذ وجاه أو منتميا إلى الطّبقة الكادحة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ المقال الدّينيّ والسّياسيّ والاجتماعيّ يدخل في المجال الإصلاحي الذي سنفصّل فيه في مبحث آخر.

I ــ 2 ــ المقال الموضوعيّ:

هو المقال الذي يحاول الكاتب فيه إخفاء شخصيّته وآرائه الخاصّة وعاطفته الوجدانية، إذ يتناول موضوعا علميا بحتا لا دخل للأحاسيس والمشاعر فيه، فهو يلتزم بمنهج علميّ مبنيّ على معطيات ومعلومات علميّة دقيقة، يعالجها بصورة منطقيّة متسلسلة. فهو إذن مقالة "**بين محتواها وبين كاتبها صلة موضوعيّة.**"[2] وتتميّز لغة المقال الموضوعيّ بالتّعابير البسيطة، والعبارات السّهلة، والمصطلحات الملائمة للموضوع، مع الابتعاد عن استعمال المحسنات البديعيّة، والصّور البيانيّة، كي يتجنّب الكاتب كلَّ ما يُشغِل القارئَ عن الموضوع من إيقاع موسيقيّ وخيال قد يفقده التّركيز في المعلومات الواردة. وقد يرى البعض أنّ خلوّ المقال الموضوعيّ من الوجدان يجعله بحثا

---

[1] عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، دار النفائس، ط3، بيروت، 2006، ص177.

[2] عبد اللطيف محمد السّيد الحديدي، فن المقال في ضوء النقد الأدبي، ص54.

علميّا جافّا، فلا يُقبل النّاس على قراءته، فيعمدون إلى التقرّب من" **منهج المقالة الذّاتيّة وذلك بما يحاولونه من إبراز شخصيّاتهم وتأثّراتهم الخاصّة في الموضوع الذي يكتبون. إلاّ أنّ الغالب عليها، هو منهج البحث العلمي وما يقتضيه من جمع المادّة وترتيبها وتنسيقها.**" [1] لأنّ الهدف الوحيد منها هو نقل الحقائق العلميّة كما هي في الواقع. وأنواع المقال الموضوعيّ عديدة منها:

I ـ 2 ـ أ ـ المقال الفكريّ:

المقال الفكريّ هو كلّ مقال يُعنى بشؤون الفكر في ميادين الفلسفة والدّين بالبحث، والتّحليل، والتّفسير. وعلى هذا يمكن القول إنّ عمل كاتب المقال الفكريّ غايةٌ في الدّقة والصّعوبة، إذ يتوجّب عليه أن يكون واسع الاطّلاع على الموضوع، عالما بكل حيثيّاته وآراء الباحثين حوله. وعلى الكاتب" **أن يُنقّب عن الأسس الحقيقية للموضوع، وأن ينظر إليها نظرة إنسانيّة حتى لا تـندثر قيمة مقالته بتقدّم العقل الإنسانيّ وتجدّد مكتشفاته النظريّة، وعليه أن يعرض مادّته بدقّة ووضوح حتى لا يضل القارئ سبيله في شعاب هذا الموضوع الشائك.**" [2]

ويعدّ العقّاد أحد روّاد المقال الفكريّ، وقد اخترت هذه الفقرة من مقال كتبه حول الاشتراكيّة ومستقبلها في مصر: "**ونحن على أيقن اليقين أنّ الانجليز والأمريكيين يقيمون إنصاف الطبقات اليوم على أساس أعدل وأبقى من الأساس الذي يقام عليه في بلاد الشّيوعيين. ولولا أنّ نبوءات الغيب مجازفة لا يضبطها الحساب في كلّ حين لقلنا إن الروسيا ستكون بعد عشرين أو ثلاثين سنة أقل البلاد اشتراكيّة في القارة الأوروبيّة، لأنّها ستحتاج إلى خلق الطّبقات التي أخذت منذ اليوم تتدرّب على التّعاون في الأقطار الأخرى، وستحتاج أن تتعلّم من تلك الأقطار دروسا في الوعي الاجتماعي الجديد بعد أن قصرته على طبقة واحدة تحارب كلّ من عاداها... هذه الاشتراكيّة الديمقراطية نتمنّاها لمصر ولا نخاف عليها منها... أمّا الاشتراكية الشيوعية فلا نرى من دلائل الحاضر أن بلادنا سائرة إليها الآن...**"[3] ولا يخفى أنّ الكاتب ملمّ بالفكر الشّيوعيّ وآثاره

---

[1] محمد يوسف نجم، فن المقالة، ص130.

[2] المرجع نفسه، ص132.

[3] عباس محمود العقاد، يسألونك، دار الكتاب العربيّ، ط2، بيروت، د ت، ص214، 215.

السّلبيّة على المجتمعات التي تبنّت الاشتراكيّة منهجا اقتصاديّا وسياسيّا، إذ نراه ينتقد هذا المنهج ويحذّر مصر منه ومن تأثيراته على المدى البعيد.

I ـ 2 ـــ ب ـ المقال التّاريخيّ:

هو مقال يجمع فيه الكاتب الأخبارَ والرّواياتِ التاريخيّةَ عن شخصيّة أو حدث ما، ويقوم بفحصها وتفسيرها وتدقيقها، مستندا إلى أقوال المؤرّخين؛ فهو إذن مقالة "**تتناول أحداث التاريخ بالعرض، أو تتعرّض لشخصيّات تاريخيّة بالوصف.**"[1] ويتميّز المقال التاريخيّ بأنّه يكون أكثرَ مصداقيّةً كلّما جُمع فيه أكبرُ كمّ من الحقائق في زمن الأحداث والأشخاص والظّروف المؤثّرة. ثمّ إنّ على الكاتب أن يمحّص وينسّق في كلّ ما جمعه، قصدَ التّحليل الموضوعيّ الذي يجب أن تختفي فيه شخصيّته، على أنّه مسموح له بأن "**يضفي عليها غلالة إنسانيّة رقيقة، فيوشيها بالقصص، ويربط حلقات الواقع بخياله حتّى تخرج منه سلسلة متصلة مستمرّة.**"[2]

وهذا النّصّ مثال عن مقال تاريخيّ عنونه صاحبه: (العلاقة التّاريخيّة بين الزواوة وتلمسان): "**بنى السلطان الحمّادي الناصر بن علناس مدينة بجاية (الناصرية)، بعد انتقاله من قلعة بني حماد بالمسيلة، إلى بلاد الزواوة (القبائل)، وكان ذلك في القرن الحادي عشر الميلادي. وحوّلها إلى منارة علمية، قصدها العلماء من كل حدب وصوب، خاصة من الأندلس، وشمال إفريقيا، وأوروبا. نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر العلامة عبد الرحمن بن خلدون، والصوفي محيي الدين بن عربي، والعارف بالله سيدي بومدين شعيب، وابن تومرت، وعبد المؤمن بن علي (مؤسّسا الدولة الموحّديّة)، والشّاعر بن حمديس الصّقلّي، والكثير من الرحّالة، كالإدريسيّ وابن بطوطة، والعالم الرياضي الايطالي ليوناردو فيبوناتشيLeonardo Fibonacci، والفيلسوف الإسباني ريمو لول Rymond Lulle. كما اشتهرت بقصورها الرائعة كقصر اللؤلؤة، وقصر الكوكب، وقصر أميمون، وبمدارسها العديدة، أشهرها مدرسة جامع قصبة المدينة التي أنشأها الموحّدون، درّس بها العلامة ابن خلدون.**"[3] ويظهر جليّا حرص

[1] عبد اللطيف محمد السّيد الحديدي، فن المقال في ضوء النقد الأدبي، ص56.

[2] المرجع نفسه، ص57.

[3] أرزقي فرّاد، مقال: العلاقة التّاريخيّة بين الزواوة وتلمسان، جريدة الشروق،ع 3260، 11 أفريل 2011، ص17.

الكاتب على تقديم صورة واضحة عن تاريخ مدينة بجاية بسرد معلومات تاريخيّة عنها، وذكر أهمّ الشّخصيّات التي زارتها إبّان مرحلة ازدهارها وتألّقها بين الحواضر.

I ـ 2 ـ جـ ـ المقال العلميّ:

هو مقال يتناول موضوعًا علميًّا، قد يكون المقصود منه تقديمَ ابتكار جديد، أو تجديدَ معلومات، أو دراسة وتحليل ظاهرة أو حلّ مشكلة علميّة. ويقوم الكاتب بعرض " **نظريّة من نّظريّات العلم أو مشكلة من مشكلاته عرضا موضوعيّا بحتا، وهذا شأن العلماء المختصّين. أو عرضا موضوعيّا يمتزج مع بعض عناصر الذّات، وهذا شأن العلماء الذين يحاولون تبسيط العلوم وإذاعتها بين عامّة القرّاء.**"[1] ويتميّز المقال العلميّ بأنْ لا مكان للعواطف فيه، فهو غير ناتج عن وجدان الكاتب، بل هو مستمدّ من تجاربَ علميّة. لذا يستعمل الكاتب لغة سهلة ودقيقة ومحدّدة المعاني والمصطلحات العلميّة، فلا ينمّقها بالمحسّنات البديعيّة ولا بالصّور البيانيّة التي قد تُفقده المصداقيّة. وعادة ما يدعّم عمله بالعلاقات المنطقيّة ، والجداول الإحصائيّة، والرّسومات البيانيّة.

ومن نماذج المقالات العلميّة هذا النّصّ الذي يتحدّث عن سرّ إصدار الحشرات طنينا عندما تطير: "**لماذا يصدر الطنين عن الحشرات؟ في أكثر الحالات لا تملك الحشرات مطلقا أعضاء خاصّة تحدث الطّنين، ولا يُسمع الطّنين إلاّ عند الطّيران. وهذا الأمر يعود إلى أنّ الحشرات عند طيرانها، تخفق بأجنحتها عدّة مئات من المرّات في الثانية الواحدة، وبذلك يكون الجناح الصّغير للحشرة عبارة عن صفيحة متذبذبة، ونحن نعلم أنّ كلّ صفيحة سريعة الذّبذبة (أكثر من 16 ذبذبة في الثانية)، تحدث نغمة ذات درجة معيّنة. والآن سيعلم القارئ كيف تمّ تحديد عدد خفقات جناح هذه الحشرة أو تلك، في الثانية الواحدة عند طيرانها في الجو. للقيام بذلك يكفي أن نحدّد بآذاننا درجة النّغم الصّادر عن تلك الحشرة فقط، لأن لكل نغم ما يلائمه من تردد ذبذبات...**" [2] ونلاحظ أنّ الكاتب ملمّ بجوانب علميّة كثيرة خاصّة الفيزيائيّة، إذ يشرح بدقّة ومنهج علميّ سبب صدور الطّنين

[1] محمد يوسف نجم، فن المقالة، ص133.

[2] ياكوف برلمان، الفيزياء المسلّية، تر: داود سليمان المنير، ج1، دار مير للطباعة والنشر، ط3، موسكو، 1977، ص263، 264.

عندما تطير الحشرة، وبهذا أزال اعتقادَ النّاس أنّ مصدرَ الصّوت هو الحشرة، بينما هو من حركة جناحيها بسرعة معيّنة.

I ـ 2 ـ د ـ المقال النّقديّ:

وهو مقال يعرض ويحلّل ثمّ يقيّم أيّ عمل أدبيّ أو علميّ أو فنّيّ، بهدف توعية القارئ بأهمّية هذا الإنتاج، ومن ثمّ مساعدته فى اختيار ما يقرؤه أو يشاهده أو يسمعه. فهو إذن مقالة "**جاءت لتعقد للمسائل الأدبيّة، وتشقّق للقضايا حدودا ومفاهيم، وتنظر إلى محاسن العمل الأدبيّ ومساوئه، فتحلّ ذلك حيث يكون، وتقبل الجيّد وتحيّيه، وتبدي مآخذها على الهزيل والضّعيف، فتشهرها مقوّمة دارسة.**"[1] ويتميّز المقال النّقديّ بالمستوى الثّقافيّ العالي، إذ يجب على القارئ أن يملك ثقافة ودراية في الفنّ الذي يعالجه المقال، وينتقي الكاتب فيه ألفاظا دقيقة، ويصوّغها بصياغة قويّة لكي تخدم فكرته وتوضّحها، ثمّ إنّ الأسلوب يجب أن يكون "**مرسلاً، سهل التّركيب، دقيق التّعبير، معنيّا بتوضيح الفكرة، وإبراز جمال التّصوير.**"[2]

وقد اخترت مقالا نقديًّا في ميدان الأدب، أستعرض جزءًا منه: " **قرأت للأديب (صدقي) مقاله في الهواء الطلق. واستوقفني منه إشارته إلى الفرق بين عبارات الإفهام وعبارات المشاعر وأراه على صواب بيّن في هذه التّفرقة، فإنّه مما لا يقبل الجدل أنّ للعلميّات وما نحا نحوها أساليب تختلف عن أساليب الشّعريّات وما يخرج من ينبوعها ويتولّد من معدنها، ولكلّ منهما نمط من القول لايساغ ولا يصلح في سواه. وهذا الذي أردت إجمال الكلام عليه في هذه الكلمة...**"[3] ونلاحظ أنّ الكاتب قد أيّد ما ذهب إليه صاحب مقال سابق تحدّث فيه عن موضوع في النّقد الأدبيّ، يعالج الوضوح والغموض في الأساليب الشعريّة.

---

[1] عبد اللطيف محمد السّيد الحديدي، فن المقال في ضوء النقد الأدبي، ص57.

[2] المرجع نفسه، ص58، 59.

[3] عباس محمود العقاد، الفصول مجموعة مقالات أدبية واجتماعية وخطرات وشذور، دار المعارف، القاهرة، 1986، ص73.

II) أنواع المقال من حيثُ الأسلوبُ والغايةُ:

إنّ أيّ مثقّف يقرأ مقالا في صحيفة أو مجلّة لا بدّ أن يتساءل: هل ما أقرؤه مقال أدبيّ أم صحفيّ؟ والإجابة عن هذا السؤال تقودنا إلى عقد مقارنة بين لغة الكتابة الأدبيّة، ولغة الكتابة الصّحافية، ومن ثمّ هدف الكاتب من وراء ما يكتبه، وهذا ما يميّز بين النّوعين:

II ـ 1 ـ المقال الأدبيّ:

المقال الأدبيّ "**تعبير فنّيّ صادق عن تجارب الكاتب الخاصّة والرّواسب التي تتركها انعكاسات الحياة في نفسه. وهي في أحسن حالاتها ضرب من الحديث الشخصيّ الأليف، والثرثرة والمسامرة، والاعتراف والبوح. ولكنّها تمتاز إلى جانب ذلك بروعة المفاجأة وتوقد الذّكاء وتألّق الفكاهة. ولا تخلو من السّخرية النّاعمة أو الحادّة، تبعا لاتّجاه الكاتب وألوان شخصيّته.**"[1]

ويتميّز المقال الأدبيّ بعدّة خصائص أهمّها:

ـ التّنويع بين الخبر والإنشاء.

ـ التّعبير عن وجهة نظر الكاتب الشّخصيّة باستهلال يجذب القارئ مع استعمال الصّور التي تنقل المتلقّي إلى عالم أرحبَ خيالا، وكذلك المحسّنات البديعية التي تضفي على المقالة رونقا.

ـ البعد عن استعمال الأرقام والأعلام والمصطلحات العلمية، واللّغة العاميّة المبتذلة.

ـ الإيجاز والبعد عن الاستطراد المملّ.

وبهذا فإنّ كاتب المقال الأدبيّ "**يهدف إلى أغراض جماليّة، ويتوخّى درجة عالية من جمال التعبير، كما يتوخّاها الأديب الذي يرى الجمال غاية في ذاته، وغرضًا يسعى إلى تحقيقه.**"[2]
إنّ اعتبار المقال أدبيّا لا يعني بالضّرورة أنّه يبحث في الأدب وقضاياه دون شؤون الحياة الأخرى،

---

[1] محمد يوسف نجم، فن المقالة، ص102.

[2] عبد العزيز شرف، فن المقال الصحفي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000، ص23.

كالسّياسة، والدّين، والتّاريخ، والفلسفة، والطّبيعة، والمجتمع، وغيرها، "**على أنّ هذه الموضوعات في المقال الأدبي لا تخرج عن كونها نقطة للارتكاز، ينفذ منها الكاتب نحو هدفه الأسمى، و هو التأثير الجماليّ.**"[1] إنّما سمّي كذلك لتوظيفه أسلوبًا أدبيّا رفيع المستوى، ممّا يدلّ على ذوق الكاتب العالي، وتمكنّه في اللّغة، وسعة ثقافته.

ولقد اشتُهِرَ في الكتابة الأدبيّة مصطفى صادق الرّافعيّ، حيث تميّز بأسلوبه الرّاقي، ولغته الفصيحة، وهذا النّصّ جاء في مقال كتبه حول العيد: "**ما أشدّ حاجتنا نحن المسلمين إلى أن نفهم أعيادنا فهما جديدا، نتلقّاها به ونأخذها من ناحيته، فتجيئ أيّاما سعيدة عاملة، تنبّه فينا أوصافها القويّة، وتجدّد نفوسنا بمعانيها، لا كما تجيئ الآن كالحة عاطلة ممسوحة من المعنى، أكبر عملها تجديد الثّياب، وتحديد الفراغ، وزيادة ابتسامة على النفاق... فالعيد إنما هو المعنى الذي يكون في اليوم لا اليوم نفسه، وكما يفهم النّاس هذا المعنى يتلقّون هذا اليوم؛ وكان العيد في الإسلام هو عيد الفكرة العابدة، فأصبح عيد الفكرة العابثة؛ وكانت عبادة الفكرة جمعَها الأمّة في إرادة واحدة على حقيقة عمليّة، فأصبح عبث الفكرة جمعَها الأمّة على تقليد بغير حقيقة؛ له مظهر المنفعة وليس له معناها.**

كان العيد إثبات الأمّة وجودها الرّوحانيّ في أجمل معانيه، فأصبح إثبات الأمّة وجودها الحيوانيّ في أكثر معانيه؛ وكان يوم استرواح من جدّها فعاد يوم استراحة الضعف من ذله، وكان يوم المبدأ، فرجع يوم المادّة !" [2]

ويتّضح من هذه الفقرة كيف عالج الكاتب قضية بعد النّاس عن المغزى الحقيقيّ للعيد، ألا وهو الاتّحاد والتعاضد بين المسلمين. فاستعمل أسلوبا جذّابا يمزج بين الجدّ والسّخريّة، وبين الخبر والإنشاء، وبين البديع والبيان دون إفراط، واعتمد على الإيجاز لإيصال الفكرة بكلّ سهولة.

---

[1] عبد العزيز شرف، فن المقال الصّحفي، ص24.

[2] مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، ص27.

II ـ 2 ـ المقال الصّحفيّ:

المقال الصّحفيّ هو "**الكتابة الفنّيّة التي تتيح للمحرّر الصّحفيّ –استنادا إلى فكر متميّز ومن خلال قيامه بمسؤوليّات وظيفته– تسجيل الأحداث المهمّة الحالية والمتجدّدة، ونقل الوقائع والتفصيلات والصّور الظّاهرة والخفيّة وتقديم المعلومات والبيانات المفيدة وتبنّي الظّواهر والأنشطة والمشكلات المختلفة.**"[1] فهو يتطرّق إلى حدث ما في مختلف المجالات السّياسيّة، والثّقافيّة، والدّينيّة، والرّياضيّة، والاقتصاديّة، والاجتماعيّة، ويُنشر في مطبوعة صحفيّة: يوميّة، أو دوريّة (أسبوعيّة، شهريّة، سنويّة...)، يحرّرها الكاتب بلغة بسيطة ومفهومة، يخاطب بها المتخصّصين وغير المتخصّصين. وعلى ضوء هذا المفهوم يمكن رصد أهمّ خصائص المقالة الصّحفيّة في ما يلي:

– اللّغة المفهومة والأسلوب الواضح البعيد عن التعقيد، "**وقد ينزل المقال الصّحفيّ إلى أن يكون قريبا من العامّيّة في تحريره، وذلك في المجلاّت والصّحف التي تؤثر أن تصطنع أقرب لغة إلى الإفهام.**"[2]

– القدرة على تحليل القضايا والموضوعات ونقد جوانب منها.

– الإيجاز حيث ينبغي أن يُحدَّد المقال الصّحفي بحجم معيّن لتستوعبه صفحة المقالات.

– التّزوّد بالمعلومات والآراء، والاستشهادُ بالأحداث الماضية والرّاهنة.

ونجد المقالة الصّحفيّة تتنوّع بدورها حسب شكلها ومضمونها ورسالتها في الصّحيفة:

– **المقالة الافتتاحيّة:** وهدفُها إقناعُ القرّاء بموقف الصحيفة من قضيّة ما سواء كانت تمثّل حكومة، أو حزبا ولها موقع ثابت ومساحة شبه ثابتة.

–**العمود الصحفي:** هو مقال قصير يهتم بأمور حياتية ومعيشية، له مكان وعنوان ثابتان في

[1] عبد الجواد سعيد ربيع، فن الخبر الصّحفي دراسة نظرية وتطبيقيّة، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، 2005، ص16.

[2] عبد اللطيف محمد السّيد الحديدي، فن المقال في ضوء النقد الأدبي، ص73.

الصّحيفة، ويحمل توقيع الصّحفيّ، ولا يتقيّد بالضّرورة بتوجّه الصّحيفة.

– **مقال الرّأي:** يعبّر فيه كاتبه عن رأيه، وطريقة فهمه، وموقفه الشّخصيّ مما يطرأ من أحداث، فتنعكس فيه خلفيّاته الثقافية والإيديولوجية.

– **الخاطرة:** مقال قصير يخلو من كثرة التفصيلات، يعرض فيه الكاتب فكرة حول موضوع ما، يسعى لدرجة عالية من الوضوح والواقعية بأقل قدر من الكلمات.

– **المقال السّاخر:** يتناول الواقع بكثير من السّوداوية، فيركز على الجوانب السّلبية، ويكثر من التّشاؤم دون أن يجافي الحقيقة.

والنّصّ الآتي مقتطف من مقال صحفيّ تناول فيه الكاتب هاجس السّعادة التي يتوق إليها كلّ جزائريّ: "**صنّفتنا بعض التّقارير الدّوليّة في المرتبة الوسطى (46) بين الدّول التّسعين الأكثر بؤسا، وصنّفتنا تقارير أخرى في المرتبة الوسطى أيضا (73) بين الدول الـ142 الأكثر سعادة في العالم...لا يهم ما إذا كان الموقع الذي يضعنا فيه العالم اليوم صحيحا أو غير صحيح، مبالغًا فيه أو غير مبالغ فيه، يهدف إلى تحقيق مآرب سياسية أو لا يهدف، بقدر ما يهم الموقع الذي نضع فيه أنفسنا. لقد اتفق كبار الاقتصاديين اليوم أن السعادة لا تقاس فقط بالوسائل المادية، ولا تحسب فقط من خلال مؤشرات الدخل الوطني الخام التقليدية أو نسبة الفرد منه، إنّما من خلال مؤشرات أخرى تضاف إلى الحد الأدنى المطلوب للعيش: كإحساس الناس بالرضا عن حالهم، ومدى قبولهم للوضع الذي هم عليه، ونوعية الطبيعة والبيئة التي بها يعيشون، ومدى التماسك الأسري الذي يعرفون، والتوازن الروحي والمعنوي الذي يمتلكون... الخ**

لن نختلف في أن يعترف لنا العالم بأننا نمتلك مؤشرات سعادة أكثر مما نمتلك من مؤشرات بؤس، ولن نختلف في أن نعمل من أجل ذلك، ولن نخسر شيئا إذا ما وضعنا بين أهدافنا أن يصنفنا العالم ذات يوم من بين أسعد بلاد في العالم. بل عكس ذلك، سنربح أمرا واحدا على الأقل: أننا إذا لم نعش سعداء، سنعش على أمل أن لا نموت بؤساء أو يحكمنا التعساء...[1]

[1] سليم قلالة، مقال: هل نحن سعداء؟، جريدة الشروق، ع 4361، 29 أفريل 2014، ص24.

ونلاحظ أنّ المقال ساخر إلى حدّ ما، يحمل بين طيّاته جوانب سياسية واقتصاديّة واجتماعيّة، حاول فيه الكاتب تقديم آمال الجزائريّ في أن يواكب الرّكب الحضاريّ خاصّة أنّه يعيش في بلد وافر الموارد البشريّة والثّروات الطّبيعيّة. وقد استعمل فيه لغة سهلة وبسيطة، كي يفهمها عامّة النّاس. ورغم استعماله لغة سليمة إلا أنّها خلت من مميّزات الكتابة الأدبيّة الفنّيّة، لأنّ الهدف من المقال هو انتقاد الحكومة في تعاملها مع مشاكل المجتمع، بلغة صحفيّة بحتة.

4- المقال الإصلاحيّ في المشرق العربيّ ومغربه:

في أواخر القرن التّاسعَ عشر، وأوائل القرن العشرين، بدأت أفكار المصلحين في المشرق العربيّ تلقى إقبالا من طرف الطبقة المتعلّمة التي دبّ فيها الوعي بالظروف القاهرة التي كانوا يعيشونها من ظلم وبؤس، فانخرطوا في درب العمل على تجديد صلة الشّعوب الإسلاميّة بدينها وتوعيتها بواجب مقاومة الاحتلال الغربيّ الجاثم على صدورها. وقبل الخوض في هذه الجهود الإصلاحيّة، شرقا وغربا، سنعرّف ماهيّة الإصلاح وكيف وظّف في فنّ المقال.

4 ـ أ ـ مفهوم الإصلاح:

لغة: جاء في منجد اللغة والأدب والعلوم: "**أصلح الشيء: ضدّ أفسده. وأصلح إليه: أحسن إليه. ويقال: أصلح الله له في ذرّيّته وماله أي أحسن إليه.**"[1] وفي لسان العرب: "**صلح: الصّلاح: ضدّ الفساد؛ صلَح يصلَح ويصلُح صلاحًا وصُلوحًا ... والإصلاح: نقيض الإفساد... وأصلح الشيء بعد فساده: أقامه... والصّلح: تصالُحُ القوم بينهم.**"[2] والملاحظ في هذين التعريفين أن معنى الإصلاح هو مكافحة الفساد والمفسدين، ومحاولة تغيير الأوضاع الخاطئة إلى الصّواب.

اصطلاحًا: اقترن لفظ الإصلاح في القرآن الكريم بضده أي الإفساد. ويأتي الإصلاح دائما في مقام المدح، لأنه عمل الوجهاء من النّاس، يقول عزّ من قائل: ﴿ **ولا تُفسِدُوا فِي الأرضِ بعدَ إصلاحِهَا**﴾ الآية 56 من سورة الأعراف.

والإصلاح من أعمال البرّ المُنجية، يقول تعالى: ﴿ **وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾الآية 48 من سورة الأنعام.

والإصلاح يكون في المعاملات أيضا، يقول عزّ وجلّ: ﴿**لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً**﴾ الآية 114 من سورة النساء.

---

[1] لويس معلوف، المنجد في اللغة والأدب والعلوم، ص432.

[2] أبو الفضل جمال الدّين ابن منظور، لسان العرب، م4، ج27، ص2479.

ومن جسّد إيمانه بالإصلاح فإنّ جزاءه الفلاح في الدنيا والآخرة، يقول الله تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(97)**﴾الآية 97 من سورة النحل.

ويأتي الإصلاح حلاّ لفكّ النزاعات بين الأفراد والجماعات، قال الله تعالى: ﴿**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(10)**﴾ الآيتان 9 و10 من سورة الحجرات.

وفي السنة النّبوية لا يختلف معنى الإصلاح عما سبق، "**فعن أبي بكرة أن النَّبِيّ صلّى الله عليه وسلّم قال لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ((إنّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ))**. أخرجه أحمد في مسنده (138/34) ح(20499). وقد تحقّقت هذه النّبوءة حينما تنازل الحسن لمعاوية رضي الله عنهما عن الخلافة بعد نزاع طويل، فحقّق المصالحة بين المسلمين وهذا من أوجه الإصلاح في الأرض.

وعلى ضوء هذه التّعريفات، يكون الإصلاح تجسيدا عمليّا للقيم والأخلاق الحميدة على أرض الواقع المشوّه بمظاهر الفساد، ويتأتّى ذلك بوسائل التّغيير المختلفة كالدّعوة إلى النّضال السّياسي، بهدف جعل الفرد يعيش في مجتمع أفضل ماديّا ومعنويّا.

4 ـ ب ـ الإصلاح والحركة الإصلاحيّة:

لقد وُجد الإصلاح منذ الأزل من أجل دحض الإفساد، كما وُجد الخير لمحاربة الشرّ. وقبل أن يخلق الله تعالى الإنسان دار حوار بينه عزّ وجلّ وبين الملائكة: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾. الآية 30 من سورة البقرة. وهذا الردّ من الملائكة ليس اعتراضا لمشيئة الله، وإنّما علموا – بإخبار الله إيّاهم – بحلول الفساد في الأرض، ولكنّ سنّة الله في خلقه قضت أن يكون الإنسانُ، وأن تكون حياته معتركا للصّراع بين الحقّ والباطل، فيكون الإفساد داءً والإصلاح دواءً. وأوّل عمل إفساد عرفته البشريّة على وجه البسيطة هو جريمة قتل قابيل أخاه

هابيل، ومن ذلك الوقت عرفت البشريّة أنواعا شتى من مظاهر الفساد في الأرض. وكانت مـهمّة المصلحين أنبياء ورسلا ومعلّمين هي إصلاح حياة البشر ودعوتهم إلى العودة إلى دورهم وسرّ وجودهم ألا وهما عبادة الله وحده وعمارة الأرض. ولقد دأبوا على هذه الرسالة النبيلة وصارعوا المفسدين ولم يهنوا ولم يستكينوا ولم يضعُفوا مهما كانت النتيجة، إذ كان عليهم البلاغ ولم يكن واجبا أن ينجحوا في مهمّتهم.

تعتبر الحركة الإصلاحيّة بمعناها العام وسيلة لإصلاح أوضاع المجتمع المتردّية، وتختلف أسباب هذا التردّي من بلد لآخر، فيمكن أن تكون استبداد الحكّام أو طغيان الاحتلال أو تفسّخ المجتمع نفسه بسبب بعده عن قيمه ودينه. وتعتمد الحركة الإصلاحية على منطلقات فكريّة تلبّي حاجات هذا المجتمع الأساسية فيما يتعلّق بالحياة الثّقافيّة، والعلاقات الاجتماعيّة، والحاجيات الاقتصادية، والقضايا السّياسية، والأمور الدّينيّة. ومن هذا المنطلق فالحركة الإصلاحيّة تعبير عن ضمير كلّ أمّة متخلّفة تتوق إلى الالتحاق بالرّكب الحضاري. ولا يؤتي هذا الإصلاح أُكلَه إلاّ إذا كان ضمن مشروع متكامل يهدف إلى النهوض بالمجتمع في شتّى المجالات. ولقد شهد العالم شرقا وغربا حركات تغيير في شتى المجالات، زعم منظّروها أنّها إصلاحيّة، وأشهرها في المجال الدّينيّ حركة الإصلاح الدينيّ في أوروبا *، وحركة محمّد عبد الوهّاب في المشرق العربيّ، وفي المجال الاقتصاديّ الشّيوعيّة الاشتراكيّة والرّأسماليّة. وتجدر الإشارة أنّ هؤلاء المنظّرين وظّفوا الكتابة الادبيّة والصّحفيّة، لنشر أفكارهم وآرائهم، ممّا أدّى إلى انتعاش الأدب الإصلاحيّ- الذي هو مدار بحثنا- وأدّى هذا الأدب دورا مهمّا في النّهوض بالمجتمعات المتخلّفة لا سيّما في محاربتها للأمبريالية والاحتلال الغربي.

* أشهر حركتين دينيّتين في الغرب والشّرق:

-حركة الإصلاح البروتستانتي: حركة دينيّة قامت في القرن السّادس عشر بهدف إصلاح الكنيسة، قادها الألماني مارتن لوثر(1483-1546)م الذي هاجم متاجرة الكنيسة بصكوك الغفران. ترجم الكتاب المقدّس إلى الألمانية الدارجة فكان لذلك أثر كبير في تطوير الأدب الألمانيّ. ينظر: معجم أعلام المورد للبعلبكي.

-حركة محمّد عبد الوهّاب: دعوة إلى العودة إلى تعاليم الإسلام النّقيّ من البدع والخرافات التي أبعدت المسلمين في جزيرة العرب عن التوحيد الخالص. ومن أجل تحقيق هدفه تحالف زعيمها محمّد عبد الوهّاب (1703-1791)م مع آل سعود وأسسوا الدولة السعودية، وقد لقيت دعوته رواجا وانتشارا كبيرين في العالم الإسلامي إلى يومنا هذا. ينظر: موسوعة ويكيبيديا الحرّة.

إنّ المشرق العربيّ ومغربه قد زخرا بمجموعة من الأدباء المصلحين أمثال السّيد جمال الدين الأفغانيّ، وتلميذه الشيخ محمّد عبده، وعبد الرحمان الكواكبي، وعبد الحميد بن باديس، ومحمّد البشير الإبراهيمي، ومحمد بن علي السنوسي. ولقد اشترك هؤلاء المصلحون في عدّة أهداف منها:

ـ توحيد العالم الإسلاميّ.

ـ عدم فصل السّياسة عن الدّين لأنّ الإسلام شريعة وعقيدة ودين ودولة، وإصلاح جانب دون آخر يضعف المسلمين.

ـ الوقوف ضد حركات التبشير المسيحية، بتعليم الناس دينهم.

ـ محاربة البدع والخرفات التي لا تمت للإسلام بصلة.

4 ـ جـ ـ المقال الإصلاحيّ في العالم العربي:

يندرج المقال الإصلاحيّ ضمن المقال الأدبيّ الذي يعنى بالقضايا الاجتماعية والسّياسية والدّينيّة، يُظهر فيه الكاتب رأيه الخاصّ في الموضوع المتناول بهدف إيقاظ وعي الجماهير.
وقد عرف العالم العربيّ هذا النّوع من المقال منذ طلائع النّهضة، لعدّة أسباب أهمّها:

– انتشار الصّحافة كوسيلة بديلة وأسهل من الكتاب الذي لم يكن في متناول كلّ النّاس.
– شغف الكتّاب المصلحين بإبداء آرائهم بحريّة تعبير تأسّيا بما عند نظرائهم في الغرب.
– اختلاف اتّجاهات المفكّرين العرب حول طرق الإصلاح ما خلق بينهم جوّا للتّنافس شديداً.

لقد دفعت الظّروف العصيبة التي كانت تعيشها الشّعوب العربيّة تحت وطأة الاحتلال الأدباء والمفكّرين الإصلاحيين العرب إلى الكتابة في الصّحف، والانخراط في هذه المهمّة المصيرية، وكانت مقالاتهم "**شديدة الحماسة، دافئة العاطفة بل حارّتها، قويّة اللّهجة، مشبّعة بالإيمان الشّديد بالمبدأ الإصلاحيّ، فكانت تعمل عملها في القلوب وتؤتي أكلها الطّيب في الإبّان المطلوب.**"[1]

[1] عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931 – 1945، ص151.

أ – المقال الإصلاحي في المشرق العربي:

إنّ بذرة الإصلاح التي زرعها المصلحون الأوائل منذ بوادر النّهضة في القرنِ التاسعَ عشرَ الميلادي –كما ذكرنا– والتي أرجعت المسلمين إلى عقيدتهم الصّحيحة، كانت الخطوة الأولى في سبيل التّغيير، ويعتبر السّيّد جمال الدّين الأفغاني المجدّدَ الحقيقيّ للفكر الإسلاميّ بمعناه الشّامل، حيث بثّ في النّفوس روح الثورة، ودعا إلى تحرير العقول من الجهل والخرافات والدّجل. فإنْ "**كان محمد بن عبد الوهاب يرمي إلى إصلاح العقيدة، ومدحت باشا يرمي إلى إصلاح الحكومة والإدارة فالسّيّد جمال الدّين يرمي إلى إصلاح العقول والنّفوس– أوّلا– ثم إصلاح الحكومة – ثانيا– ، وربط ذلك بالدّين**."[1]

ولقد تميّز جمال الدّين الأفغانيّ عن غيره بخبرته السّياسية بفضل احتكاكه بالسّلطان، ولقد حَفلت حياته بالنّشاط في الفكر والسّياسة والتّعليم والتّجوال بين البلدان. "**ولقد طوّف في فارس والهند والحجاز والآستانة وأقام فيها. ولكنْ لعلّ أخصب زمنه، وأنفع أيّامه، وأصلح غرسه، ما كان في مصر مدّة إقامته بها.**"[2] . وانخرط في العمل السّياسي معارضا سياساتِ الحكّام والسّلاطين هنا وهناك. ولقد عرف عنه عزّة النّفس، والشّجاعة، وعدم التّزلّف للحكّام حتّى عندما تقلّد مناصبَ حكوميّةً، إذ "**فهم رسالته وما تتطلّب من جهاد، وما تقتضيه من أعباء، فلم يرتبط بأسرة ولم يستعبده مال، وعاش لأفكاره ومبادئه.**" [3] هذا الباع الطّويل في الاطّلاع والرّحلة جعله يقف على ما آلت إليه دولة الإسلام من فساد و استبداد، فوهب حياته وعلمه في مجال الإصلاح، وسلّط لسانه في الحقّ.

ولقد أرجع جمال الدّين الأفغانيّ مآسي الأمّة إلى الحكومة الاستعماريّة البريطانيّة التي كانت شوكة في حلق المسلمين، وإلى استبداد الحكّام الذين استعانوا بالأجانب من أجل البقاء في الحكم. ونشر رسائله ومقالاته في صحف ومجلات عديدة، منها مجلّة العروة الوثقى، التي أسّسها

---

[1] أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت، د ت، ص59.

[2] المرجع نفسه، ص62.

[3] المرجع نفسه، ص62.

مع تلميذه محمد عبده في باريس، وقد تميّزت باللّغة القويّة، والمعاني الواضحة والتّسلسل المنطقيّ في عرض الأفكار، مع التّفصيل الذي يجعلها طويلة أحيانا.

ويقسّم الباحثون إنتاج السيّد جمال الدّين الفكري إلى:

"1 ـ المقالات والرسائل ... مثل رسالة الرد على الدّهريين ... أو المقالات التربوية والأخلاقية والثقافية التي نشرت في ... الهند و إيران...

2 ـ التعليقات والمقالات والرسائل الكلامية والفلسفية والعرفانية ... ومعظمها كانت حصيلة إقامة السيّد في أفغانستان و مصر وإيران وتدريسه الفلسفة...

3 ـ مقالات ورسائل اجتماعية وسياسية... صدر أغلبها في صحف مصر وباريس ولندن.

4 ـ الرسائل والمكاتيب التي كتبت في أية فترة وفي أي بلد حسب قضايا الساعة..."[1]

وهذا مقتطف من مقالته التي عنونها (ماضي الأمّة وحاضرها وعلاج عللها)، حيث وضع يده على مكمن الدّاء وأسباب علّة الأمّة، بعد أن استهلّ مقاله بتذكير القرّاء بدستور الحياة المبنيّ على التغيير الذي من شأنه أن يبعث الأمل من جديد، لنهضة الأمّة، ألا وهو قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ الآية 62 من سورة الأحزاب.

ثمّ ذكّر بأمجاد الأمّة في عصرها الذّهبيّ: "**...أرأيت أمّة من الأمم لم تكن شيئا مذكورا، ثمّ انشقّ عنها عماء العدم فإذا هي بحمية كلّ واحد منها كونٌ بديع النظام قويّ الأركان شديد البنيان، عليها سياج من شدّة البأس ويحيطها سور من منعة الهمم تخمد في ساحاتها عاصفات النوازل وتنحلّ بأيدي مديريها عقد المشكلات. نمت فيها أفنان العزّة بعدما ثبتت أصولها ورسخت جذورها وامتدّ لها السلطان على البعيد عنها والدّاني إليها ونفذت منها الشوكة وعلت لها الكلمة وكملت القوة، فاستعلت آدابها على الآداب، وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقيها ومعاصريها...**"[2]

---

[1] جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، العروة الوثقى، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2002، ص14.

[2] المصدر نفسه، ص107.

ثمّ عرّج متأسّفا من الدّرك الذي بلغته الأمّة من انحطاط وتخلّف، مع إعطاء الأسباب التي أدّت بها إلى هذا الوضع: "... **وبعد هذا كلّه وهي بناؤها وانتثر منظومها وتفرّقت فيها الأهواء وانشقت العصا وتبدّد ما كان مجتمعا وانحلّ ما كان منعقدا وانقصمت عرى التّعاون وانقطعت روابط التعاضد وانصرفت عزائم أفرادها عمّا يحفظ وجودها** ..."[1]

وبعد أن استعرض مختلف الآراء المتداولة حول مفاتيح النّهضة، ونقدها بالأدلّة والبراهين، راح يوضّح مذهبه في علاج الدّاء: "...**فعلاجها الناجع إنّما يكون برجوعها إلى قواعد دينها والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته وإرشاد العامّة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق وإيقاد نيران الغيرة وجمع الكلمة وبيع الأرواح لشرف الأمّة** ..."[2]

عندما حلّ السّيّد جمال الدين الأفغاني بالدّيار المصريّة في العام 1869 ميلادي، اتّصل به محمّد عبده الشاب الأزهريّ الطموح الذي كان في العشرين من عمره، فتتلمذ عليه، ولازمه أشدّ الملازمة، فتأثّر بأفكاره، وانتهج نهجه في الإصلاح. ولقد عانى السّيد من سوء المعاملة من قِبل الإدارة المصريّة، وضُيّق عليه، ومنع من الاجتماع بتلامذته، فاختار الرّحيل إلى الهند، ثمّ إلى باريس، فالتحق به تلميذه الوفي محمّد عبده، وكتب معه في مجلّة العروة الوثقى. وحينما توفّي الأستاذ 1897م أكمل التلميذ المسيرة، وحمل مشعل الإصلاح[3].

كان للشّيخ محمّد عبده رأيٌ في منهج التّغيير مستندٌ على التّعليم أوّلًا، وقد رأى أنّ تحريرَ الفكر لا يتأتّى إلّا بتحرير التّربية والتّعليم من الاتّباع والتّقليد، وتؤكّد مقالاته التي صدرت هنا وهناك على تهذيب النّفوس وتعليم العقول قبل أيّ شيءٍ آخرَ، إذ ورغم مناهضته للاحتلال وعملائه إلاّ أنّه اختلف مع أحمد عرابي* في أوجّ ثورته على الخيديوي في الخطّة والطّريقة، وعارضه في اندفاعه،

[1] جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، العروة الوثقى، ص107.

[2] المصدر نفسه، ص114.

[3] ينظر: المصدر نفسه، من مقدّمة الكتاب، ص64-66.

*-أحمد عرابي(1841-1911)م، زعيم عسكري مصري. أعلن الثورة على الخديوي توفيق عام 1882م. حُكم عليه بالإعدام ثم أبدل الحكمُ بالنفي إلى سيلان. ينظر: معجم أعلام المورد للبعلبكي.

-محمد توفيق باشا بن إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي (1852 - 1892) م، خيديوي مصر. تكاثرت في عهده الأحداث فصبر لها. وفي زمنه نشبت ثورة عرابي باشا. ينظر: معجم أعلام المورد للبعلبكي.

وحذّره من احتلال الإنجليز لمصر، وذلك ما حدث بالفعل، ممّا يدلّ على بعد نظره، وهذا مقتطف مما قاله للزّعيم أحمد عُرابي: "**إنّما علينا أن نهتمّ الآن بالتربية والتعليم بعض سنين، وأن نحمل الحكومة على العدل بما نستطيع ... وليس من المصلحة أن نفاجئ البلاد بأمر قبل أن نستعدّ لها، فيكون من قبيل تسليم المال للناشئ قبل بلوغ سنّ الرّشد، فيفسد المال ويفضي إلى الهلكة.**"[1]

لقد أسّس الشيخ محمّد عبدُه منهجه في الإصلاح بالجمع بين الأصالة والحداثة، وكان كتابه (رسالة التوحيد) آخرَ ما ألّفه، ومضمونُه الإصلاحُ والدّعوة الإصلاحيّة، وهدفُه توسيعُ مجالِ سماحة الإسلام وانفتاحِه، وهو دستور لمن بعده ممن تشبّع بأفكاره. ولقد نشط الإمام في السّياسة والدّين والفكر، وشَغله ما كان يعيشه المجتمع من أوضاع، فلم يكتفِ بالتّنظير والجلوس في برج عاجيّ، بل كان في الصّفوف الأولى في العمل الخيريّ والدّعويّ سواء في مصر أو خارجها، وعانى من نفي الخيديوي ومن قهره، مثله مثل أستاذه جمال الدّين، إلاّ أنّه ظلّ متشبّثا بما كان يراه الحقَّ، حتى وافته المنيّة. وقد كتب عنه المفكّر عبّاس محمود العقّاد واصفا إيّاه بالمصلح الفيلسوف: "**فهو مصلح فيلسوف بكلّ ما شئنا من معاني الإصلاح والفلسفة. هو مصلح يتّصل إصلاحه بالتفكير كما يتصل بالعمل، وهو فيلسوف حين تكون الفلسفة حكمة يروّض بها الحكيم نفسه على المسلك الذي ينبغي له كما يراه، والغاية التي يسعى إليها كما هداه الفكر إليها.**"[2]

أخذ عبد الرّحمان الكواكبيّ على عاتقه –كغيره من المصلحين– مهمّة الإصلاح والتّجديد، وكان تشخيص المرض ـ حسبه ـ هو السّبيل إلى وصف الدّواء. ورأى أنّ للانحطاط الّذي آلت إليه الأمّة الإسلاميّة أسبابًا متعدّدة، تكمن في الإعراض عن الدّين والتقاعس عن العمل به، وغياب الحريّة في الفعل والرّأي في الممارسة السّياسيّة، وتفشّي الآفات الاجتماعيّة كالجهل والفقر في الحياة الأخلاقيّة والاجتماعيّة. ونشر كتابه (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) الذي جمع فيه مقالاته التي كانت تصدر في بعض الصّحف بمصر، وعلّق عن هذا الكتاب، قائلا:" **إنّي نشرت**

[1] عباس محمود العقاد، عبقريّ الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام محمد عبده، دار مصر للطباعة، مصر، دت، ص 105، 106.

[2] المرجع نفسه، ص237.

في بعض الصّحف أبحاثا علميّة سياسيّة في طبائع الاستبداد، منها ما درسته، ومنها ما اقتبسته، غير قاصد بها ظالما بعينه، ولا حكومة مخصصة، إنّما أردت بذلك تنبيه الغافلين لمورد الدّاء الدّفين، عسى أن يعرف الشّرقيّون أنّهم هم المتسبّبون لما هم فيه، فلا يعتبون على الأغيار، ولا على الأقدار..."[1]

ولقد أبدع الكواكبيّ في روايته (أمّ القرى) في الوقوف على داء الأمّة، واقتراح العلاج، بعد أن نسج خيالُه حادثة انعقاد مؤتمر إسلاميّ بمكّة، ينظر فيه نخبةٌ من المسلمين من كل الجنسيّات حالَ الأمّة، ويقترحون الحلول النّاجعة للنّهوض بها.

ولقد دعا لمحاربة الاستبداد والطّغيان، وإلى إصلاح الرّاعي والرّعية وتخليص الإسلام من البدع والخرافات، وكذلك إلى الثّورة والتّغيير وضرورة العودة إلى مشارب الإسلام الصّافية. فالنّهضة – حسبه– لا تقوم، والاستقلال لا يتحقق دون ذلك. ولقد كان الخوض في موضوعات السّياسة والحكّام "**من الموضوعات المحرّمة، لأنّها تمسّ نظام الحكم من قرب، وتُفهم الشّعوب حقوقَهم وواجباتهم، وتقفهم على مناحي الظّلم والعدل، وتهيّئهم للمطالبة بالحقوق إذا سُلبت، والقيام بالواجبات إذا أهملت، وهذا أبغض شيء لدى الحاكم المستبد.**"[2]

إنّ من يعقد مقارنةً بين رائدي الإصلاح في المشرق العربيّ جمال الدّين الأفغانيّ و عبد الرّحمن الكواكبيّ، سيرى أنّ الأوّل أشغله العدوّ الخارجيّ ألا وهو المحتلّ، أمّا الثّاني فقد وضع نَصْبَ عينيه العدوّ الدّاخليّ المتمثّل في الحاكم المستبدّ، فقد" **نظر الأفغانيّ إلى العوامل الخارجيّة للمسلمين فدعاهم إلى أن يناهضوها، ونظر الكواكبيّ إلى العوامل الدّاخليّة للمسلمين فدعاهم إلى إصلاحها، فإنّها إن صلحت لم تستطع السياسة الخارجيّة أن تلعب بهم. ولذلك كانت معالجة الأفغانيّ للمسائل معالجة تأثّر، تخرج من فمه الأقوال نارا حامية؛ ومعالجة الكواكبيّ معالجة طبيب يفحص المرض بهدوء، ويكتب الدواء بأناة...**"[3]

---

[1] أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص 254.

[2] المرجع نفسه، ص252.

[3] المرجع نفسه، ص278.

لقد مرّت دعوة الإصلاح في المشرق الإسلاميّ في مرحلة ما بعد الحرب العالميّة الأولى بظروف تاريخيّة حاسمة، كان لها الأثر الكبير في المغرب الإسلاميّ، ولقد أدّت سياسة أتاتورك* في فصل الدّين عن الدّولة، ومن ثمّ إلغاء الخلافة الإسلاميّة، إلى التّأثير على دعاة الإصلاح حيث ظهر صراعٌ فكريّ بين تيّارات عدّة، أهمّها تيّار المحافظين الّذين دعوا إلى تجاوز التّقليد، وإلى الانفتاح على العلوم التّجريبيّة، وإلى تعلّم اللّغات الأجنبيّة، وإصلاح المناهج التعليميّة، دون الانسلاخ من الدّين الإسلاميّ باحترام التّقاليد والقيم، وتيّار المجدّدين الّذين انبهروا بالمدنيّة والتّقدّم العلميّ اللّذين وصلت إليهما أوروبا، فدعوا إلى عصرنة المجتمعات العربيّة الإسلاميّة، وتحرير الأفراد من الجهل خاصّة المرأة؛ ثمّ جاء بعدهم من دعا إلى العلمانيّة كحلّ لتحقيق الرّقي الحضاريّ.

ب – المقال الإصلاحيّ في المغرب العربي:

تعدّ الحركة الإصلاحيّة في المغرب العربيّ امتدادا لنظيرتها في المشرق، ولقد كان جامع الزّيتونة بتونس منارةً للعلم، تكفّلت بتخريجِ جيلٍ من العلماء الأفذاذ أمثال محمّد الطاهر بن عاشور، ولعلّه الأكثر تأثيرًا على منطقة المغرب العربيّ لريادته وسبقِه في حمل راية الإصلاح طوال عمره الذي بلغ التّسعين في خدمة العلم والتّربية والقضيّة الوطنيّة. ففي مجال التّربية والتّعليم، كان له الحظّ أن يمارس مهنة التّدريس في جامع الزّيتونة ذي النّظام التّقليديّ، "**ثمّ بدأ يدرّس في المدرسة الصّادقيّة، ويحاضر بجملة من المحاضرات في الجمعيّة الخلدونيّة.**"[1] وقد أدّى احتكاكه بمختلف طرق التّعليم بسبب انتقاله بين شتّى المدارس والمنابر التّعليميّة إلى اكتساب خبرة طويلة، جعلت فكره الإصلاحيّ منصبًّا على ضرورة ردم الهُوّة بين تيّاري الأصالة والمعاصرة الذي قسّم المجتمع التّونسي. ودوّن آراءه هذه في كتابه النّفيس (أليس الصّبح بقريب؟) حيث شرح رؤيته للإصلاح،

---

*مصطفى كمال (1881–1938) مؤسس تركيا الحديثة، التحق بالكلية الحربية، وشارك في عدّة حروب. نظّم الحزب الوطني التركي في مايو 1919. دخل في صراع مع السلطان محمّد السادس، وألغى الخلافة سنة 1924م لمّا استولى على زمام العسكر. فصل بين الدّولة والدّين، وجعل القانون المدنيّ يقوم على أصول التّشريعات الأوروبية بدلا من الشريعة الإسلاميّة. ينظر: موسوعة ويكيبيديا الحرّة.

[1] اسماعيل الحسني، نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، 1995، ص88.

وحدَّد فيه أسباب تخلّف العلوم، واقترح حلولا من أجل إصلاح حال الأمّة، إذ رأى ضرورة إصلاح مناهج التّعليم وفقَ رؤيةٍ حضاريّة تاريخيّة شاملة، تُدرك التّغيّراتِ التي عرفها المجتمع. وعندما صار شيخاً للزيتونة، استمرَّ في سياسته الإصلاحيّة، فنجح في إدخال إصلاحات جذريّة في نظام التّعليم الزّيتونيّ، كإدخال الموادّ العلميّة، وفتح شعب التّخصّص، فكثر الطّلاب، وزاد عدد المعاهد العلميّة، "**وكان من الإنجازات التاريخية التي تحققت على يديه إنشاء فروع للجامع في أطراف البلاد التونسية، وهي أمنية من أمنياته، يقول:كان إحداث تعليم منظم بفروع للجامع الأعظم من أهم ما سعيت إليه أيام ما قمت بخطة نيابة الدولة لدى النظارة العلمية...وبه غرست نواة درجة التعليم الإسلامية المنظم... وعدّ يومئذ تقدّما عظيما، وسطرا من التاريخ قويما.**"[1]

ويعتبر الشّيخ رائدا في التّجديد في مجال التّفسير. وقد كان كتابه (التحرير والتنوير*) الذي ألّفه في ثلاثين جزءا مرجعًا لفهم النّص القرآني وسيرورة الأمّة، وما تختزنه من ديناميكيّة داخليّة للتطوّر، مما دلّ على سعة علم الشّيخ وغزارة معارفه في الحضارة والعلوم، والتّاريخ، واللّغة، والفقه. ولقد ألّف الشّيخ كتبا عديدة بالإضافة إلى تراثه الذي يضمّ ما لا يحصى من مقالات أغلبها في مجلة (السعادة العظمى*).

ولنستعرض مقتطفا من مقالته الشهيرة التي عنونها (المدينة الفاضلة) نشرها في هذه المجلة: "**لم تزل أمنية كل مصلح قيّضه الله للبشر لأن يهدي الناس إلى تكوين ما يسمى في عُرْف الحكماء بالمدينة الفاضلة، وهم إن اختلفت عندهم الأسماء لاختلاف أساليب التعبير في اللغات لا نجد بينهم اختلافاً في أن مسمّى الذي يدعون إليه هو مسمى ما عناه الحكماء المدينة الفاضلة: مجتمع من الناس هو على أكمل حال يكون عليها المجتمع البشري في الرأي والعمل؛ ذلك أن**

---

[1] اسماعيل الحسني، نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، ص88.

*– تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد: يعدّ تفسيرا بلاغيا يهتمّ بالقراءات والفقهيّات وغيرها. يقدّم عرضا تفصيليّا لما في السّورة ويتحدّث عن ارتباط آياتها.

- السّعادة العظمى: مجلة إسلامية أنشأها الأزهري محمد الخضر حسين. صدر العدد الأول من المجلة في 16 محرم من عام 1322 هـ / 1904 م، وبلغت مجموع إصداراتها 21 عددا، نُشرت في 1905 م. ينظر: موسوعة ويكيبيديا الحرّة.

الإنسان مدنيٌّ بالطبع كما هو مشهور على الألسنة، وقد علل كثير من الحكماء كون الإنسان مدنياً بالطبع.

وأنا أختصره وأزيد بياناً: فمعنى كونه مدنيّا بالطبع أنه بطبع خلقته مجعول لأن يكون مدنياً، لأنه خلق بحيث لا يستقل وحده بأمر نفسه، بل هو محتاج إلى مشاركة غيره من بني جنسه؛ لظهور كثرة حاجاته الناشئة عن ضعفه الجبلي وتفكيره؛ فالضعف الجبلي جعله محتاجا إلى مكملات يصير بها قويّا على مصادمة الكوارث والمهالك، والتفكير جعله متطلعا إلى أن يعيش كما يحب لا كما يلقى، وذلك بالمُقام في حيث يريد دون انزواء أمام الحوادث المغتالة، وبتحصيل ما لا يستطيع نواله مع فرط رغبته؛ فزاد بالتفكير ضعفه جلاء لأنه يطمح به إلى تمنيات وفروض لا يستطيع تحصيلها لعجزه... فاحتاج أفراد البشر إلى معونة بعضهم بعضاً؛ لتصل لهم من تفكيرهم وسعيهم قوةُ التعاضد والتوازر، فيبذل كلَّما يستطيع بذله من كده أو من كسبه، عسى أن يحصل من مجموع سعيهم تحصيل معظم أماني الجميع، وبذلك التفكير والتعاضد امتاز البشر عن أصناف الحيوان..."[1]

يعدّ الشيخ عبد الحميد بن باديس رائدَ الحركة الإصلاحيّة في الجزائر، فقد كان له الدّور الكبير في النّهضة في الجزائرِ، حيث ركّز جهده على مواجهة الاحتلال الفرنسيّ بالقلم، فأعدّ خطّةً طويلةَ المدى آتت أُكُلَها بعد حين من الدّهرِ، تمثّلت في تربيةِ النّشءِ وتعليمه، وإعدادِه إعدادا يؤهّله ليقودَ طلائعَ الثّورة والنّهضة. ولقد تأثّر ابن باديسَ بنهضة المشرق بعد رحلته إلى الحجاز، حيث أدّى فريضةَ الحجّ، و"**طاف بعدّة أقطار عربيّة فزار سوريا ولبنان ومصر واجتمع برجال الفكر والعلم والأدب فيها وزار الأزهر الشريف ووقف على أساليب الدراسة فيه.**"[2] فاستلهم من أفكار المشارقة، وأسقطها على واقع الجزائريّين، وراعى في ذلك الفروقات التّاريخيّة والجغرافيّة، والثّقافيّة. ولقد اعتمد الشّيخ ابن باديس في خطّته لإعادة الجزائريّين إلى النّبع الصّافي من خلال تعليمهم اللّغةَ العربيّةَ، وعلومَها، والعلومَ الإسلاميّة من خلال الكتاب والسّنة على منهج السّلف الصّالح.

---

[1] ينظر: محمّد الطّاهر بن عاشور، مقال: المدينة الفاضلة، مجلّة الهداية الإسلامية، ج10، م9، يونيو 1937م، 578-594.

[2] تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس، رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ص172، 173.

وجاء ميلاد جمعيّة العلماء المسلمين – كما سبق وأن ذكرنا – فعملت على تمييز الهويّة الجزائريّة عن فرنسا، ورفع شعار التّغيير. وأسّس الشّيخ بمعونة إخوانه الإصلاحيّين مدارسَ تقوم على التّربيةِ والتّعليم. فآمنوا إيمانا صادقا بأنّ الإصلاح الصّحيح يبدأ بالتّربية الصّالحة التي تصنع الإنسان الجزائريّ المسلم الواعي بما يقع على عاتقه من مهمّة استرجاع أمجاد الأوّلين، إنسانا بداخله شعلةُ الغيرة على دينه ولغته ووطنه، تنعكس على سلوكه فتظهر بذلك ثمرة التّغيير في علاقاته مع سائر الأفراد في المجتمع. فالتّغيير المنشود –حسب الشيخ عبد الحميد بن باديس– يبدأ بإصلاح النفوس قبل إصلاح الأوضاع داخل المجتمع. وقد اعتمد ابن باديس من أجل ذلك أساسا على المسجد كنواة أولى لبناء شخصيّة جزائريّة معتزّة بدينها وتاريخها، "**فقد رابط ابن باديس في الجامع الأخضر بقسنطينة أكثر من ربع قرن يعلّم ويربّي الشّبيبة بالنّهار، ويعظ ويرشد ويفسّر القرآن، ويشرح الحديث للمواطنين الكبار باللّيل، حتّى بعث في الجزائر نهضة عربيّة إسلاميّة واسعة النّطاق أعادت للّغة العربيّة مكانتها في الجزائر.**"[1]

وممّا قاله عن ضرورة الاعتناء باللّغة العربيّة: "**اللّغة العربيّة لغة الدّين، لغة الجنس، لغة القوميّة، لغة الوطنيّة المغروسة. إنّها وحدها الرابطة بيننا وبين ماضينا، وهي وحدها المقياس الذي نقيس به أرواحنا بأرواح أسلافنا، وبها يقيس من يأتي بعدنا من أبنائنا وأحفادنا الغرّ الميامين أرواحهم بأرواحنا، وهي وحدها اللسان الذي نعتزّ به، وهي الترجمان عمّا في القلب من عقائد وما في العقل من أفكار وما في النّفس من آلام وآمال. إنّ هذا اللّسان العربيّ العزيز الذي خدم الدّين، وخدم العلم، وخدم الإنسان هو الذي نتحدّث عن محاسنه منذ زمان، ونعمل على إحيائه منذ سنين، فليحقّق الله أمانينا.**"[2] فقد اعتزّ الكاتب باللّغة العربيّة واعتبرها الحبل المتين الذي يربط حاضر الأمّة بماضيها، وعدّها لغة الدّين الإسلاميّ، ولغة العلم، بل لغة الإنسانيّة كلّها، ملمّحا إلى الماضي حينما كانت الأمّة الإسلامية في أوجّ تقدّمها.

[1] تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس، رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ص351.

[2] عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، إعداد وتصنيف: عمّار الطالبيّ، ج1، م2، الشركة الجزائريّة للنّشر والتوزيع، ط3، الجزائر، 1997، ص265.

ولقد أنجبت الجزائر أقطابًا آخرين في مجال الإصلاح عاصروا الشّيخ ابن باديس، يُشهد لهم بجهودهم في التّنظير لنهضة الأمّة، نذكر بعضهم*:

-الشيخ الطيب العقبي (1890م-1960م):

ولد في بلدة سيدي عقبة ببسكرة، ولما بلغ السّادسة من عمره هاجر صحبة أسرته إلى الحجاز عام 1895م، فتعلّم هناك، ثم درّس في الحرم النبويّ، لكنه نُفي إلى تركيا بتهمة المشاركة في الثّورة العربيّة الكبرى. عاد إلى الجزائر عام 1920 م، وأصدر جريدة (الإصلاح) في 1937م، فكانت منبرًا لأقلام دعاة الإصلاح والحرّيّة في الجزائر. ترأّس تحرير جريدة "البصائر" ، وقد كان عضوا مشاركا في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وتولى الوعظ والإرشاد في "نادي الترقي". توفّي بالجزائر العاصمة.[1]

وهذا مقتطف من مقال له في جريدة البصائر: "**فيا أيّها الإنسان العاقل ! ويا أيّها المخلوق المدرك الحسّاس المفكّر ! هل فكّرت يوما ما في نفسك وفي الآفاق؟ وهل اهتديت بتفكيرك إلى الكريم الخلاّق؟ هل أدركت في وقت من الأوقات ممّ خُلقت ولم خُلقت؟ وهل تبيّن لك الدّليل الإقناعيُّ والشّاهد الحسّيّ بما أوجب لك العلم الصّحيح فآمنت ذلك الإيمان الصّحيح فكنت من الموقنين، وأسلمت وقلبك لله ربّ العالمين.**"[2]

ويتجلّى عمق فكر الإمام العقبيّ من خلال هذه الكلمات التي لا تصدر إلا من علاّمة ملمّ بعلوم الشّريعة، يتحدّث في موضوع هو أهمّ شيء في الدّين ألا وهو العقيدة الصّحيحة.

-الشّيخ العربي التبسي (1889م-1957م):

أحد رجال الفكر الإصلاحيّ، ومن أبرز أعضاء جمعيّة العلماء المسلمين، **ولد في بلدة أسطح قرب تبسة. تعلّم بجامع الزّيتونة ثمّ بالأزهر الشّريف، وعاد سنة 1927م، واشتغل بالتعليم**

---

* نظرا لكثرة رجال الإصلاح في الجزائر فقد اكتفيت بذكر أشهرهم.

[1] ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى العصر الحديث، مؤسّسة نويهض الثّقافيّة للتّأليف والتّرجمة والنّشر، ط2، بيروت، 1980، ص238.

[2] الطّيّب العقبي، مقال: الإسلام دينُ الله الخالدُ، جريدة البصائر، ع3، السّنة الأولى، 22 شوال 1354هـ / 17 جانفي 1936م، ص1.

العربيّ الإسلاميّ في تبسّة وغيرها. كان كاتبا عامّا للجمعيّة ثمّ نائبا لرئيسها، ثمّ ترأسّها في غياب الشيخ الإبراهيميّ في العام 1956م. خطفه الفرنسيون واغتالوه.[1]

وهذا المقتطف من مقال للشّيخ التبسي يبرز روح التناصح، ومدى التّفاهم بين أعضاء الجمعيّة حول أهدافها وسبل تحقيقها:

"**والمجلس الإداريّ يذكّر إخوانه أعضاء جمعيّة العلماء بأنّ جمعيّتنا الدّينيّة وجدت يوم وجدت لأن تخدم هذا الشّعب الجزائريّ من ناحيته الدّينيّة والعلميّة، فليقدّر كلّ واحد منّا هذه المسؤوليّة قَدرَها، وليحاسب نفسه عن صحّة هذه الدّعوة التي لا يصدق فيها صاحبها إلاّ إذا تكلّمت بصدقه جهودُه وأخبرت عن جهوده آثار أعماله...فأروا النّاس أعمالكم وصدّقوا نسبتكم إلى جمعيّة العلماء فإنّها جمعيّة نشر علم، وخدمة شعب، وتربية نشء، وتهذيب عامّة. فكونوا يا أعضاءها من الذين يعملون كثيرا ويتحدّثون قليلا، ((إِنَّ اللَّه مَعَ الذينَ اتّقَوْا والَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ))**"[2]

- **مبارك بن محمد الميليّ (1898م–1945م):**

مؤرّخ وكاتب من رجال الإصلاح، ولد بالميليّة، وأكمل تعليمه بتونس وتخرّج من جـامع الزّيتونة. عاد إلى الوطن عام 1922م، وعمل في حقلي التّعليم والكتابة. من أقطاب جمعيّة العلماء وألمع كتّابها. يطلق عليه لقب(فيلسوف الحركة الإصلاحيّة). من آثاره (تاريخ الجزائر في القديم والحديث)، و(رسالة الشّرك ومظاهره).[3] وقد طبع كتابه (رسالة الشّرك ومظاهره) الذي يضمّ مقالاته التي نشرت في جريدة البصائر، منها هذه الفقرة:

"**ولقد نتج عن قلّة الخوض في الشّرك ومظاهره أن صار الشّرك أخفى المعاصي معنىً وإن كان أجلاها حكمًا، فلظهور حكمه وكونه من الضّروريّات ترى المسلمين عامّتهم يتبرّؤون منه؛ ويغضبون كلّ الغضب إذا نُسِبوا إليه؛ ولخفاء معناه وقَعَ من وقَعَ فيه وهم لا يشعرون. ووجدوا من أدعياء العلم من يسمّي لهم عقائدَ الشّرك وأعمالَه بأسماء تدخل في عقائد الإسلام**

[1] ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص61.

[2] العربي التبسي، مقال: إلى أعضاء جمعيّة العلماء وأنصارها، جريدة البصائر،ع3 ، السّنة الأولى، 22 شوّال 1354هـ / 17 جانفي 1936م، ص3.

[3] يُنظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص325.

وأعماله... ويشنّع على العلماء النّاصحين للعامّة والمحذّرين لهم من الشّرك ومظاهره."[1] وقد تعرّض الكاتب إلى خطر العقائد الشّركيّة المتفشّية في المجتمع الجزائريّ بسبب الجهل بالدّين، واتّباع شيوخ البدع والخرافات، وقد استهدف الكاتب إيقاظ النّاس من وهم الضّلالات التي تكبّلهم وتشغلهم عن الاهتمام بما ينفعهم.

إنّ النّظرة الشّموليّة التي كانت لدى الإصلاحيّين في العالم الإسلامي جعلت دعوتَهم لا تعترف بالحدود التي خطّها الاحتلال، لذلك فلا غرابةَ أن يلقى دُعاة المشرق آذانًا صاغيةً في المغرب والعكس. فعلى سبيل المثال، نرى أفكار المفكّر الجزائريّ مالك بن نبي* قد لقيت رواجا كبيرا في دعوته إلى التّجديد والنّهضة والثّورة. وقد تأثّر بالفكر الإصلاحيّ في الجزائر وفي العالم العربيّ والإسلاميّ، فاهتمّ بقضايا أمّته وقام بتحليل الواقع وتقصّي التّاريخ بمنهج علميّ، ونقدَ آراء المصلحين، ورأى أنّهم اجتهدوا في تشخيصِ داء الأمّة إلا أنّهم – حسبه – لم يتناولوا في الحقيقة المرضَ، بل تحدّثوا عن أعراضه. فراح مالك بن نبي يرسم خطّته في النُّهوض، ويقترح حلولًا لمشكلة التّأخر عن النّهضة والحضارة في كتب عديدة، بالإجابة عن أسئلة محوريّة مثل: ما هي الحضارة؟ وما هي شروطها؟ وما هي موانعها؟ ولماذا تخلّف المسلمون عن الرّكب الحضاريّ؟ وكيف يعودون إليه؟ ووصل به البحث إلى وضع نظريته وهي "**أنّ الحضارة لا تُستورد وإنّما هي عبارة عن إبداع، وليست تكديسًا ولا جمعًا لركام من الأشياء، وإنّما هي بناء وتركيب للعناصر الثّلاثة: الإنسان والزّمن والتّراب، وهذه العناصر لا تمارس مفعولها ضمن حالة شديدة ولكن ضمن تركيب متآلف يحقق بواسطتها جميعًا إرادة وقدرة المجتمع المتحضّر."**[2] ومعنى ذلك أنّ الأزمة الحقيقيّة لتخلّف الأمّة الإسلاميّة تكمن في ثلاثة أشياء إن عولجت فستضمن نهضتها، هي

---

[1] مبارك الميليّ، مقال: الشّركُ ومظاهرُه، جريدة البصائر، ع5، السّنة الأولى، 6 ذو القعدة 1354هـ / 31 جانفي 1936م، ص2.

*مالك بن نبيّ (1905–1973)م، مفكر إسلامي جزائري. تخرج مهندساً ميكانيكياً في معهد الهندسة العالي بباريس. أقام في القاهرة سبع سنوات أصدر فيها معظم آثاره، باللغة الفرنسية نحو 30 كتاباً جلها مطبوع. تُرجم بعضها إلى العربية. وكان من أعضاء مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة. وتولى إدارة التعليم العالي بوزارة الثقافة والإرشاد القومي الجزائري 1964م. ينظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ص267.

[2] عبد اللّطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، دار الشّهاب للطّباعة والنّشر، باتنة، 1984، ص42.

الإنسان المتكاسل عن أداء دوره في مواكبة الحاضر إمّا بالفكر، أو بالعمل، أو بالمال، والزّمن الذي لم يستغلَّ أحسن استغلال، والتّراب الذي يمثّل الأرض والجغرافيا الممتدّة شرقا وغربا، والتّي تعجّ بالثّروات التي تضيعُ إمّا بالإهمال أو بالاحتكار من طرف الشّركات الأجنبيّة بأبخس الأثمان. وفي ما يلي مقتطف من مقال بعنوان (باعة الحضارة)، يبيّن فيه أنّ الحضارة ليست سلعة تُشترى أو تستورد من الخارج: "**وفي الواقع أنّ الحضارة ليست شيئا يأتي به السّائح في حقيبته – مع أنّ صورة السّائح لا تورّط مفهوم الحضارة مثلما تورّطه صورة المستعمر– لبلد متخلّف كما يأتي بائع الملبوسات...البالية، بل إن ابن المستعمرات هو الذي يذهب إلى الحضارة، إلى مصادرها البعيدة، وقبل كلّ شيء إلى مصادرها الأقرب من أصالته. وليست الحضارة في نيّة المستعمر – ولو صحّت هذه النّيّة– بل هي نتيجة الجهد الذي يبذله كل يوم الشّعب الذي يريد التحضّر، وفي إرادة هذا الشعب إزاء الحضارة أي عندما يضع كلّ تفصيل من حياته مضمونه الأخلاقيّ والجماليّ والعمليّ حتى يكون هذا التفصيل كأنّه خطوة نحو التّقدّم...**"[1]

ويمكننا استنباطُ عنصرِ الإنسانِ الفاعلِ في شروط الحضارة حسب الكاتب، إذ نفى أن يكون مجرّدُ الاحتكاكِ مع المجتمع الغربيّ سببًا كافيًا للتّحضّر، بل الأنجعُ هو العملُ الدّؤوب من أجل الوصول إلى هذا الهدف السّامي، من خلال التعلّم والتّثقّف والابتكار والإبداع والبناء والتّشييد واحترام القيم والمبادئ.

إنّ رسالة الإصلاح في القرن الماضي وما تبوّأه المقال الإصلاحيّ من دور رائد في نشر الأفكار الإصلاحيّة التي سعى لتقديمها وعرضها جحافل المصلحين في المشرق والمغرب –كما سبق وأن أشرت إليه– ، ما كانت لتؤتي أكلها في مجال التحرّر من الاحتلال، لولا استجابةُ المجتمع لهذه الأفكار وانخراط النّخبة في الإسهام في عمليّة التّغيير. ورغم أنّ مشكل تخلّف الشّعوب العربيّة والإسلاميّة لم يُحلَّ بعدُ بسبب تفاقم مخلّفات الاحتلال من تبعيّة اقتصاديّة وثقافيّة واجتماعيّة، إلّا أنّ وجودَ الإرادة –من جهة– والأخذَ بعين الاعتبار جهودَ المصلحين في شتّى مجالات الإصلاح –من جهة أخرى– لا بدّ أن يسهم في تحقيق النّهضة المرجوّة.

[1] مالك بن نبي، في مهبّ المعركة، دار الفكر، ط3، دمشق، 1981، ص 120.

5 ـ الشيخ العلاّمة محمد البشير الإبراهيمي وقضايا الإصلاح في عيون البصائر:

5 ـ أ ـ مولده ونشأته:

ولد محمّد البشير بن محمّد السّعدي بن عمر بن محمّد السّعدي بن عبد الله ابن عمر الإبراهيميّ في الثّالث من شوّال في العام 1306 الهجريّ، الموافق للرابع عشرَ من جوان في العام 1889 الميلاديّ، بقرية أولاد ابراهم الواقعة في سفوح الأطلس التلّي بالجزائر (تابعة لولاية سطيف حاليا). وينحدر نسبه إلى "**إدريس بن عبد الله الجذم الأوّل للأشراف الأدارسة.**"[1]

ويتحدّث الإبراهيميّ عن نشأته قائلاً: "**نشأت على ما نشأ عليه أبناء البيوتات العلميّة الرّيفيّة من طرائق الحياة، وهي تقوم دائما على البساطة في المعيشة والطّهارة في السّلوك والمتانة في الأخلاق، والاعتدال في الصّحّة البدنيّة... قام على تربيتي وتعليمي من يوم درجتُ عمّي شقيق والدي الأصغر الشّيخ محمّد مكّي الإبراهيميّ عالم إقليمنا المعروف بوطن ريغة، وفريد عصره في إتقان علوم اللّسان العربي...لم أفارق في تعلّمي بيت أسرتي، فهي مدرستي التي تعلّمت فيها وعلّمت، أخذني عمّي بالتربية والتعليم، فكان لا يخليني دقيقة واحدة من فائدة علميّة، وكانت له طريقة عجيبة في تنويع المواضيع والمحفوظات حتّى لا أملّ...مات عمّي سنة 1903 ولي من العمر أربع عشرة سنة، ولقد ختمت عليه دراسة بعض الكتب وهو على فراش المرض الذي مات فيه، وأجازني الإجازة المعروفة، وأمرني بأن أخلفه في التدريس...** "[2]

5 ـ ب ـ رحلته الأولى إلى المشرق:

يتحدّث نجله أحمد طالب الإبراهيمي عن مرحلة مفصليّة في حياة أبيه، ألا وهي رحلته إلى المشرق العربيّ، ولحاقه بجدّه الذي هرب من بطش الاحتلال الفرنسيّ إلى المدينة المنوّرة سنة 1908 ميلادي: "**...ولحق به والدي عام 1911 ميلادي، تأكيدا للتفاعل بين المشرق والمغرب، مرورا بمصر التي أقام بها ثلاثة أشهر، التقى خلالها بعدد من علمائها وأدبائها وشعرائها،**

---

[1] عبد الملك بومنجل، النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، جوان 2009، ص21.

[2] محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيميّ، ج5 (1954−1964)، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1997، ص 164.

وحضر بعض دروس العلم في الأزهر، وعندما استقرّ بالمدينة المنوّرة درس فيها على كبار علمائها – الوافدين من كلّ أنحاء العالم الإسلاميّ – علوم التفسير والحديث، والفقه، والتراجم، وأنساب العرب، وأدبهم، ودواوينهم، كما درس علم المنطق والحكمة المشرقيّة، وأمّهات كتب اللغة والأدب ثمّ أصبح يلقي الدّروس للطّلبة في الحرم النّبويّ، ويقضي أوقات فراغه في المكتبات العامّة والخاصّة باحثا عن المخطوطات."[1] وهناك بالمدينة المنوّرة، التقى الشّيخ البشير الإبراهيميّ برفيق الدّرب الشّيخ ابن باديس، في موسم الحجّ في العام 1913 ميلادي، حيث كانت النّواة الأولى لفكرة العمل الدّعويّ بالجزائر. وفي 1917 ميلادي انتقل إلى دمشق، " **حيث دعته حكومتها لتدريس الآداب العربيّة بالمدرسة السلطانية (مكتب عنبر)، وهي المدرسة العصريّة الوحيدة آنذاك، بالإضافة إلى إلقاء دروس الوعظ والإرشاد في الجامع الأُمويّ، وقد تخرّج على يديه جيل من المثقّفين كان لهم أثر بالغ في النهضة العربية الحديثة.**"[2]

5 ـ جـ ـ عودته إلى الجزائر:

عاد الشّيخ البشير الإبراهيميّ إلى أرض الوطن الأسير في العام 1920 ميلادي، فوجد عمل صديقه عبد الحميد بن باديس قد بدأ يؤتي أُكله، إذ وجد بقسنطينة طلائع الشّباب المتخرّج من مدرسة الشّيخ، فألهب في نفس الإبراهيميّ العزمَ على اقتفاء أثره، فأسّس مدرسةً بسطيف حيث بدأ يُلقي فيها دروسه العلميّة والدّينيّة لطلبة العلم، وجاب القرى والمدن يخطب بمساجدها ونواديها، فأشعل في العقول جذوة الوعي بمآل الأمّة، وحرّك في النفوس الأمل في النّهضة. وكان الشّيخ حينئذ تحت عين الإدارة المحتلّة، فساومته للتّعامل معها لا سيّما أنّ ظروف ما بعد الحرب العالميّة الأولى كانت مزرية، لكنّه أبان عن معدنه الأصيل " **بعد أن رفض الوظيفة التي عرضت عليه من طرف السلطات الفرنسيّة، وتعاطى التّجارة ليقوم بأَوَدِ عائلته، وبقي على اتصال بابن باديس. وخلال هذه المرحلة تردّد على مدينة تونس حيث يقيم أصهاره، وحيث كانت له صداقات في الأوساط العلميّة والأدبيّة.**"[3]

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص 9، 10.

[2] المصدر نفسه، ص10.

[3] المصدر نفسه، ص10.

5 ـ د ـ عمله في جمعيّة العلماء:

يُعدُّ تأسيسُ جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين في العام 1931 م الميلادَ الفعليَّ لمشروع النّهضة الذي طالما راود المصلحين الجزائريّين. ولقد اختصّ الشّيخ ابن باديس بالإشراف على منطقة الشرق (قسنطينة)، وأشرف الشيخ الطّيّب العقبيّ على مقاطعة الجزائر، بينما تولّى الشّيخ الإبراهيميّ الإشراف على منطقة الغرب الجزائريّ، واتّخذ مدينة تلمسان مركزا لنشاطه، "**وأسّس فيها (مدرسة دار الحديث) سنة 1937، بنيت على نسق هندسيّ أندلسيّ أصيل، فكانت مركز إشعاع دينيّ وعلميّ وثقافيّ، واحتوت على مدرسة ومسجد وقاعة محاضرات.**"[1] ولقد تعرّض الشّيخ إلى ترهيب السّلطات الفرنسيّة بالتّضييق عليه تارةً، وإلى التّرغيب بإغرائه بمنصب شيخ الإسلام تارة أخرى، إلاّ أنّه ثبت على الحقّ فكلّفه ذلك النّفي إلى آفلو في الصّحراء. وجاءت سنة 1940 م معلنة عن وفاة رائد الإصلاح الشّيخ ابن باديس، وتلقّى الشّيخ محمّد البشير الإبراهيميّ الخبر فلم يثنه النّفي عن تحمّله مسؤوليّة رئاسة جمعيّة العلماء بعد انتخابه غيابيّا. وبعد عودة الشيخ من المنفى، اضطلع بمهمّة مواصلة إعداد جيل الثورة المثقّف الواعي، ورغم السّجن سنة 1945 م إلّا أنّه رابط وجاهد بلسانه وقلمه حتى صار "**قائدا للحركة الدينية والعلمية والثّقافيّة في الجزائر، يجوب ربوعها معلّما وموجّها ومرشدا، يوحّد الصّفوف ويؤسّس المدارس والمساجد والنّوادي ويهيّئ العقول لساعة الصّفر التي كانت تخطّط لها نخبة من الحركة السياسيّة.**"[2]

5 ـ هـ ـ رحلته الثانية إلى المشرق:

سافر الشّيخ الإبراهيميّ للمرّة الثانية إلى المشرق العربيّ في العام 1952 م للسّعي لدى الحكومات العربيّة من أجل قبولها بعثات طلاّبيّة جزائريّة لاستكمال الدّراسة بها، "**وطلب الإعانة الماديّة والمعنويّة للجمعيّة حتّى تستطيع مواصلة أعمالها وجهادها، والتعريف بالقضيّة الجزائريّة في الأوساط السّياسيّة في الدّول التي زارها أو التقى مسؤوليها، ولدى جامعة الدّول العربيّة.**"[3] وقد كثّف الشّيخ نشاطه الذي بدأه بمصر وامتدّ إلى العراق و السّعوديّة والأردن والكويت وباكستان.

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، ج1، ص11.

[2] المصدر نفسه، ص11.

[3] المصدر نفسه، ص12.

وتمثّل عمله في إلقاء الدّروس والمحاضرات وأحاديث إذاعيّة دعما للثورة التحريرية المظفّرة التي ساندها منذ بدايتها، ودعا الشعب إلى الالتفاف حولها، ووصفها بالجهاد المقدّس. وهذا النّداء الذي وجّهه إلى الشّعب الجزائري يوم 15 نوفمبر 1954 ميلادي، يدحض مزاعم من يقولون بتخلّف جمعيّة العلماء عن الثورة، إذ بعد استهلاله بمثالب الاحتلال الفرنسي وتاريخه الأسود، خاطب الجزائريّين قائلا: "... **إنّكم مع فرنسا في موقف لا خيار فيه، ونهايته الموت، فاختاروا ميتة الشّرف على حياة العبوديّة التي هي شرّ من الموت.**

...إنّكم كتبتم البسملة بالدّماء، في صفحة الجهاد الطويلة العريضة، فاملؤوها بآيات البطولة التي هي شعاركم في التاريخ، وهي إرث العروبة والإسلام فيكم... إلى ميدان الكفاح المسلّح، فهو السّبيل الواحد إلى إحدى الحسنيين، إمّا موت وراءه الجنّة، وإمّا حياة وراءها العزّة والكرامة."[1]

5 ـ و ـ وفاته:

كُتب للشّيخ الإبراهيميّ أن يذوق حلاوة الاستقلال، وإمامة المصلّين في جامع كتشاوة، وألقى محاضرته الشّهيرة أمام وفود من العالم الإسلاميّ. ولكنّه خلال السّنوات الثّلاث التي تلت الاستقلال، تأسّف للتّوجّه السّياسيّ الذي سلكه النّظام آنذاك، وآلمه ما حدث لأبناء الوطن من فرقة وتنازع، ودعا السلطة إلى العودة إلى جادّة الصواب، واستمرّ على موقفه حتى وفاته في 20 ماي 1965 م.

5 ـ ز ـ مؤلّفاته:

لقد حفلت حياة الشّيخ البشير الإبراهيميّ بالنّشاط المستمرّ في مجالات الدّعوة والتّربية والتّعليم والجهاد داخل الجزائر وخارجَها، فقد كان عضوا مؤسّسًا لجمعيّة العلماء المسلمين في الجزائر وعضوًا من أعضاء المجامع العلميّة العربيّة بدمشق والقاهرة وبغداد. وله شعر إسلاميّ في حوالي ستّة وثلاثين ألف بيت يعدّ ملحمة في تاريخ الإسلام، كان ينشره في مجلّة البصائر التي كان رئيس تحريرها. أمّا في النّثر فله بعض الآثار القيّمة رغم قلّتها، ويقول في ذلك: "**لم يتّسع**

[1] محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج5، ص 35، 36.

وقتي للتّأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلاً، ولكنّني أتسلّى بأنّني ألّفت لشّعب رجالاً، وعملت لتحرير عقولهم تمهيدًا لتحرير أجساده، وصحّحت له دينه ولغته فأصبح مسلمًا عربيّا، وصحّحت له موازين إدراكه فأصبح إنسانًا أبيًّا، وحسبي هذا مقرّبا من رضى الرّبّ ورضى الشعب. ومع ذلك فقد ساهمت بالكتابة في موضوعات مفيدة، ولكن لم يساعده الفراغ ولا وجود المطابع على طبعها، وقد بقيت كلّها مسوّداتٍ في مكتبتي بالجزائر. "[1] ولقد تنوّعت كتاباته بين كتب ورسائلَ ورواياتٍ، وللأسف فإنّ جلّها لم ينشر، وهي كالآتي:

الكتب:

- بقايا فصيح العربيّة في اللّهجة العاميّة بالجزائر.
- النّقايات والنّفايات في لغة العرب.
- الضّمائر في العربيّة.
- التّسمية بالمصدر.
- الصّفات التي جاءت على وزن فعَل.
- نظام العربيّة في موازين كلماتها.
- الاطّراد والشّذوذ في العربيّة.
- ما أخلّت به كتب الأمثال من الأمثال السّائرة.
- شعب الإيمان.
- حكمة مشروعيّة الزّكاة في الإسلام.
- الطّرق الصّوفيّة.

الرّسائل:

- رسالة في الفرق بين لفظ المطّرد والكثير عند ابن مالك.
- رسالة في ترجيح أنّ الأصل في بناء الكلمات العربيّة ثلاثة أحرف لا اثنان.
- رسالة في مخارج الحروف وصفاتها بين العربيّة والفصيحة والعاميّة.

[1] محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج5، ص288.

- رسالة الضّب.

الرّوايات:

-رواية كاهنة الأوراس.

-رواية الثلاثة.

بالإضافة إلى مجموعة من المقالات التي كتبها في جرائد مختلفة، جمعها نجله أحمد طالب الإبراهيميّ في كتاب آثار البشير الإبراهيميّ المكوّن من خمسة أجزاء، نشرتها دار الغرب الإسلاميّ اللبنانيّة سنة 1997.

5 ــ د ــ فلسفته في الإصلاح من خلال عيون البصائر:

لا يستطيع قيادةَ أيّ عمل إصلاحيّ إلاّ من أولي الأمانة والكفاءة أسوة بالأنبياء والرّسل عليهم الصّلاة والسّلام. ومن هذا المنطلق فإنّ الإبراهيميّ المصلح لم يكتف بالتّربية والتّعليم اللّذين هما مهمّة لا يستهان بها، لكنّه أبان عن باعه الطويل واطّلاعه الواسع على كلّ ما يتعلّق بمشروع نهضة الأمّة، وكان يعتقد – بفضل نظرته الواسعة وثقافته الدّينيّة الخصبة – أنّ الثّالوث المتمثّل في الدّين واللّغة والوطن أساسُ هذه النّهضة. ومن ثمّ بنى فلسفته في مجالات مختلفة رأى أنّها متشابكة يتعلّق بعضها ببعض، ولا يتأتّى إصلاح مجال دون الآخر.

وقبل التّطرّق إلى هذه المجالات لا بدّ من التّعريف بكتاب عيون البصائر، فهو مجموعة مقالات الإبراهيميّ التي نشرت في جريدة البصائر لسان حال جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين في سلسلتها الثانية الممتدّة من سنة 1947 إلى سنة 1953 م، حيث جمعها ابنه أحمد طالب الإبراهيمي. وتتضمّن رؤيةَ الإبراهيميّ للكثير من قضايا الأمّة المصيريّة على الصّعيدين الدّاخليّ والخارجيّ، ومحاولتَه تقديمَ وعرضَ مشاكلِ المجتمعات العربيّة من خلال نقد الواقع المشترك بينها آنذاك. ولقد اعتمد في فلسفته الإصلاحيّة على مرتكزات لخّصها عبد الرّزّاق قسوم في مقدّمة الطّبعة الثّالثة لكتاب آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي في الرّمز القرآني، والفكر العقلاني، والعمق العرفاني، والإبداع البياني، والسّياق التّاريخاني. فقد "**دبّج الإمام الإبراهيميّ أروع المقالات، وأبدع التّحليلات، وخاض في صفحاتها أصدق الهجمات على الاستعمار وسياسته، وأعنف**

الحملات على الذين خانوا أمانة الإسلام والأوطان...في أسلوب بديع، وبيان رفيع، يذكّر بأزهى عصور اللّغة العربيّة..."[1]

- **الإصلاح السّياسيّ:**

لم يحترف الإبراهيميّ السّياسة – في الظّاهر– بمعناها الصّرف المتمثّل في الانخراط في تشكيل حزبيّ أو تنظيم سياسيّ، ولكنّ مقالاته في عيون البصائر لا تخلو من الطابع السّياسيّ الّذي كان يتداخل مع الواقع المعيش آنذاك. فنجده قد عالج كلّ ما كان يستجدّ من قضايا السّياسة في الدّاخل وفي الخارج، فكان يرى أنّ من واجبه – بصفته مصلحًا– الإسهامَ بآرائه والمشاركةَ في الحراك السّياسيّ بالوعظ والنّصح، **"لأنّ ديننا يعدّ السّياسة جزءا من العقيدة... ولأنّ السّياسة نوع من الجهاد، ونحن مجاهدون بالطبيعة، فنحن سياسيون بالطبيعة."[2]** فعلى الصّعيد الدّاخليّ، نجد أنّ الإبراهيميّ لم يترك قضيّة من القضايا السّياسيّة إلاّ وتطرّق إليها، ولا قانونا من القوانين القمعيّة إلاّ وكان له بالمرصاد، فكان دائمَ الصّدامِ مع الإدارة الفرنسيّة بالنّقد والهجوم. وعلى الصّعيد الخارجيّ، فلقد شغلت القضايا العربيّة المصيريّة الإبراهيميّ فكان لها نصيب من كتاباته، ولعلّ السّبب في ذلك احتكاكُه في شبابه بالمشرق العربيّ ونظرتُه إلى قضايا الأمّة بعين المصلح ذي البعد القوميّ. وتتمحور معظم المقالات السّياسيّة في عيون البصائر – فضلا عن المستجدّات– حول موضوعين رئيسيّين هما:

أوّلا: فصل الدّين عن الحكومة، حيث يطالب الشّيخ الإبراهيميّ في هذه المقالات بعدّة مطالب هي:

– رفع هيمنة الحكومة الفرنسية على المساجد وإرجاع الأوقاف الجزائرية إلى المسلمين.

ولقد عبّر عن هذا المطلب قائلا: **"... وإنّ تسليم الحكومة شيئا لموظّفيها لا يكون معناه البديهي إلاّ تسليم الحكومة لنفسها؛ ومن القواعد المقرّرة في الفقه، العبد وما ملك لسيّده، ولا يتمّ تحرير المساجد إلاّ على أيدي الأحرار... فلا نريد أن تبقى للحكومة يد ولا أصبع في تعليمنا العربيّ**

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، (1940–1952)، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1997، ص27.

[2] محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، (1952–1954)، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1997، ص261.

الدينيّ، ولا في شعائرنا الدّينيّة ولا في مساجدنا، ولا نريد إلاّ أن تكون الأمّة حرّة في دينها، مطلقة التّصرّف في مساجدها وأوقافها وشعائر دينهما."[1]

– تحرير الأئمة من التّبعيّة للإدارة المسيحية، حيث أصرّت الحكومة الفرنسيّة على تعيينِ الأئمّة وتشديدِ الرّقابة عليهم، وفصلِهم في حالة ما خاضوا في السّياسة أو رفضوا الانصياع إلى تعليماتهم المتدخّلة في شؤونهم، وفي هذا الصّدد يقول: "**...وواعجبًا لما تصنع هذه الحكومة ببعض الرّجال منّا، تعمد إلى الواحد منهم فتبقيه على سحنته. ولكنّها تفرغه من شحنته...تفرغه من معاني الإسلام، والغيرة عليه، والطّيرة له، والدّفاع عنه، والاعتزاز به، وتملؤه بمعان أخرى منها الإفك والزّور، ومنها الأنانيّة والغرور...وإنّ طلب الإمامة من ذلك الحاكم قريبة فوق الباطل، وعليه فالصّلاة وراء إمام معيّن من ذلك الحاكم باطلة؛ ومن ادّعى خلاف هذا فهو يكذب بالقرآن، كما هو كاذب على أبي حنيفة النّعمان."**[2]

– رفع القيود عن القضاء الإسلاميّ وعدم التدخّل في التّشريع، حيث كان مهدّدًا بالزّوال بعد أن عزف النّاس عن اللّجوء إليه، بسبب العراقيل والعقبات التي كانت الإدارة الفرنسيّة تضعها أمام المتخاصمين المسلمين، كإطالة الفصل في القضايا، ويقول في هذا الشّأن: "**إنّ للحكومة – بلا ريب – نيّةً مبيّتةً في إلغاء القضاء الإسلاميّ بالتّدريج، فهي تمهّد الأسباب لذلك وتهيّء من زمان بعيد، ولكنّها لا تريد أن يجيء ذلك الإلغاء مباشرة، ولا أن تقدم عليه في دفعة واحدة، وإنّما تعمل له بالحيلة والمطاولة حتّى يتمّ وكأنّه أمر طبيعيّ، لا يثير لغطًا ولا يحدث تشويشًا... إنّنا نريد لقضائنا حرمة ومكانة، ونريد لرجاله سمعة ومنزلة، ونغار عليهما، وندافع عنهما بحميّة وحماسة، ونطالب بإصلاح القضاء واستقلاله، ونرى أنّه لا عزّ لأمّة إلا بعزّة قضائها وقضاتها...**"[3]

– عدم تدخّل الحكومة الفرنسيّة في شؤون الشّعائر الدّينيّة كالصّوم والحجّ. إذ كانت تتحكّم في كل صغيرة وكبيرة في مواقيت الصّوم وإجراءات الحجّ المختلفة، مع تعمّدها إهانةَ المسلمين ممّا سبّب معاناتهم المستمرّة في كل مناسبة. يقول: "**وزاد الحمأة امتدادًا ما صحب حجّ هذه السّنة من**

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 90، 91.

[2] المصدر نفسه، ص 151 – 154.

[3] المصدر نفسه ، ص 128، 129.

فوضى في الإجراءات واختلاف بين الإدارات، فهذه تعطي وتلك تمنع، وهذه توسّع، وتلك تضيّق، وهذه تنقض ما أبرمته تلك، والحاجّ المسكين بين هذه الإدارات المختلفة التي كأنّها إمارات مستقلّة كالكرة تتقاذفها اللّجج، وتتلقّفها الصّوالجة..."[1]

ثانيا: التّعليم العربيّ والحكومة، وهو الموضوع الذي شغل بال الشّيخ كثيرا وعرّضه إلى التّضييق والمعاكسة، كونَ اللّغة العربيّة مصدرَ تهديدٍ لمآرب فرنسا في طمس الهويّة الجزائريّة. وقد عبّر عن هذه القضيّة قائلا: "**وقبل وبعد فإنّ هذه القضيّة التي نصفها اليوم شهادة قاطعة على ظلم الاستعمار، ونموذج من تعنّته ومصادرته للحقّ، وبيان واضح لطريقة من طرائقه في حرب الدّين والعلم، ووسيلة من وسائله في قتل معنويّات الشّعوب، وعنوان على مخازيه التي منها أن يعتبر الإسلام غريبا وهو في داره، والعربيّة أجنبيّة وهي في منبتها.**" [2]

ولقد فضح الشّيخ أسلوب الحكومة الفرنسيّة في تعليم الجزائريّين البرامجَ الفرنسيّة المفرّغة من المحتوى، فتعمّدت إنقاصَها من كلّ ما هو مفيدٌ ومهمّ، وقامت بزيادة العبء على التّلاميذ بتمديد ساعات الدّراسة لإلهائهم عن التّعليم العربيّ، لتكوّن جيلا ممسوخا يتّسم بأساس معرفيّ هشّ، وبعد حضاريّ مشروخ، جيلا لا دين له يصله بخالقه، ولا هوية له توثقه بماضيه وحاضره ومستقبله:

"... **ولا موجب لهذا إلا تفويت ميقات المدرسة على التلميذ، وليتهم يعمرون له تلك الساعة بنافع مفيد، لكنهم يعمرونها بلهو فارغ أو بعمل شاق... وبعد هذا كلّه – وأمثاله معه – تمن فرنسا على مسلمي الجزائر وتقول: إنها علمت، وما علمت، ولكنها قلمت...وما أغرب شأن الجزائريين مع الاستعمار الإفرنسي: فئة تدرس في جامعة، وملايين ترسف في جامعة، ويا بعد ما في الطرفين !**"[3]

وفي المستجدّات نورد هذه المقالة التي كتبها بمناسبة ذكرى أحداث الثامن ماي 1945 ميلادي، التي مثّلت نقطة حاسمة في تاريخ النّضال من أجل الحريّة والاستقلال، إذ تيقّن الشّعب الجزائريّ عدمَ جدوى السّياسة وحدها لاسترجاع الحرّيّة المسلوبة. ونجد الشّيخ يؤرّخ لهذا اليوم الذي

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر ، ص 248، 249.

[2] المصدر نفسه ، ص 241.

[3] المصدر نفسه، ص 249.

على الرّغم من بشاعة ما اقترفته أيدي المحتلّ الغاشم إلاّ أنّ هذا الإجرام والهمجيّة قد تعوّد عليهما الشّعب الجزائريّ في سائر الأيّام منذ أمد بعيد:"**يوم ليس بالغريب عن (رزنامة) الاستعمار الإفرنسي بهذا الوطن، فكم له من أيّام مثله، ولكنّ الغريب فيه أن يُجعل –عن قصد– ختاما لكتاب الحرب، ممّن أنهكتهم الحرب على من قاسمهم لأواءَها، وأعانهم على إحراز النّصر فيها..**

يا يوم! ... لك في نفوسنا السّمة التي لا تمحى، والذّكرى التي لا تنسى، فكن من أيّة سنة شئت فأنت يوم 8 ماي وكفى. وكلّ ما لك علينا من دين أن نحييَ ذكراك؛ وكل ما علينا لك من واجب أن ندوّن تاريخك في الطّروس، لئلاّ يمسحه النّسيان من النفوس."[1]

وفي الصّعيد الخارجيّ، خاض الشّيخ الإبراهيمي في قضايا الوطن العربيّ والإسلاميّ مشرقِه ومغربِه، فلم يدعْ مناسبة ولا قضيّة إلاّ وعبّر عن رأيه فيها، فكان بحقّ ضميرَ الأمّة الحيَّ، وصوتَها الجهْوَرِيَّ المسموعَ. ويمكن حصر مواضيع هذه المقالات في ثلاثة محاور هي:

جمعيّة العلماء والمغرب العربيّ:

ونذكر على سبيل المثال ما كتب الشّيخ عن مناسبة نفي الملك محمد الخامس:

"**... وحلّت المحنة بالمغرب الأقصى، وجاءت فرنسا بالخاطئة، فأهانت ملكا، وهدّدت عرشا، وأذلّت شعبا، وروّعت سربا، وانتهكت حرمات، واعتقلت أحرارا، وكبتت أصواتا وحطّت أعلياء من مراتبهم، ونصبت أبنياء في غير مناصبهم، واستعانت على العقلاء بالسّفهاء، وسلّطت الأخ على أخيه، والرّعيّة الآمنة على ملكها الأمين؛ وأشعلت النار بنا لتطفئها بنا... فلا يكون ضرامها في الإشعال والإطفاء إلاّ أجسامنا ودماؤنا.**"[2] فنراه يعبّر عن غضبه الشّديد من هذه الفعلة المشينة، التي تنمّ عن جبن الاحتلال الفرنسيّ. وهذه الوقفةُ من الإمام تدلّ على متانة اللّحمة بين الأشقّاء في المغرب العربيّ.

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 369 – 372.

[2] المصدر نفسه، ص 472.

جمعيّة العلماء وفلسطين:

أحدثت قضيّة فلسطين قبل وأثناء وبعد سقوطها في أيدي اليهود صدمة قويّة اهتزّت لها الأمّة الإسلاميّة، فكان الشّيخ – كغيره من المصلحين الغيورين على القدس– ممّن يُشهد لهم بالسّبق والرّيادة في كشف خيوط المؤامرة والخذلان والدّعوة إلى الانتفاضة، فلم يبخل في ذلك بقلمه ولسانه. ولقد كتب عن نكبة فقدان فلسطين عدّة مقالات منها، (وصف قرار تقسيمها)، (العرب واليهود في الميزان عند الأقوياء)، (ماذا نريد لها وماذا يريدون؟)، (واجبات فلسطين على العرب)، و(تصوير الفاجعة)، التي نقتطف منها ما يلي: "**يا فلسطين ! إنّ في قلب كلّ مسلم جزائريّ من قضيّتك جروحًا داميةً، وفي جفن كلّ مسلم جزائريّ من محنتك عبراتٍ هاميةً، وعلى لسان كلّ مسلم جزائريّ في حقّك كلمةً متردّدةً هي: فلسطين قطعة من وطني الإسلاميّ الكبير قبل أن تكون قطعة من وطني العربيّ الصّغير؛ وفي عنق كل مسلم جزائريّ لك – يا فلسطين – حقّ واجب الأداء، وذمام متأكّد الرّعاية، فإنْ فرّط في جنبك، أو أضاع بعض حقّك، فما الذّنب ذنبه، وإنّما هو ذنب الاستعمار الذي يحول بين المرء وأخيه، والمرء وداره، والمسلم وقبلته ... إنّ الصّهيونيّة وأنصارَها مصمّمون، فقابلوا التّصميم بتصميم أقوى منه وقابلوا الاتّحاد باتّحاد أمتن منه.**

وكونوا حائطا لا صدع فيه وصفًا لا يرقّع بالكسالى"[1]

ويا لها من حسرة تصعّد حرقتها من صميم فؤاد الكاتب على حال فلسطين التي تعاني الأمرّين، خذلان العرب لها، واستقواء اليهود عليها. وهذا الحرص منه دليل على أهمّيّة القضيّة الفلسطينيّة لدى كلّ جزائريّ.

جمعيّة العلماء والشّرق والإسلام: كتب الشّيخ الإبراهيمي في عيون البصائر عن الشّرق وعن مصرَ خصوصًا، لما تتمتّع به عن سائر الدّول العربيّة من ثقلٍ استراتيجيّ في المنطقة كونها سبقت غيرها في النّهضة والإصلاح. ومن هذه المقالات (محنة مصر محنتنا)، (يا مصر)، (أثر الأزهر في النّهضة المصريّة)، (من نفحات الشّرق). ونذكر على سبيل المثال كلامه عن مصر: "**الآن يا مصر...الآن وقعت على مفتاح القضيّة، وقد أقدمت فصمّمي، واحذري النّكول والتّراجع فإنّهما**

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص491 – 495.

مضيّعان للفرصة؛ اجعلي من أرضك صعيدًا واحدًا، واجمعي أبناءَك كلَّهم فيه صفًّا واحدًا، بقلب رجل واحدٍ، على الحفاظ والنّجدة والاستماتة في حقّك والموت في سبيله، واجعلي من وجهيك وجها واحدا مستبين القسمات، واضح السّتن يراه عدوّك فلا يرى إلاّ الحقّ مشرقا والغضبة بارزة العنوان."[1] ويظهر الكاتب في هذا المقال ناصحا المصريّين بالاتّحاد والوقوف ضدّ ما يُكَاد لمصرَ في ذلك الظرف العصيب حين مرّت بأزمة سياسيّة مع بريطانيا والتي مهّدت لثورة يوليو 1952 م.

- **الإصلاح الاجتماعي:**

جسّدت المقالة الاجتماعيّة عند البشير الإبراهيميّ جسرًا مهمّا لتمرير رسالاته الإصلاحيّة، كونه قد ألمّ بكل خصوصيّات الشّعب الجزائريّ بمختلف فئاته وطبقاته وأعماره، وهذا ما يخبرنا به بنفسه: "**فأزعم أنّني جرّبت ودرست، وأنّني قرأت هذه الأمّة وفهمتها كما أقرأ الكتاب وأفهمه، وما هذا ببعيد ولا كثير على من خدم أمّة ولابسها عشرات السّنين معلّما مدرّسا واعظا خطيبا، محاضرا ينتزع مواضيع محاضراته من وجوه الجمهور قبل أعمالهم...**"[2]

هكذا كانت نظرة الإبراهيميّ المصلح الاجتماعيّ عميقةً بعيدةً عن السّطحيّة، شاملةً تمسّ قضايا المجتمع الجزائريّ مثل الزّواج، والطّلاق، والجهل، والتقاليد الفاسدة المنتشرة في أوساطه. والملاحظ في مقالات الإبراهيميّ الاجتماعيّة عرضَ المشكلةِ منهجيّاً وتسلسلَ الأفكار منطقيًّا، ثمّ اقتراحَ الحلول المناسبة من وحي الدّين الإسلاميّ. فمثلاً حينما عالج مشكلة المغالاة في المهور في مقاله الموسوم (الصّداق ... وهل له حدّ؟)، فإنّه استهلّه بمقدّمة أبرز فيها سبب تفشّي ظاهرة التّعسير على الشّباب في قضيّة المهور: "**من أمراضنا الاجتماعيّة التي تنشر في أوساطنا الفساد والفتنة، وتعجّل بها إلى الدّمار والفناء – عادة – المغالاة في المهور، وما يقابلها من المغالاة في الشورة؛ وقد أفضت بنا العوائد السيّئة فيها إلى سلوك سبيل منحرف عمّا تقتضيه الحكمة ... فأصبح الفقراء يتطاولون إلى مراتب الأغنياء ويقلّدونهم، تشبّها بهم ومجاراة لهم، والضّعيف إذا جارى القويّ انبتّ فهلك.**"[3] ثمّ أصّل لهذه القضيّة بتعريف الصّداق أو المهر، وأعطى الحكمة من

---

[1] محمّد البشير الإبراهيميّ، عيون البصائر، ص 558.
[2] المصدر نفسه، ص 224.
[3] المصدر نفسه، ص 359.

مشروعيّته على أساس أنّه ليس عقدا من عقود البيوع وإنّما هو" **جبر لما نقص المرأة من الميراث، فمن عدل الله أن نقص لها في ناحية، وزادها في ناحية، وكرّمها فأعفاها من تكاليف النّفقة في أطوارها الثّلاثة، بنتا وزوجا وأمّا...**"[1] ثمّ بيّن أن هذه الظّاهرة ليست جديدة بل عرفها المسلمون الأوائل فلم يضعوا لها حدّا بسبب عدم وجود نصّ في القرآن والسّنة ينهى عن ذلك، واستشهد بقصّة عمر مع المرأة التي عارضته حينما نهى عن المغالاة، فغيّر حكمه. وفي الأخير يفصل الشّيخ في القضيّة بحنكة المصلح الاجتماعيّ، والأب الذي ينصح أبناءَه، دون أن يلزمهم بحكم شرعيّ: "**والخلاصة أنّ الشريعة المطهّرة الحكيمة لم تحدّد في الصّداق حدّا أدنى، ولا حدّا أعلى، لأنّ النّاس طبقات، فقراء وأغنياء وبين ذلك؛ فإذا انساقوا بالفطرة القويمة، والشّريعة الحكيمة، وجروا على منازلهم في المجتمع، صلح أمرهم، واستقامت لهم الحياة؛ وإذا زاغوا عن الفطرة؛ وحادوا عن الشّريعة، وخرجت كل طبقة عن مداها المقدّر لها، هلكوا وشقوا... فعلى المسلمين أن يذلّلوا هذه العقبات الواقعة في طريق زواج بناتهم وأبنائهم... وأن ييسّروا ولا يعسّروا، وأن يعتبروا في الزّواج حسن الأخلاق، لا وفرة الصّداق، وفي الزّوجة الدّين المتين، لا الجهاز الثّمين.**"[2]

- **الإصلاح الدّينيّ:**

كانت قضيّة تدخّل الإدارة الفرنسيّة في شؤون الدّين الإسلاميّ، شرائع وعبادات، الشّغلَ الشّاغل الذي تفرّغ له الإبراهيميّ من أجل إفحام فرنسا بأنّ هذا العمل المنافي لمبادئها التي عليها تأسّست الدّولة الفرنسيّة باطلٌ. فصال وجال من أجل تحرير الدّين من سيطرة الإدارة "**التي كانت تعتبر إشرافها على الدّين الإسلاميّ (مسألة جوهريّة) خرقت لأجلها دستورها الذي ينصّ على أنّ فرنسا دولة لائكيّة.**"[3] ولمّا كان لفرنسا عملاؤها الذين بهم تنفّذ مخطّطاتها، "**وما أدواتها إلاّ أولئك الأئمّة الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدّنيا، وأعطوا الدّنيّة في دينهم... وهو ما أدّى بالإمام الإبراهيميّ أن يفتي بأنّ الصّلاة وراءهم باطلة.**"[4]

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 360، 361.

[2] المصدر نفسه ، ص 363، 364.

[3] محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيميّ، ج2، ص28.

[4] المصدر نفسه، ص 29.

فحينما يتحدّث – مثلا– عن تسيير الحجّ، نجد الإبراهيميّ يكشف أسلوبَ الإدارة المخزي، ورأيَها فيه، "**فالحج في نظر الاستعمار أداة مهيّأة لاستعباد الأمم الإسلاميّة التي أوقعها القدر في قبضته، يصرفهم بها في مصالحه، ويستخدمهم بسببها في أغراضه، ويسخّرهم بها كما تشاء أهواؤه، لا كما يشاء الإسلام... ويجعل من خشيته من اتّصال المسلمين وتعارفهم مبرّرا للتّضييق عليهم.**"[1] وحينما يهاجم الأئمّة المتعاونين مع سلطة الاحتلال، يفضحهم بأنّهم "**يصلّون الرّكعة لمائة الفرنك، لا للواجب الدّينيّ، وأنّهم يقرؤون الحزب (للبايليك) لا للتعبّد بالتّلاوة.**"[2]

ولقد اهتمّ الإبراهيميّ –زيادة عن مقارعته للاحتلال– بكلّ ما يشمله الدّين الإسلاميّ من عقيدة وعبادات وأخلاق ومعاملات، واستهدف بذلك إصلاح كلّ ما أُفسد ، فحارب العقائد الشركية والبدع والرّذائل أوّلا، ثمّ دعا إلى العودة إلى الإسلام الصّحيح.

ومن المقالات التي تدخل في إطار الشّعائر التّعبّديّة التي يحتاج المسلم إلى معرفة معناها والحكمة منها وكيفيّة استغلالها لتجديد علاقة الفرد مع ربّه، مقال (دروس الوعظ في رمضان)، (عيد الأضحى)، (أثر الصّوم في النّفوس)، (معنى العيد) ، (حكمة الصّوم في الإسلام).

ومن مقالاته التي يناجي فيها العيد ويفرغ أشجانه، متذكّرا ماضي الأمّة المجيد مقالة سمّاها (من وحي العيد): "**يا عيد: كنّا نلتقي فيك على ملك اتطدت أركانه، وعلى عزّة تمكّنت أسبابها، وعلى حياة تجمع الشّرف والتّرف، وتأخذ كلّ طريفة بطرف، وعلى جدّ لا ينزل الهزل بساحته، واطمئنان لا يلمّ النّصب براحة فأصبحنا نلتقي فيك على الآلام والشّجون، فإن أنساناهما التعوّد فعلى اللّهو والمجون؛ أصبحنا نلتقي فيك على عبوديّة لغير الله، أقررناها في أنفسنا فأصبحت عقيدة كالعبوديّة لله.**"[3]

هذا بعض ما أبدع فيه قلم الإبراهيميّ وعبقريته في شؤون وقضايا الإصلاح المختلفة في هذا الكتاب القيّم، الذي يعدّ وعاء لمقالاته التي نشرها في جريدة البصائر.

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر ، ص 57.

[2] المصدر نفسه ، ص 117.

[3] المصدر نفسه، ص544، 545.

6- الخصائص العامّة للكتابة عند الإبراهيميّ:

للإبراهيميّ خصائصُ ميّزت كتاباته، استطاع من خلالها بلورةَ أفكاره وفلسفته، ومن ثمّ إيصالَ مضمونها بأنجع الوسائل وأبلغها، منها:

أ- **السّخرية:** إنّ السّخرية في الأدب باعتبارها أسلوبا يوظّفه الكاتب لهدم واقع يراه مريرا يجب نقده ومن ثمّ بناء واقع بديل يراه أصلح ليست الغاية منها هو إضحاك النّاس من أجل الضّحك، وإنّما هي وسيلة من وسائل التّغيير بأسلوب لاذع لا يستسيغه المسخور منه. "**والحق أنّ السّخرية لا تختلف كثيرا عن العنف، لأنّ استخدام سلاح السّخرية في الأدب ضرب من العنف. فإنّما العنف وقص الخصم بقذائف من الكلام، وقصم ظهره بسهام من القول؛ في حين أنّ السّخرية تهكّم معنويّ شديد اللّذع، ثقيل الوطء، عنيف الوقع.**"[1] ولقد برع الإبراهيميّ في هذا الأسلوب في مقالاته كونَه ذا شخصيّة قويّة تجيش بعواطف الغيرة على مقوّمات الأمّة، وتفيض ببغض الاحتلال وعملائه الدّائرين في فلكه.

- فنراه في كثير من مقالاته في كتاب عيون البصائر يوظّف السّخرية بعدّة صور تتفاوت درجات تأثيرها على القارئ الذي يدرك حدّة القسوة حسب السّياق:

1- فأدنى درجات السّخرية تهكّم الكاتبِ الذي يجعل القارئ يبتسم على الأقلّ، ومن أمثلة ذلك كلامُه عن الإدارة الجزائريّة التي وظّفت المفتي العاصميّ المدّعي انتسابَه إلى المذهب الحنفيّ، في حين أنّ أغلبيّة الشّعب الجزائريّ مالكيّ المذهب: "**وفي تلك الإدارة نفسها معمل لصنع الرّجال على أشكال ومقادير مخصوصة، لا يشترط في المادة الخام إلا أن تكون ذات قابليّة واستعداد وطوع وانقياد...وفي هذا المعمل صنع العاصميّ وامتحن، فكشف الامتحان عن استيفاء الخصائص والصّلاحيّة للاستعمال...**"[2]

2- وأوسط درجات السّخرية التهكّم الذي يدفع القارئ إلى الضّحك، ومثل ذلك مقال حول محمّد السّعيد الزاهري أحد أعضاء جمعية العلماء الذي انفصل عنها، ثمّ حاربها، ففي هذا المقال يردّ

---

[1] عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص384.

[2] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص72، 73.

الإبراهيميّ الصّاع صاعين على ما كان الزّاهريّ يكتبه عن جمعيّة العلماء من سبّ وشتم: "**أتذكر –يا شيخ– ماضيك الصّحافيّ، وصحائفك الماضية التي تهاوت في مثل عمر الزّهر، من (الجزائر)، إلى (البرق)، إلى الوفاق، وقد ماتت كلّها بالهزال والتّسمّم، ولو كانت ممّا ينفع النّاس لمكثت في الأرض.**"[1]

3– وأعلى درجات السّخرية الشتم بأقذع الكلام الذي يدلّ على جزم الكاتب في صدق دعواه على الشّخص المعنيّ بالسّخرية. ومثل ذلك ما وصف به الإبراهيميّ الشّيخ عبد الحيّ الكتّانيّ الذي والى السّلطات الفرنسيّة ببلاده المغرب إلى حدّ العمالة، "**وإنّ اسم صاحبنا لم يصدق فيه إلاّ جزؤه الأوّل؛ فهو عبد لعدّة أشياء جاءت بها الآثار وجرت على ألسنة النّاس، ولكنْ أملكها به الاستعمار؛ أمّا جزؤه الثّاني فليس هو من أسماء الله الحسنى ... وإنّما هو بمعنى القبيلة، كما يقال كاهن الحيّ وعرّاف الحيّ وعيْر الحيّ ...**"[2] فالملاحظ أنّ الإبراهيمي الذي بدأ سخريته دون مقدمات بعنوان المقال (عبد الحيّ الكتّاني ما هو وما شأنه؟) إذ استعمل أداة الاستفهام (ما) لغير العاقل، بدلا من (من هو؟)، يعرّض بهذه الشّخصيّة المثيرة للجدل، فيذمّه من خلال اسمه رغم أنه من خير الأسماء ويقسمه إلى جزأين قبيحين في اللّغة أولهما (عبد) بمعنى العبوديّة والذلّ وطلب الدنيا، وثانيهما (الحيّ) ويقصد به المكان، فصار هذا الاسم مدعاة للسّخرية، فهو عند الكاتب عير الحيّ والعير هو الحمار الذي يحمل الأسفار ويُساق بالضّرب.

–ونراه يستعمل من أجل التنويع في السّخرية أدوات ووسائل منها:

1– المفارقات وهي مقارنة بين أمرين متباينين يجمع بينهما قاسم مشترك يبعث على السّخرية. وقد وظّف الإبراهيمي هذه الوسيلة للسّخرية من المفتي العميل: "**إنّ وجود وظيفة مفت حنفيّ في الجزائر تزوير على المذهب الحنفيّ، وأين العاصميّ ومن جرى مجراه من فقه أبي حنيفة ودقائقه وقياسه، إنّ نسبة الحنفيّ تشترك في بني حنيفة وأبي حنيفة، فلينظر العاصميّ أشبه النّسبتين به. وبنو حنيفة هم قوم مسيلمة الذين آوَوْه ونصروه، ومن غرائب الشبه أنّ مسيلمة الحنفي كان**

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي،عيون البصائر ، ص643.

[2] المصدر نفسه ، ص616.

تشويشا على النبوّة الحقة، وأنّ المفتي الحنفي كان تشويشا على مطالب المسلمين الحقة."[1] فالقاسم المشترك بين المفتي الحنفي ومسيلمة الكذّاب الحنفي هو لفظ الحنيفة وخيانتهم للإسلام والمسلمين.

2- استعمال كلمات تثير السّخرية بمجرّد قراءتها. ومن ذلك قوله في وصف تمسّك عمّال العمالات(موظفو الإدارة السامون) بمراكزهم في سلطة تعيين رجال الدين وعزلهم:"**فهم يخشون أن تفلت منهم؛ فهم الذين يولّون رجال الدّين ويعزلون، فكيف عن هذه العروش ينزلون؟ وكيف لا يعذرون إذا جاحشوا عنها إلى آخر رمق؟**"[2] فلفظ جاحشوا يدلّ على التدافع والترافس مثل الحمير، وأيّ سخرية أذلّ من هذه.

3- التلاعب بالحروف لأداء معان مختلفة، ومثل ذلك ما جاء نقده اللاذع للدستور الجديد الذي وفد من فرنسا وأجبرت الحكومة الجزائرية المسلمين على العمل به رغم أنّه مجحف لهم: "**وقالوا إنّ فرنسا تغضب الإسلام، فأقيمي الدّليل على أنّ المسلمين راضون، وشدّدي اللاّم من صفتهم فإذا هم«مسلّمون»** ."[3] ومكمن السّخرية هنا هو فضح الإبراهيمي لهذا الزّعم، واللاّم المشدّدة غيّرت معنى المسلم من خاضع لله وحده إلى خاضع لكل من له سلطة عليه حتى وإن كان كافرا محتلاً.

وفي مثال آخر تحدّث عن تشجيع الحكومة الجزائرية مشاركة المرأة في الانتخاب، بدعوى المساواة مع الرّجال، مع إهمال حقوقها الأخرى كالرعاية والعلاج والتعليم: "**المرأة الجزائرية تنتحب، والحكومة الجزائرية تريد لها أن تنتخب... والفرق بسيط، مادام الفارق نقطة... وقاتل الله هذه الخاء، فما أعسرها في المخرج . وما أسعد من لا ينطق بالخاء.**" [4] ونلاحظ أن الكاتب يهوّل لنا حال المرأة الجزائريّة التي تعيش الحرمان من كلّ شيء، مع استعمال حرف الخاء الذي يرمز إلى فرنسا التي يزدري منها.

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص73.

[2] المصدر نفسه، ص101.

[3] المصدر نفسه، ص100.

[4] المصدر نفسه، ص127.

4- استعمال الأضداد، ومن ذلك خطابه لرئيس الجمهوريّة الفرنسيّة عندما زار الجزائر للوقوف على إنجازات فرنسا المزعومة:"**إنّكم أقمتم في الجزائر في عهدها الأخير عامين، وأحطتم رؤية وعلما بما يجري فيها. وإنّها باقية حيث تركتموها، ما تقدّمت إلاّ في التأخّر، وما ترقت إلاّ في الانحطاط ...فالتمسوها في جدب العقول لا في خصب الأرض، وفي فوضى الحياة، لا في نظام المواكب، وفي بؤس البادية لا في نعيم المدينة.**"[1] وغرض السّخرية واضح من خلال استعمال هذه المتّضادّات التي تعرّي زيف التّقارير التي تصل إلى سلطات الاحتلال في فرنسا حول واقع المجتمع الجزائريّ.

5- استعمال الاستفهام لغرض السّخرية، مثل قوله مخاطبا الأئمّة الموظّفين العاملين تحت إمرة الاحتلال والمتزلّفين له: "**أنصفونا ولو مرّة واحدة، أيكون شفيعا للمسلمين عند ربّهم من يصلّي (للبايليك) ويقرأ الحزب (للبايليك) ويتردد على أبواب الحكّام لغير حاجة؟**"[2]

6- إيراد مصطلحات لغويّة نحويّة أو صرفيّة تؤدّي معناها في سياق العبارة، مع ما تحمله من أسلوب تهكّميّ:

ومن أمثلة ذلك، تعرّضه إلى سياسة الاحتلال في طمس العربيّة ومحاربتها ومواجهة جمعيّة العلماء لهذه السّياسة: "**رفعنا منارها في وطن لم يُبقِ الاستعمار من عروبته إلاّ (اسم الجنس)، يضربه مثلاً للدّناءة والخسّة وللجهل والانحطاط، ولم يُبقِ من عربيّته إلا (اسم الفعل) يجعله رمزا للبذاءة والسّباب والشّتم.**[3] والمراد باسم الجنس هنا (العرب) حيث اعتاد الفرنسيّون على استعمال هذه الكلمة للسّخرية من المسلمين بعنصريّة، مثل(! sal arabe بمعنى أيها العربيّ الوسخ !)، أمّا المراد باسم الفعل، فالمعروف أنّه في اللّغة العربيّة قليل الاستعمال مقارنة بالفاعل والمبتدأ والأسماء والمصادر التي تقبل الاشتقاق، فتعبّر عن الحركة والتّغيير، بينما اسم الفعل جامد.

ب - الأسلوب القصصيّ:

إنّ معظم القضايا التي عالجها الإبراهيميّ تتحدّث عن قصص عاشها في الواقع المرير،

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص81.

[2] المصدر نفسه، ص205.

[3] المصدر نفسه، ص37.

كقصّة الاحتلال، وقصّة جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، وقصّة التعليم العربيّ، وقصّة فصل الدّين عن الحكومة، وقصّة المفتي العاصميّ... و كلّ ما كتبه يحمل بين طيّاته أسلوب السّرد القصصيّ، من وصف الشّخصيات، وحكي الأحداث، وعرض العقدة، واقتراح حلول لها، بأسلوب مشوّق، ولكنْ مع كلّ هذا فإنّ الإبراهيمي "**لم يستخدم القصّة على نحو ما يستخدمها أصحابها اليوم...لأنّ هناك تناقضات أساسيّة بين عقليّة الإبراهيمي وبين (عقليّة القصّة) إن صحّ هذا التعبير.. فالإبراهيميّ متأثّر أشدّ التّأثّر بثقافته الإسلاميّة، وأسلوبه وليد هذه الثّقافة..والثّقافة الإسلاميّة –في هذا النّحو– لا تقوم على التّخيّل كما تقوم القصّة، ولا على التفاصيل تخلقها وتتوسّع في أطراف منها كما تقوم القصّة..**"[1]

ومن هنا نرى أنّ ما كتبه الإبراهيميّ ليس قصصا بل مقالات، إن امتزجت بروح القصّة –بسبب ثقافته العربيّة المستمدّة من التُّراث– فهي بعيدة عن خصائصها، إذ "**يؤمن بالوضوح بأكثر مما يلجأ إلى التلويح والرمز، ويتحدّث عن كلّ لا عن شريحة، وعن أمّة لا عن فرد، وعن أفكار ومقوّمات لا عن مشاعر، وينهض على الحقيقة لا عن التّخيّل.**"[2]

ففي مقالة (أفي كل قرية حاكم بأمره؟) تظهر روح القصة واضحة في سرده لمشكل الاستبداد المحلّي الذي يمارسه العمّال (العملاء)، الذين عيّنتهم الإدارة الفرنسية مسؤولين إداريين عن هذه القرى. وفي العنوان إشارة للخليفة الفاطميّ الحاكم بأمر الله الذي عُرف بالاستبداد والشدّة.

ففي البداية قال: "**كأنّ في القطر الجزائريّ حكوماتٍ متعدّدةً لا حكومةً واحدةً. بل كأن كلّ قرية فيها متصرّف بسيط حكومةٌ مستبدّةٌ ترجع في النّقض والإبرام إلى رأي المتصرّف لا إلى القانون العام...**"[3]

ثمّ وصف هذا الاستبداد من العمّال بالشّراسة، حتّى إنّه أشدّ من الحكومة نفسها، "**بل يرجعون إلى آرائهم الفرديّة وطبائعهم الخاصّة، لأنّها هي التي تطفئ الغيظ وتطفئ نار الحقد.**"[4]

---

[1] شكري فيصل، قضايا الفكر في آثار الإبراهيمي، مجلّة الثقافة، دار الأمّة، ع87، 1985، ص211.
[2] المرجع نفسه، ص211، 212.
[3] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص375.
[4] المصدر نفسه، ص 375.

ثمّ استرسل في حديثه عن مظاهر هذا الاستبداد في مناطقَ شتّى من الوطن، حيث مسّت المعلّمين والمدارس والمساجد، فيورد أمثلة بأسلوب الحكي، قائلا: "**في العام الماضي عطّل متصرّف خنشلة مدرسة (قاييس) بأمره الخاص وإرادته...وعطّل حاكم مايو مدرسة (بني منصور)، ونفى معلّمها من دائرته، واعتدى نصف شيخ قرية (إيغيل علي) على حرمة المسجد فاقتحمه بالسّلاح... وعطّل حاكم (فج مزالة) مدرسة (الرّبع) من دوّار (راس فرجيوة)...**"[1]

ثمّ تحدّث عن بلدة عنابة، وما يعانيه سكانها المسلمون من اضطهاد وضيم، وما تعانيه جمعيّة العلماء من محاربة لمنتسبيها، وترصّد لحركاتهم وسكناتهم، فمثلا "**منذ ثلاثة أشهر ذهب وفد من جمعيّة العلماء مركّب من الشّيخين محمّد الشبوكي وكامل الحناشي إلى عنّابة، لتفقّد الحركة الإصلاحيّة بها، فكان البوليس أتبع لهما من ظلّهما من الدّقيقة التي وصلا فيها، وما أقاما فيها ليلة حتّى دعيا إلى الكوميسارية وحبسا فيها أربع ساعات ونصفا وطرحت عليهما أسئلة غير معقولة ولا معتادة على صورة تشبه بحث المجرمين...**" [2]

وواصل الإبراهيميّ سرد الأحداث والحقائق، بذكر قصص أخرى مشابهة للأولى، حدثت للعديد من الشّيوخ كالشيخ فرحات العابد، والشّيخ أحمد رضا حوحو، كدليل على أنّ الحاكم العنّابي تعمّد التضييق عليهم، وكأنّ عنّابة قطعة معزولة عن القطر الجزائريّ ولا تخضع للقانون.

وأمام هذه الحواجز والعراقيل فالإبراهيميّ يؤكّد رفضه القاطع للاستسلام والخضوع لهذه الممارسات التسلّطيّة في ختام مقاله، موجّها كلامه لهؤلاء العملاء :"**أمّا نحن فنقول: إنّنا مسؤولون عن ديننا ولغتنا وعن نشرهما. فإذا أصبحت عنّابة جهنّم فإنّنا سندخل لأجلهما جهنّم.**"[3] وأيّ موقف أشجع من هذا الموقف الذي لا يصدر إلاّ من الأحرار الشّرفاء.

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 376.

[2] المصدر نفسه، ص 377.

[3] المصدر نفسه، ص378.

الفصل الثّاني:

التّشكيل اللّغويّ في مقالات عيون البصائر.

أ-نظام المفردات في مقالات عيون البصائر:

أ-1-التّرادف.

أ-2- الاشتقاق.

أ-3-الغريب.

أ-4-الدّخيل.

ب-نظام التّراكيب في عيون البصائر:

ب-1-التّقديم والتّأخير.

ب-2- الاقتباس.

ب-3- القصر.

ب-4- الإيجاز والإطناب.

ب-5- الخبر والإنشاء.

إنّ اللّغة العربيّة كباقي اللّغات قد حافظت على وجودها بسبب تميّزها بخصائص ساعدتها على البقاء. ولمّا كان التطوّر أهمّ عامل على ذلك، فإنّها على مرّ العصور تبادلت التّأثير مع جاراتها بشتّى الطّرق، فأثّرت وتأثّرت.

ينتمي الشّيخ الإبراهيميّ إلى مدرسة الأدب المحافظة، وهو زعيمها في الجزائر في وقت كانت فيه اللّغة العربيّة تواجه تحدّيات البقاء تحت نِير الاحتلال. وكان لتكوينه التعليميّ الأثرُ في ميوله إلى موروث الأجداد في الأدب العربيّ، "**فقد كانت ثقافته العربية العميقة، وحفظه الموفور للمقامات والخطب والأشعار وشوارد الأمثال ونوادر اللّغة أهّلته لهذه المنزلة، وجعلت منه خير ممثّل لهذه المدرسة في الجزائر.**"[1]

فحين نقرأ مقالات الإبراهيميّ نكتشف لغةً قويّة عميقة الدّلالة، ذاتَ ألفاظٍ دقيقة، تراعي الموضوع المتناول. فنجده يكتب في المقال الاجتماعيّ بلغة تختلف عن لغة المقال السّياسيّ مثلًا، ويخوض في مواضيعَ متشعّبةٍ بلغة راقية تجعل القارئ يحسّ بأنّه أمام موسوعة أدبيّة من طراز رفيع يرتقي إلى مصافّ كبار الأدباء والإصلاحيين. ونستشفّ في مقالات الإبراهيميّ "**جزالة الألفاظ وقوّتها، وتناسق العبارات وتجانسها وتآلفها، وكرم المعاني وعلوّها وتألّقها، وأصالة اللّغة وفصاحتها وفخامتها.**"[2] فهي لا تكاد تخلو من الألفاظ الغريبة الصّعبة الفهم، ليس من أجل الإشكال على القارئ بل لزيادة المعنى قوّة، والمبنى أناقة. بالإضافة إلى الإكثار من المترادفات، والأسماء المشتقّة، والكلمات الدّخيلة.

أ-نظام المفردات في مقالات عيون البصائر:

أ-1- التّرادف:

يرى علماء اللّغة الترادفَ "**من دلائل فضل العربيّة تفخر به على غيرها، وخصيصة من خصائصها الشريفة اللّطيفة، ودليلا على سعة اللّغة وغناها.**"[3] وقد نجد في العربيّة ألفاظًا عديدة متقاربة المعنى، ولكنّها لم تكن كذلك عندما استخدمها الأقدمون، إذ "**يرى علماء الدّلالة أن الألفاظ**

---

[1] عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص328.

[2] عبد الملك بومنجل، النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، ص100.

[3] حاكم ملك الزّيادي، التّرادف في اللّغة، دار الحرّيّة للطّباعة، بغداد، 1980، ص280.

تتطوّر فتكتسب من المعاني أشباها جديدة لم تكن من قبل، وأنّ اللّفظة تحيا حياة متجدّدة، وهي أبدًا في تغيّر في دلالتها وفي طرائق استعمالها."[1]

ولقد أكثر الإبراهيميّ من استعمال المترادفات لا لغرض التّكرار، بل من أجل "**الحرص الشّديد على تدعيم اللّفظة –على الرّغم من قوّتها الذّاتيّة– وذلك بالاستعانة بألفاظ تشكّل أبعادًا رئيسية للمعنى الأساسيّ...**"[2] ومن أمثلته في استعمال المترادفات التي ترد في العبارة نفسها:

عنوان المقال	العبارة	صفحة
استهلال	ألا إنّ فرسان الكلام والأقلام، كفرسان **النّزال** و**العراك**...	17
التّعليم العربيّ	وأملتها أفكار خالية من **الحكمة** و**السّداد**... يكون **واضح** الدّلالة، **بيّن** المقاصد... ...لا **إبهام** فيه ولا **غموض**. وكلّ ما كتب في عهد الاحتلال من **عهود**، وكلّ ما بذل بعد ذلك من **وعود**...	24 25 25 28
جمعيّة العلماء: أعمالها ومواقفها	...لا يتطرّق إليها **التّبديل** و**التغيير**. ...لم تزل في **نزاع** و**صراع** مع هؤلاء جميعا... تمكّنت الجمعيّة من توحيد الميول **المختلفة**، والمشارب **المتباينة**. ... يجعله رمزا **للبذاءة** و**السّباب** و**الشّتم**.	32 33 34 37
جمعيّة العلماء: موقفها من السّياسة	فإنّ هذه اللفظة تبقى **ذليلة مهينة**... ...وإنّها **تَستُر** القوميّة **بستار** الدّين، و**تُخفي** الوطنيّة **بخِفاء** العلم	39 40

[1] حاكم ملك الزّيادي، التّرادف في اللّغة، ص21.

[2] عبد الملك بومنجل، النثر الفني عند البشير الإبراهيمي ، ص103.

والسّاسة	والعربيّة...	
جمعيّة العلماء: أعمالها ومواقفها	...وبتربيتها على الاعتداد بنفسها والاعتزاز بقوّتها المعنوية... ...هذه الطّلائع التي هي **آمال** الأمّة، ومناط **رجائها**...	44 49
قضيّة فصل الدّين: الحج	...وما ذلك النوع ... إلاّ **هزءٌ مكشوف**، و**سخريةٌ مفضوحة**... ...وأنّها لا تعالَج بمثل هذه **التضرّعات** و**التّوسّلات**...	56 60
الأديان الثّلاثة في الجزائر	...كلّ ذلك عن **عمدٍ وقصدٍ**... ...ويقتحم المجاهل بلا **دليل** ولا **هادٍ**... ...ولو أنّ دينا لقى ...ما لقى الإسلام **لتلاشى واندثر**... ...وإنّ من أكبر **الدلائل** وأصدق **البراهين**...	64 65 66 66
طلائع ومقدّمات	... وحكومة الجزائر **منصفة عادلة**...	67
التقرير الحكوميّ العاصميّ	... إذ هي **منافية** لروح الإسلام، و**مناقضة** لحكمته في المساجد. إنّما تدفعها **لغايات ومقاصد**...	73 75
هل دولة فرنسا لائكية؟	... فأربعمائة ألف من مجموع الأمّة **مسلولون** والباقون **معلولون**...	85
فصل الحكومة عن الدّين	... ولا يرضى له إلاّ أن يكون **حرّا طليقا** مثله... إنّنا نريد لقضائنا حرمة و**مكانة**، ونريد لرجاله سمعة و**منزلة**... ... **الرهبة** من الحكومة و**الخوف** من غضبها... ...لأننا أوسعنا تلك الأدوات **تحطيما وتهشيما**...	123 129 149 152
خصمان فمن الحكم؟	...جمهوريّة فيما **تدّعي**، ديمقراطيّة فيما **تزعم**...	183

القضيّة ذاتُ الذنب الطويل	...فتلك **ألوان** غير قارة ولا **ثابتة**... ...فإذا **وهَى وضَعُفَ** تأثيرُه على النّفوس...	187 188
وشهد شاهد	...يأتي **بيناته وحججه**... ...والمبالغة في **الخضوع والانقياد**...	208 210
إلى أبنائي الطّلبة	...ويفوق أزهاره **أريجا وعطرا**... ...إحياء و**تعمير** وإعادة مجد و**بناء** تاريخ...	215 216
اللّغة العربيّة في الجزائر	...لا **تريم** ولا **تبرح**...	221
المعهد الباديسي	...ومن **خسّة** هذه الفئة و**نذالتها**...	232
التّعليم العربي والحكومة	... لتكون عند تنفيذها **قديمة عتيقة**... ...لأنّ التعليم عندها **إجباريّ إلزاميّ** للذكور والإناث... ...وتعينه أدبيا **بالتّسهيل والتّيسير**... ...و**تعدّدت** التّحرّيات، و**كثرت** المراجعات...	233 234 234 235

من الجدول أعلاه، نتبيّن أنّ الإبراهيميّ قد حقّق لمقالاته فوائدَ عدّةً باستعماله للمترادفات، تتمثّل في "**تكثير وسائل التّعبير، وفي التّوسّع في سلوك طرق الفصاحة وأساليب البلاغة نظمًا ونثرًا، لأنّ اللّفظ قد يتأتّى باستعماله مع مرادفه السّجع والقافية والتّجنيس والتّرصيع وغير هذا من ضروب البديع...**"[1] بالإضافة إلى الهدف الأساسيّ للتّرادف ألا وهو خدمة المعنى إمّا بإيضاح الخفيّ، أو توكيد الظّاهر.

[1] حاكم ملك الزّيادي، التّرادف في اللّغة، ص57.

أ-2- الاشتقاق*:

هو من "**أهمّ وسائل النّموّ اللّغوي، والتّعبير عن الدّلالات الجديدة، ومكتشفات العلم واختراعاته، وتطوّر وسائل الحياة والحضارة.**"[1] وقد أسهم في بقاء اللّغة وتجدّدها وتطوّرها. ومن الأسماء المشتقّة:

- **اسم الفاعل: "وصفٌ يشتقّ من مضارع الفعل المبنيّ للمعلوم لمن وقع منه الفعل أو قام به...ويشتقّ اسم الفاعل من مضارع الثلاثي المجرّد بحذف حرف المضارعة وزيادة ألف بعد الفاء، فيصير على وزن فاعل... ويشتقّ من مضارع غير الثلاثيّ المجرّد على وزن المضارع الذي يشتقّ منه بإحلال ميم مضمومة محلّ حرف المضارعة وكسر ما قبل آخره مطلقا.**"[2]

يشدّ انتباهَ القارئِ كثرةُ استعمال الإبراهيميّ لاسم الفاعل، وهذا راجع إلى طبيعة المواضيع التي عالجها في مقالاته، وتوجّهه إلى جمهور عادة ما يكون هو المعنيّ بالخطاب. فحين يخاطب الشباب الجزائريّ يستحضر كلّ المعاني المرتبطة بمقوّمات الأمّة، فيختار لها هذه الأسماء المناسبة، لغرسها بوصيّة خالدة في ضمير كل شابّ جزائريّ. وقد أدّت هذه المشتقّات معنى الصّفات الحميدة التي تمنّى الكاتب أن يتحلّى بها الشّاب الجزائريّ، والصّفات الذّميمة التي تمنّى أن يتخلّى عنها. وقد أحسن الكاتب اختيار الألفاظ التي تُلهب حماسة الشّاب للثّورة على الطّغيان، حينما يقول: **أتمثله طاغيا عن القيود... وجامحا عن الأعنّة... خاوي الجوانح من الخوف... مصاولا لخصومه.**[3] كما أحسن اختيار الألفاظ التي تحثّ على الأخلاق الحميدة والتشبّث بالدّين والوطن والعلم، حينما تخيّله: **متساميا إلى معالي الحياة... جاعلا أوّل الفكر آخر العمل... مقبلا على العلم... متقلّبا في الطّاهرين... مقدّما لدينه قبل وطنه... بانيا للوطنيّة على خمس.**[4]

---

* الاشتقاق هو نزع لفظ من آخر بشرط مناسبتهما معنى وتركيبا ومغايرتهما في الصّيغة. ينظر: إميل بديع يعقوب، فقه اللّغة العربيّة وخصائصها، ص187.

[1] محمّد أسعد النادريّ، فقه اللّغة مناهله ومسائله، المكتبة العصرية، بيروت، 2005، ص257.

[2] عبد العزيز عتيق، المدخل إلى علم النّحو والصّرف، دار النّهضة العربيّة، ط2، بيروت، 1974، ص83- 85.

[3] ينظر: محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص586-594.

[4] ينظر: المصدر نفسه، ص586-594.

ومن خلال هذه الأمثلة نرى تنويع الكاتب من أوزان هذا الاسم المشتقّ:

- مُتفاعِل: مُتسام.

- فاعل: طاغٍ، خاوٍ، جامح، جاعل، بانٍ.

- مُفتعِل: مُغتاب، مُجتمع.

- مُفْعِل: مُقبل.

- مُتَفَعِّل: مُتقلّب.

- مُفاعِل: مُصاول.

- مُفعِّل: مُقدّم.

- **اسم المفعول: "وصفٌ يشتقّ من مضارع الفعل المبنيّ للمجهول لمن وقع عليه الفعل... ويشتق اسم المفعول من الفعل الثّلاثي المجرّد على زنة مفعول... ويشتق اسم المفعول من غير الثّلاثي على صيغة اسم فاعله من غير الثّلاثي، على زنة المضارع الذي يُشتقّ منه، بإحلال ميم مضمومة محلّ حرف المضارعة وفتح ما قبل آخره مطلقا."**[1]

استعمل الإبراهيميّ اسم المفعول الذي غالبًا ما يعبّر به عن الظّلم والقهر اللّذين كابدهما الشّعب الجزائريّ. ونجده يبدع في تصوير مجزرة الثامن ماي 1945، التي وقعت في حقّ العزّل الأبرياء حينما ينتقي من أسماء المفعول -التي هي أصلا تعني صفة من يقع عليه الفعل- صفاتٍ تدلّ على المأساة التي عاشها الشّعب من تنكيل وتقتيل، فيقول: **يوم <u>مطرّز</u> الحواشي بالدّماء <u>المطلولة</u>... إنّ الدّماء أريقت في جزء صغير من العالم هو تلك القرى <u>المنكوبة</u>... فيجد الأبَ <u>قتيلا</u> والأمّ <u>مجنونة</u> من الفزع، والدّار <u>مهدومة</u> أو <u>محرقة</u>، والغلّة <u>متلفة</u>، والعرض <u>منتهكا</u>، والمال نهبا <u>مقسّما</u>... ولله أموال <u>محترمة</u> استبيحت فيك.**[2] كما لم يفتْ على الكاتب وصفُ الاحتلال الهمجيّ بعبارات مثل : **وعطفه على عدو الأمس <u>المشتَرك</u>... ومن يكون البادئ يا ترى آلضعيف**

---

[1] عبد العزيز عتيق، المدخل إلى علم النّحو والصّرف، ص87- 90.

[2] ينظر: محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص369-572.

الأعزل، أم القويّ المسلَّح؟[1]

وهذه هي الأوزان التي استُخدِمت في الأمثلة السّابقة:

–مفعول: منكوبة، مجنونة، مهدومة، قتيل على وزن فعيل نائب عن مفعول بمعنى مقتول.

–مُفعَّل: مطرّز، مسلّح، مقسّم.

–مُفعل: متلف، محرق.

مُفتعَل: مشترك، منتهك، محترم.

– الصّفة المشبّهة باسم الفاعل: "هي اسم مشتقّ من فعل لازم للدّلالة على الثّبوت، وقد سمّيت بهذا الاسم لأنّها أشبهت اسم الفاعل في أنّها تدلّ كما يدلّ على حدث ومن قام به كما أنّها مثله تؤنّث وتثنّى وتجمع جمع مذكّر سالما..."[2]

يوظّف الإبراهيميّ الصّفة المشبّهة في الكثير من المقالات، سواء المتّفقة في الوزن مع اسم الفاعل أو غيرها*، ونلاحظ حينما يوجّه نصائحه إلى الطّلبة الجزائريّين الموجودين في الخارج يستعمل الصّفة المشبّهة – التي تدلّ على اتّصاف الحدث مع الثّبوت والدّوام– في الكثير من المواضع شأنها شأن اسم الفاعل. وقد أتت كخصالٍ حثّ الطّلبةَ على الالتزام بها حين الولوجِ في عالم الغربة، كالآتي: **نُعدّكم لحمل الأمانة وهي ثقيلة ... وفارقتم الوطن الذي له على كل حرّ كريم دَينٌ... وكانوا يرجعون بالرّواية الواسعة والمحفوظ الغزير وينقلون الجديد من العلم والطّريف من الآراء والمفيد من الكتب... إنّكم إن تفعلوا تنفتح لكم أبواب من العلم، وتلُحْ لكم آفاق واسعة من الفهم ... لا تقنعوا بالكتاب المقرر، واقرؤوا غيره من الكتب السّهلة ... ولعمري ما سلاح الأديب إلاّ الأغاني وأمثاله، ولا سلاح الفقيه إلاّ تلك الكتب ... فإنّ الوطن يرجو أن يبني بكم جيلا قويّ الأسر، شديدَ العزائم، سديدَ الآراء، متينَ العلم، متماسكَ الأجزاء، يدفع عنه**

[1] ينظر: المصدر نفسه، ص371.

[2] عبد العزيز عتيق، المدخل إلى علم النّحو والصّرف، ص87– 90.

* أشهر أوزانها من الفعل الثّلاثي اللّازم الذي على وزن فَعُلَ، هي: فعيل، فَعْل، فُعال، فَعَال، فَعَل، فُعل. ومنها كلّ ما جاء على وزن اسم الفاعل أو اسم المفعول ودلّ على الثّبوت. ينظر: يوسف الحمّادي وآخرون، القواعد الأساسية في النّحو والصّرف، الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميريّة، القاهرة، 1994، ص213.

الفوضى السّائدة، وهذا الفتورَ الباديَ على الأعمال، وهذا الخمول المخيِّم على الأفكار، وهذا الاضطرابَ المستحكِم في الحياة ... ومن وطن نفسه على المكروه هانت عليه الشّدائد، ووجد كلّ شيء ضاحكا باسما جميلا محبوبا ... إنّ الزّمن قد وضعكم وضعا صيّركم جديرين بأن تطلبوا العلم... وإنّ هذا الوسط هو الذي يسود في المستقبل القريب... فاعتصموا بالعلم الذي هاجرتم من أجله، وبالمعهد الجليل الذي تذوب بين جدرانه جميع الاعتبارات.[1]

وقد جاء بعضُ هذه الصّفات وصفًا لواقع مرير يعيشه المجتمع، مثل: **نحن نعلم أنّ الأب العامّيّ الفقير حين يرضى بفراق ولده إنّما يفعل ذلك اعتقادا بأنّ فعله تكفير عن جريمة الجهل...وأنّ الأب العالم الذي يرضى بذلك ويهون عليه الجاهلُ أحسنُ إدراكا للزّمن منه...يا أبنائي إذا عرفتم هذا وعرفتم واجب أنفسكم وواجب الوطن المُجدِب فماذا أعددتم لهذه الواجبات؟ ... فإذا جاريتم هذه الأهواءَ المتباينِةَ، واستجبتم لهذه الأصوات المتنافرة، ضيّعتم على هذا الوطن جيلًا.**[2]

وفيما يلي أوزان الصّفة المشبهة في كلّ عبارة:

-فعيل: ثقيل، كريم، فقير، غزير، جديد، طريف، أديب، فقيه، شديد، سديد، متين، قويّ، جميل، جدير، قريب، جليل.

-فاعل: جاهل، واسع، باد، سائد، عامر، ضاحك، باسم.

-متفاعل: متماسك، متباين، متنافر.

-فعل: سهل.

-مُفعِل: مُجدِب، مُفيد.

-مفعِّل: مخيّم.

-مستفعل: مستمرّ، مستحكم.

---

[1] ينظر: محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص215-220.

[2] ينظر: المصدر نفسه، ص216-219.

– **اسم التّفضيل: "هو الاسم المشتقّ على وزن أفعل للدّلالة على زيادة أحد المشتركين في صفة واحدة."**[1] فالمفضّل عليه إذن لا يخلو من مشاركة المفضّل في المعنى غالبا.

يستعمل الإبراهيميّ هذا الاسم المشتقّ* في مقالاته، من أجل عقد المقارنات لأغراض كثيرا ما حقّقها بفضل ملكته اللّغويّة.

– فإذا كان المفضّل عليه يشارك المفضّل في المعنى –وهو الغالب– جاء الغرض للمقارنة، ومن أمثلة ذلك قوله: "**الحكومة الاستعماريّة لم تشأ أن تعلّم منّا في قرن وخمس قرن تعليما ابتدائيّا أبتر إلاّ أقلّ من العشر.**"[2] وقد فاضل الكاتب بين التّعليم الذي تتبنّاه حكومة وطنيّة، والتّعليم الفرنسيّ، فوصفه بالأبتر أي المقطوع النّاقص الذي لا فائدة منه، بالإضافة إلى أنّه لم يمسّ إلاّ العدد اليسير من الجزائريّين. وقد ورد مثل هذا الغرض في السياق ذاته في مواضع عديدة منها: **أمّا المسلم فإنّه يقدّم طلب الرّخصة إلى أصغر مكلّف... وأثبت الفحص الإداريّ براءته من العيوب صغيرها وكبيرها، وأكبرها أنّ فيه وسما من جمعيّة العلماء... وليت المتاع بها طويل، ولكنّه متاع قليل، بل هي أحطّ وأقلّ من رخصة فتح مقهى. فإذا زاغ عن الصّراط فنزعها منه أهون عليها من قصّ القلامة.**[3]

– وإذا كان المفضّل عليه لا يشترك مع المفضّل في المعنى، وإنّما يراد به تباعدُ صاحبه عن غيره في الفعل، جاء اسم التفضيل لغرض آخر كالتّهكّم. ومن أمثلة ذلك قوله: "**فكيف يصحّ عند العقلاء أن يجري علينا في التّعليم الحرّ قانون واحد، وهو عندهم نافلة، وهو عندنا من أوكد الفروض**"[4] ونلاحظ أنّ المفاضلة ليست موجودة أصلا بين الجزائريين والفرنسيين لأنّ القانون مفروض على

---

[1] عبد الهادي الفضلي، مختصر الصّرف، دار القلم، بيروت، د ت، ص62.

*يشتقّ اسم التّفضيل من فعل ثلاثي مجرّد، يكون متصرّفا، قابلا للتفاوت، تامّا، مثبتا، مبنيّا للمعلوم، لا يأتي الوصف منه على وزن (أفعل –فعلاء). ويتوصّل إلى التفضيل من الفعل غير الثلاثي، أو الفعل الذي يكون الوصف منه على أفعل فعلاء بذكر مصدره منصوبا بعد صيغة مناسبة على وزن أفعل... أمّا الجامد، وما لا يقبل التّفاوت والنّاقص، والمنفيّ، والمبنيّ للمجهول فلا يشتق منها اسم للتّفضيل. ينظر: عبد العزيز عتيق، المدخل إلى علم النّحو والصّرف، ص100–102.

[2] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص234.

[3] ينظر: المصدر نفسه، ص235، 236.

[4] المصدر نفسه، ص235.

الجزائريّين فقط دون الفرنسيّين، فليس غرض المفاضلة هنا الزيادة بل التهكم من هذا الجَوْر. وفي الغرض نفسه نقرأ قوله: "**وافرض أنّ رجلا إفرنسيّا فتح مكتبا حرّا للتعليم الابتدائيّ، فهل تظنّ أنّ الحكومة تعارض أو تعاكس أو تعطّل، أو تعامله بأقلّ من القليل ممّا تعاملنا به؟**"[1] والمقصود من كلامه أنّ هذه المعاملة المهينة موجّهة للجزائريّين دون غيرهم وهذا دليل على العنصريّة، فأدّت المفاضلة هنا غرض التّهكّم.

– اسما المكان والزّمان: "**هما اسمان مصوغان لزمان الفعل أو مكانه. وهذان الاسمان يشتقّان من الأفعال الثّلاثيّة وغير الثّلاثيّة. فمن الأفعال الثّلاثيّة المجرّدة يكون اشتقاقهما على ضربين: أن يأتيا على وزن مَفْعَل... أو على وزن مَفْعِل...أمّا اشتقاقهما من الأفعال غير الثّلاثيّة فيكون على زنة اسم المفعول من غير الثّلاثيّ.**"[2]

لا شك أنّ لِاسْمَيْ الزّمان والمكان عند الإبراهيميّ دلالاتٍ مرتبطةً بالتّاريخ والجغرافيا، اتّصلت بظروف الجزائر في القرن الماضي وما أحاط بها من أحداث في الشّرق والغرب. ومن أمثلة ذلك، قوله عن عروبة الشّمال الإفريقيّ: "**وجاءت الجغرافيا الطّبيعيّة فوصلت هذا الشّمال بمنابت العروبة من جزيرة العرب، وجاء الزمن بثلاثة عشر قرنا، تشهد سنوها وأيّامها بأنّها فرغت من عملها، وتمّ التّمام ووقع الختم؛ وأنّ عروبة هذا الوطن جرت في مجاريها طبيعيّة منسابة.**"[3] وقد جاء اسم المكان (مَنْبَت) على وزن (مَفْعَل) فدلّ على تجذّر العروبة واستمراريّتها في هذا الوطن. أمّا اسم المكان (مجرى) على الوزن نفسه، فهو موضع جريان الماء، وفيه دلالة على التّلقائيّة والعفوية التي امتزجت بها شعوب هذه الأمّة.

وفي السياق نفسه يقول: "**فهبّت مواطن العروبة كلّها صارخة في وجه العادي، فقال كلّ عاقل في الدّنيا: إنّ هذا التّضامن طبيعيّ، لأنّه حنين العرق إلى العرق، ومجاوبة الرّوح إلى الرّوح، ونداء الدّم للدّم.**"[4] وتدلّ كلمة موطن التي جاءت على وزن مفعِل على عضو من أعضاء الجسد الواحد،

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص235.
[2] عبد العزيز عتيق، المدخل إلى علم النّحو والصّرف، ص104.
[3] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص477، 478.
[4] المصدر نفسه، ص479.

فلا يهنأ للجسد بالٌ إذا اشتكى منه أحد هذه الأعضاء.

وبعدها يؤكّد على دور اللّغة العربيّة في تهديد الوجود الفرنسيّ في الجزائر، قائلا: "**وكلّ ذلك ممّا يقضّ مضجعه، ويطير منامه، ويصخّ مسمعه ويقصّر مُقامه**."[1] وفي العبارة ثلاثة أسماء للمكان هي: مَضجِع من ضجع (على وزن مَفعِل)، ومنام من نام (على وزن مَفعَل) وهما موضعا النّوم، ومَسْمَع من سمع (على وزن مفعَل)، وهو موضع السّمع أي الأذن، وتدلّ هذه الأسماء على أنْ لا مكان للاحتلال في أرض الشّمال الإفريقيّ ولا راحة له فيها. إضافة إلى اسم الزمان مُقام من أقام (على وزن مُفعل)، ويدل على مدّة إقامة هذا الاحتلال التي-مهما طالت- فهي قصيرة بالنّسبة إلى امتداد هذا الوطن في التّاريخ.

ثمّ يذكر تنكّر الاحتلال للعروبة ونفيه أن تكون عنصرا مشتركا بين عرب الشّمال الإفريقيّ إذ "**لا يردّ ذلك إلى مردّه الطبيعيّ وهو التعاضد الجنسي، وإنّما يردّه إلى شيء آخر تنكره روح هذا العصر المنافق، وهو التعصّب الدينيّ**". ويدلّ اسم المكان مردّ من ردّ (على وزن مَفعل)، على سرّ هذا التعاضد بين أبناء الأمّة الإسلامية الذي يجب على الاحتلال الرّجوع إليه لإدراكه.

ثمّ يختم كلامه بذمّ هذا الاحتلال المشؤوم قائلا: "**ولكنّه إلى مبتدإ أمره ومنتهاه، رجس من عمل الشّيطان، وهل في عمل الشيطان خيرٌ أو حقٌّ؟**" وفي هذه العبارة اسما زمان هما مبتدأ من ابتدأ ومنتهى من انتهى (على وزن مُفتَعَل)، يدلان على البداية والنّهاية. وقد وصف الكاتب مدّة احتلال الفرنسيّين للشّمال الإفريقيّ بأسوء فترة عاشتها هذه الأمم لأنّها كانت مليئة بالأدران والسّموم.

أ-3- الغريب:

إنّ فصاحة لغة الإبراهيميّ جعلته يمتلك رصيدا هائلا من الألفاظ غير المتداولة في عصره الذي تميّز بغربة اللّغة العربيّة في عقر دارها، جرّاء سياسة الطّمس والمحو التي انتهجتها فرنسا المحتلّة. فقد كانت "**لغته هي دائما تلك اللّغة التي تُغني قاموسنا اللّغويّ لأنّها استمدّت منابعها من محيط اللّغة العربيّة منذ عصورها الأولى، وأسلوبه هو أسلوب البلغاء العرب منذ الجاحظ حتّى عصرنا الحالي.**"[2] والملاحَظُ أنّ الإبراهيميّ الذي كان يخاطب جمهورا متباين الثّقافة، قد تعمّد

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص479.

[2] عبد الله الركيبي، تطوّر النثر الجزائريّ الحديث، ص176، 177.

إدراج هذه الكلمات القديمة –على صعوبة فهمها– كي يبث الرّوح فيها من جديد، ويدفع المتلقّي للتّنقيب عن معانيها ومدلولاتها؛ فقد لجأ الإبراهيميّ "**إلى استعمال ألفاظ صعبة أو غريبة ولكن ليس لمجرّد الإغراب، بل لأنّ المعنى يقتضي ذلك.**"[1] ولعلّ هذا التّصرّف لا يصدرُ إلّا من رجل ذي بعدٍ في النّظر، وسعة في الفكر، إذ أنّه كان مدركًا أنّ للّغة العربيّة أعداءً – وهُم أذيال الاحتلال– سيتربّصون بها في المستقبل، فحاول أن يكوّن جيلا متشبّعا بهذه اللّغة ليدافع عنها.

يُكثِر الإبراهيميّ من الألفاظ الغريبة التي لا تُفهم إلّا بالعودة إلى المعاجم؛ وهذه بعضها:

في معرض حديثه عن جهود جمعية العلماء من أجل إعادة مجد العروبة إلى هذا الوطن، يؤكّد أنّ: "**العروبة جَذمٌ بشريّ من أرسخها عرقا، وأطيبها عَذْقًا عرفها التّاريخ باديا وحاضرًا.**"[2] وفي العبارة كلمتان: الجذم ومعناها الأصْل، والعذق وهي النّخلة بحملها، ونلاحظ أنّ سبب استعمال كلمة عذق هو تناسبها مع عرق في الوزن والموسيقى، بالإضافة إلى ما تعبّر به عن الشموخ والعلو، كقول امرئ القيس: "**إذا زجرت ألفيتَها مشمعلّة تنيف بعَذق من غروس ابن مُعنِق**"[3]

ثمّ يصف الإبراهيميّ الشّعب الجزائريّ بأنه فرع من فروع شجرة العرب، "**ابتلاه الاستعمار –عن قصد– بالبلبلة فانحرفت فيه الحروف عن مخارجها إلاّ الضّاد، ولم يبق من العروبة مع هذا وذاك إلاّ سمات وشمائل، ولا من العربيّة إلاّ آيات ومخائل.**"[4] والمقصود بالمخائل الخيالات والتّصورات التي لا تقدِّم ولا تؤخِّر. ونكتشف السّجع في: (سمات وشمائل ...آيات ومخائل).

كثيرا ما يستعمل الإبراهيميّ اللّفظة الغريبة مُتبعا إيّاها بشرحها أو ضدّها أو بما يقرّب معناها، والغاية من ذلك هي إثراء الرّصيد اللّغويّ لدى القارئ، وعدم تحميله عناء البحث عن معنى هذه المفردة الصّعبة. ومثال تقريب المعنى قوله عند حديثه عن النّكبة التي أصابت الشّعب في دينه: "**وأصبح دينهم هدفا لكلّ رام، ونُهزةً لكلّ عادٍ، وفريسة لكلّ مفترس.**"[5] والنّهزة: الصّيد، وقد قرّب معنى كلمة نهزة بإيراد ثلاث عبارات تحمل معانيَ متقاربةً، فالدّين صار هدفا وصيدا وفريسة للغزاة.

---

[1] عبد الملك بومنجل، النّثر الفنّي عند البشير الإبراهيمي، ص103.
[2] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص35.
[3] امرؤ القيس، الدّيوان، صحّحه: مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلميّة، ط5، لبنان، 2004، ص104.
[4] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص36.
[5] المصدر نفسه، ص136.

وفي إيراد الضّد فأذكر قوله في سياسة المستبدين من أجل البقاء في السّلطة: "**سبيل المتسلّطين لدوام السّلطة أحد أمرين: إمّا الإحسان الذي يملك النّفوس، وإمّا المَحقُ لمقوّمات المغلوب الرّوحيّة والمادّيّة مُغافَصةً، أو تدريجًا.**"[1] والمغافصة: الفجأة. وقد استعمل الكاتب حرف العطف (أو) الذي يفيد التّخيير، وقد حقّق الكاتب هدفه وهو شرح الكلمة الصّعبة بإدراج ضدّها.

وفي إيراد الكلمة الشارحة مباشرة، فاستوقفتني هذه العبارات:

إنّ "**الاستعمار لأفقه وأقوى زكانةً، وأصدق حدسًا من هؤلاء حين يسمّي أعمال جمعيّة العلماء سياسة.**"[2] ويعني الكاتب بكلمة زكانة الإصابة في الظّنّ، أي الإصابة في الحدس.

"**إنّ التّشريع في أيّام الحرب للأمور الاجتماعيّة، كالتّعليم مثلاً يخطئه التّوفيق، ويحالفه السّفهُ والخطلُ.**"[3] وتؤدّي الكلمتان (السّفه والخطل) المعنى نفسه وهو الحُمقَ.

"**أمّا الرّأي الشّجاع العاقل الحصيف الموزون بميزان العدل والحقّ...فهو أن نجمع ونصمّم ونعتمد على أنفسنا ونتوكّل على ربنا.**"[4] والحصيف: الموزون الذي لا خلل فيه. ونلاحظ شرح هذه الكلمة في العبارة نفسها.

وحينما نمضي في قراءة مقالات الإبراهيميّ الواحدة تلو الأخرى، يثير انتباهنا وجودُ هذه الكلمات الغريبة التي نصادفها في أقوال العرب القدامى، ففي محاججته المفتي العاصميّ، يقول:"**وها نحن نعود للحديث عنه مكرهين، ولا نخوض من جديد في شبهاته التي يظنّها حججا، وضحضاحه الذي يراه لججا.**"[5] والضّحضاح: الشّيء القليل، وقد قال التّوحيديّ: "**تركت أصحاب الرّسائل بعد هذا الكتاب في ضحضاح من الكلام.**"[6] أمّا اللّجج فهو معظم الشّيء. ونلاحظ الإيقاع الذي يرنّ في الأذن باستعمال الكلمتين (حجج) و(لجج).

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص168.

[2] المصدر نفسه ، ص45.

[3] المصدر نفسه، ص267.

[4] المصدر نفسه، ص275.

[5] المصدر نفسه، ص153.

[6] أبو حيان التوحيديّ، الإمتاع والمؤانسة، ص71.

ونظرا لكثرة هذه الكلمات الصّعبة الفهم، فقد أدرجت معظمها في هذا الجدول مع شرحها:

صفحة	العبارة التي وردت فيها الكلمة	الشّرح
138	لكانت **الفذلكة** هكذا.	الخلاصة.
201	ثمّ سمعنا **هيعة** المغرب الأقصى.	ما أفزع من الصّوت.
206	فلمّا عتوا عن أمر ربّهم رميناهم **بالآبدة.**	الأمر العظيم الّذي يُتعجّب منه.
221	فلمّا أقام الإسلام بهذا الشّمال الإفريقيّ إقامة الأبد **وضرب بجرانه.**	ثبُت واستقر. وقد قصد الكاتب تقوية المعنى، فكلمة ضرب تعني القوة والعمق كالوتد المغروس في الأرض ليضمن البقاء.
254	مشروع وضعه **دهاقين** الإدارة.	جمع دهقان: رئيس المقاطعة و الإقليم.
286	والتّحجّر في **الثّفنات.**	رُكَبُ البعير.
297	الصّبرُ على المكاره و**اللّزَبَات**	الشّدائد.
331	زوج أحمق **مأفون.**	متوتّر الأعصاب، ضعيف العقل.
369	أنهكتهم الحرب على من قاسمهم **لَأْوَاءَها.**	ضِيق المعيشة.
370	**ذماء** من حياة.	بقيّة الرّوح من المذبوح.
372	ندوّن تاريخك في **الطّروس.**	الكتاب.
383	دعوة المعلّمين ...**نَقَرَى**	دعوتهم دعوةً خاصّةً.
385	في قلب العاصمة وفي **أرباضها.**	نواحيها وضواحيها.

394	**تتنزّى** العروق الخفيّة.	تبرز.
413	فلم ينل من لحوم نحائره **حُزَّةً**، ولا من أوبارها **جِزَّة**.	الحزّة ما قُطع من اللّحم طولاً، والجِزّة ما يُجَزّ من صوف الشّاة.
460	أدرانَ الخَوَر **والفسولة**.	أوساخ الفتور والضّعف.
461	**يُفثأُ** باللعبة الحقيرة.	تُكسرُ حدّته بها.
467	**أسمجُ** من هذه الفصول.	أقبحُ منها.
467	وإنّ لها...**لمَنَادحَ**.	المنادح:الأراضي الواسعة.
471	هذه **الأفاحيص**.	جمع أفحوص، موضع تفحص فيه القطاة – نوع من الحمام– التراب عنه لتبيض.
472	**يدّرِعُ الغلسَ**.	يلبسُ ظلمةَ اللّيلِ.
472	**احتجن** أموالهم.	جَمَعَها.
479	**عقابيلها**.	بقايا العلّة بعد الشفاء.
497	حصى **التصافن**.	تصافن القوم الماء: تقاسموه مصافنة، أي بوضع حصاة في أسفل الإناء ويصبّ فيه قدر ما يغمرها من الماء فيشرب الواحد ثمّ يصبّ المقدار نفسه فيشرب الآخر وهكذا.
535	جمعٌ لأنصار الحقّ في **مأرز** واحد.	ملجأ و خندق ومكان وملاذ.
536	**عبيّةُ** الجاهليّة.	الفخر والنّخوة.

582	لم تجد عن العيان إلاّ **الدوانق**.	جمع دانِق وهو سدس الدّرهم.
588	**ذلق** اللّسان.	حادّ اللسان وفصيحه.
588	حظّه منها الأخسّ **الأوكس**.	الكثير الدّناءة.
637	الدّماء التي **تثعب** حمراء كالحرّيّة.	تسيل.
649	**نَهصر** أفنانه.	نكسّر أغصانه.
649	**أخنى** الزّمان على أكثرها.	قضى عليها.

أ-4- الدّخيل:

يستعمل الإبراهيميّ في مقالاته ألفاظا تتراوح بين عربيّة أصيلة تعبّر عن رصيد لغويّ كبير وواسع ومرتبط بثقافته العربيّة الإسلاميّة، وأجنبيّة دخيلة فرضت نفسها بسبب الواقع الثّقافيّ السّائد تحت سلطة الاحتلال. "**والدّراسة الدّلاليّة المفهوميّة لعيون البصائر لا بدّ لها من بعدين جوهريين، بعد لغويّ معجميّ توجد شروحه وتصوّراته في المعاجم والقواميس، وبعد وظيفي سياقي استعمالي يرتبط بالحياة العمليّة والنّماذج السّلوكيّة المميّزة لشخصيّة الشّيخ الإبراهيمي وثقافاته، والمحيط العامّ للألفاظ والكلمات المستعملة وقدرتها على إفادة المعنى المقصود بغرض الإقناع والتأثير في المتلقّي.**"[1] أي أنّ الإبراهيميّ يوظّف هذه الكلمات الدّخيلة حسب مفهوم أسقطه على واقعه، بحيث يمكن أن لا يوافق هذا المفهوم دلالتها المعجميّة تمام الموافقة.

ففي المجال السّياسيّ، يكثر الإبراهيميّ من استعمال مصطلحي اللائكيّة (Laïcité)، والديمقراطيّة(Démocratie)، فنجده يفضح نفاق الاحتلال في ادّعائه تبنّي اللائكيّة والديمقراطيّة- ولكنّه في الواقع يتدخّل في شؤون الدّين الإسلاميّ ويستبدّ بالشّعب- فيقول: "**كأنّي بهذه الحكومة**

[1] عبد الله بوخلخال، العلاقة بين اللّفظ والمعنى بين المفهوم المعجميّ والاستعمال عند البشير الإبراهيميّ من خلال عيون البصائر ضمن: الإمام الرّائد محمد البشير الإبراهيميّ منوّر الأذهان وفارس البيان، المجلس الأعلى للّغة العربيّة، الجزائر، 2009، ص63.

اللائكيّة المسيحيّة-معا- الدّيمقراطيّة الديكتاتوريّة-معا- ترمي ببصرها إلى ما وراء حدود الجزائر من الأقطار الإسلاميّة الحرّة في ديانتها... وتقول هنّ حكومات وأنا حكومة، وهنّ يتصرّفن في الدّين، فأنا أتصرّف في الدّين."[1] وهذا تناقض واضح، إذ أنّ اللاّئكية -حسب منظّريها- تعني الفصلَ بين الدّين والحكومة، وعدم تدخّل رجال الدّين في السّلطة السّياسية أو الإدارية أوالتّربويّة، والديمقراطيّة تعني حكم الشّعب.

ومن المصطلحات السّياسيّة الأخرى التي تتكرّر في مقالات الإبراهيميّ السانديكة (Syndicat) أي النّقابة، وديكري (Décret) أي المرسوم، وفرانس (France) أي فرنسا، والديبلوماسية (Diplomatie) أي الوسيلة المعتمدة لإجراء المفاوضات بين الأمم، والبايليك (من التركيّة وتعني الحكومة)، وديكتاتور (Dictateur) وتعني المستبد المنفرد بالسّلطة، والتيوقراطية (Théocratie) أي السّلطة الدّينيّة. ولا شكّ أنّ هذا التّوظيفَ ناجمٌ عن الحراكِ السّياسيّ الذي شهدته الجزائر في مرحلة ما قبل الثّورة التحريريّة، وشيوعِ هذه المصطلحات الوافدة من أوروبا، سواء بالاحتكاك المباشر للمهاجرين الجزائريين بفرنسا، أو عن طريق ما يصل إلى الشّمال الإفريقيّ من كتب ومجلاّت.

أمّا في المجال الإداريّ، نلاحظ استعمال الإبراهيميّ لكلمة الدّوسي(Dossier) عدّة مرّات وهي تعني الملفّ الإداريّ، ولكنّه يقصد بها بيروقراطيّة الإدارة، ومن أمثلة ذلك قوله عن الإدارة بأسلوب ساخر: "**وما رأيناها تحفل في هذه الوظائف بالعلم ولا بالكفاية الدّينيّة، وإنّما تحفل بشيء واحد، هو ما يشهد به «الدّوسي»**."[2] ويقصد بالدّوسي هنا كلَّ المعلومات الشّخصيّة عن سيرة طالبِ الوظيفة والتي ليس لها علاقة بشروط التّوظيف كانتمائه الحزبيّ. وهذا يعني أنّ الشّخص غير الموالي لن يحصل عليها لأنّه غير مرغوب فيه. كما يوظّف الإبراهيميّ كلمة السّربيس (Service) وتعني الخدمة، ولكنّه وظّفها للدّلالة على التّزلّف للإدارة الفرنسيّة.

وأمّا في المجال الإعلاميّ، فإنّ استعمال الإبراهيميّ كلمتي التّلفون(Telephone) والراديو (Radio) كثير، لكونهما جهازين حديثي الظّهور آنذاك، وقد شاعت التّسمية الفرنسيّة. ونجد هذا

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص89.
[2] المصدر نفسه، ص75.

في قوله: "**جاءت ليلة الثّلاثين من شعبان، فباتت جمعيّة العلماء مرابطة بمركزها الذي لا يُغلق حتّى تُغلق مراكز التّلفون.**"[1]

ونجد في المجال الأمنيّ، كلمة البوليس (Police) التي وردت بكثرة، يستدلّ بها الكاتب على قمع السّلطة وتخويف الجزائريّين "**ومن زمجرة الحاكم ووعيده، ومن عصا البوليس وسياطه**"[2]، عوض توفير الأمن لهم. بالإضافة إلى كلمات تُدخل الرّهبة في النّفس مثل: الكوميسير (Commissaire) أي محافظ الشّرطة، والجندرمة (Gendarmerie) أي الدّرك، وجنرالات (Géneraux) أي قادة العسكر وكلّها ترمز للاستبداد، والكرباج (Cravache) أي السّوط الذي يرمز للقمع والعقاب.

أمّا اجتماعيّا، نجد توظيف الإبراهيميّ كلمة أنديجان (Indigènes) التي تعني (السّكّان الأصليين) لفضح السّلطة بشرح معناها الحقيقيّ عند قادة الاحتلال، حيث يقول: "**وكلمة أنديجان هذه في قاموس الاستعمار وفي ألسنة حماته الطّغاة هي نبز وتحقير لهذا العنصر الشّريف الذي أوقعته الأقدار وتصرّفات الفجّار في قبضة الاستعمار الإفرنسيّ.**"[3] فضلا عن إيراده كلمات أخرى مثل الكولون (Colons) أي المعمّرون ، والفرنك (Franc) وهي عملة الفرنسيّين، والتّاي (Thé) أي الشّاي، وميكروب (Microbe) أي جرثومة.

أمّا في المجال الدّينيّ، فنجد مصطلحاتٍ كنسيّةً مثل: أكليرجي (Clergé) أي نظام القساوسة، في قوله: "**إنّ الإسلام دين ديمقراطيّ سمح وليس فيه نظام« أكليرجيّ » متسلّط كبقيّة الأديان.**"[4]، والملاحظ أن الكاتب يتعمّد استعمال هذه الكلمة لا لمعناها الحقيقيّ، بل من أجل الانتقاص من قيمة الطّرف الفرنسيّ لأنّه خاضع لنظام دينيّ مستبدّ منافٍ للديمقراطيّة واللّائكيّة اللّتين يدّعيهما. كما نجد كلمات أخرى مثل: الكاثوليك (Catholique) وهو أحد مذاهب النّصارى الذي ينتمي إلى الكنيسة الرومانيّة وتتبنّاه فرنسا مذهبا للدّولة، وكاتيدرائية (Cathédrale) أي (كنيسة).

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص107.
[2] المصدر نفسه، ص126.
[3] المصدر نفسه، ص249.
[4] المصدر نفسه، ص74.

ب- نظام التّراكيب في مقالات عيون البصائر:

ينوّع الإبراهيميّ من استعمال التّراكيب اللّغويّة المختلفة، فهو يمزج بين الخبر والإنشاء، ويوظّف القصر، ويهتمّ بالتّقديم والتّأخير، كما يلجأ إلى أسلوبي الإيجاز والإطناب حسبما يقتضيه المقام وما يمليه مقتضى الحال. ولم يفُت على الإبراهيميّ الفصيح الحاذق أنّ المعاني التي كان يتصوّرها في خلده، ويصوّرها لأناس عصره، لا يمكن إيصالها إلى القارئ إلاّ بتلك الأساليب التي يتمكّن من فهمها بيسير من الجهد، وكثير من الفائدة.

ب-1- التّقديم والتّأخير:

تتداخل وظيفة أسلوب التّقديم والتّأخير بين علمي النّحو والبلاغة، وتتشعّب طرقه، وتتعدّد أقسامه. ونعني بالتّقديم والتّأخير تغيير أماكن ركني الجملة وهما المسند والمسند إليه، مع إحداث شيء من الاختلاف في المعنى. ويهتمّ التّقديم والتّأخير ببناء الجملة لإبراز ما يكمن وراءها من مزايا بلاغيّة. والمعلوم أنّ معنى الجملة هو نتيجةُ تركيبِ مفرداتها في شكل معيّن، بمراعاة قواعدَ لغويّةٍ محدّدة. فلو غُيّر في ترتيب هذه المفردات، انزاح المعنى إلى آخرَ يقصده الكاتب.

ويمثّل تقديم ما حقّه التّأخير وتأخير ما حقّه التّقديم في بناء الجملة ركيزةً أساسيّة في بلاغتها وتحقيق أهدافها، لضمان التّواصل بين المتكلّم والمخاطَب. فهو"**باب كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التّصرّف، بعيد الغاية، لا يزال يفترّ لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شِعرًا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثمّ تنظر فتجد سببَ أنْ راقك ولَطُف عندك، أنْ قُدّم فيه شيءٌ، وحوّل اللّفظ من مكان إلى مكان.**"[1]

فكثيرا ما نقرأ جملة لو تغيّر مكان لفظة فيها بتقديمها أو تأخيرها، لتغيّر معناها، أو حَجُبَ جمالُها، وزال تأثيرُها. ولقد عرف الإبراهيميّ – شأنه شأن الكتّاب البلغاء- أنّ هذا التّرابطَ في الكلام، ووضعَ كلّ كلمة في مكانها المناسب من الجملة لخدمة المعنى الذي يقصده، من أهمّ مقوّمات البلاغة والبيان. فهو لا يقدّم ولا يؤخّر جُزافا، ودون سبب، وإنّما يراعي الأغراض التي يرمي إليها متأسّيا بأسلوب القرآن الكريم، وكلام العرب.

[1] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمّد شاكر، دار المدنيّ، ط3، جدّة، 1992، ص106.

ولنأخذ مثلا مقالات (سجع الكهّان) لاكتشاف هذه الظّاهرة بكلّ تجلّياتها، وأغراضها. فحين يتكلّم الإبراهيميّ بحرقة عن فلسطين، يقول:"**ثارٌ للغرب في فلسطين، لم تنبت عليه شجرة من يقطين، وشياطين تنزو للإغراء إثرَ شياطين؛ ويوم في أعناقكم بيوم حطّين، تنسيه غريزة الماء والطّين، فتذكره نعرة الجنس والدّين، أنسيتم يوم تنادوا مصبحين ... بنفوس من الحقد ثائرة، وقلوب بالبغضاء فائرة...**"[1] ونلاحظ تعمّد الكاتب استعمال التّقديم والتّأخير لمراعاة السّجع، فالدّافع إذن هو الموسيقى والجمال. فلو قال:((ثارٌ في فلسطين للغرب، لم تنبت شجرة من يقطين عليه، وشياطين تنزو إثرَ شياطين للإغراء؛ ويوم بيوم حطّين في أعناقكم، تنسيه غريزة الماء والطّين، فتذكره نعرة الجنس والدّين، أنسيتم يوم تنادوا مصبحين ... بنفوس ثائرة من الحقد ، وقلوب فائرة بالبغضاء...)) لكان هذا أثقل على السّمع، فلا يبلغ تأثيره المدى الذي بلغه بالسّجع.

- **تقديم الخبر على المبتدأ:**

تتكوّن الجملة الاسمية من المبتدأ والخبر وهما مرفوعان. وهي تبدأ بالمبتدأ أولاً ويأتي الخبر ثانياً؛ لأنّ الخبر وصف للمبتدأ، ومكمّل له، وبه يتمّ المعنى. وقد اعتنى العرب بالجملة الاسميّة أشدّ الاعتناء، وتجاوزوا التّرتيب الأصليّ في بعض الأحيان لمّا احتاجوا إلى رَوْمِ معنًى أدقَّ وأبلغَ، فقدّموا الخبر على المبتدأ وجوباً لعلّة نحويّة، أو جوازاً لغرض بلاغيّ. "**ولا شك في أنّ العرب كانت تفعل ذلك دلالة على ملكتهم في صوغ الكلام، وحاجتهم إلى إصابة المعنى، وتحقيق الغرض.**"[2]

ولنأخذ مثالا عن هذا مواساة الإبراهيميّ المعلّمين في حالتهم الاجتماعيّة العسيرة، حيث يزيح عنهم أيّ مسؤوليّة في ذلك، فيخاطبهم: "**أنتم –في وضعكم الاجتماعيّ– أبناء حياة ليس لكم في تسييرها يدٌ، ووطن ليس لكم في أرضه مستقرٌّ، وجيل ليس لكم في تكوينه أثرٌ، وتاريخ ليس لكم في تسطيره قلمٌ، وقانون ليس لكم في وضعه شركٌ، وحاضر ليس لكم في تدبير مستقبله رأيٌ...**"[3] وفي الفقرة عبارات فيها تقديم للمسند (لكم) وهو الخبر على المسند إليه (يد، مستقرّ، أثر، قلم، شرك، رأي) وهي في محل رفع اسم ليس، وذلك للتّنبيه على الخبر حتى لا يلتبس بالصّفة،

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص209، 210.

[2] مختار عطيّة، التّقديم والتّأخير ومباحث التراكيب بين البلاغة والأسلوبيّة، دار الوفاء لدنيا الطّباعة والنّشر، الإسكندرية، د ت، ص16.

[3] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 294.

والأصل قوله:(ووطن ليس مستقرّ لكم في أرضه). وقد ورد مثل هذا التّقديم في قوله عزّ وجلّ: ﴿**قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾ الآية 24 من سورة الأعراف.

وحين يدعوهم إلى اللّين في تعاملهم مع الشّعب، وينهاهم عن التّشدّد في المباحات، يذكّرهم قائلا: "**ولنا في نبيّنا -صلّى الله عليه وسلّم- القدوةُ الحسنةُ، فقد كان يجاري العرف الجاري، ما لم يناقض عقيدة دينيّة، أو حكما شرعيّا...**"[1] وجاء تقديم المسند (لنا) وهو خبر على المسند إليه (القدوة) وهو مبتدأ، للتّنبيه على الخبر حتى لا يلتبس بالصّفة. والأصل في العبارة :(والقدوة الحسنة لنا في نبيّنا...). ومثل هذا في قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُو اللَّهَ واليَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾ الآية 21 من سورة الأحزاب.

وفي السّياق نفسه، يختم الإبراهيميّ كلامه بنصيحة: "**اثنتان يجب توحيدهما وإصلاحهما بحزم وشجاعة وإخلاص...هيئات المدارس، وهيئات الكشّافة.**"[2] والملاحظ أنّ الفاصل طويل بين المسند (اثنتان) وهو خبر والمسند إليه (هيئات المدارس) وهو المبتدأ، وجاء تأخيره لغرض تشويق القارئ إليه. ومثل هذا التّقديم قولُ الشّاعر:

"**ثلاثةٌ تشرق الدّنيا ببهجتها شمس الضّحى وأبو إسحاق والقمر**"[3]

قد يُقدّم الخبر على المبتدأ لغرض التّخصيص كقوله تعالى: ﴿**ولِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ ومَا فِى الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا**﴾ الآية 132 من سورة النّساء. فقد خصّص الله عزّ وجل كلّ شيء له وحده ولم يشرك غيره في هذا الملك. ونجد مثل هذا الغرض عند الإبراهيميّ كثيرا، فعلى سبيل المثال عند رثاء ضحايا مجازر الثّامن ماي 1945 ميلادي، يقول: "**لله دماء بريئة أريقت فيك، ولله أعراض طاهرة انتهكت فيك، ولله أموال محترمة استبيحت فيك، ولله يتامى فقدوا العائل الكافي فيك، ولله**

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 297.

[2] المصدر نفسه، ص 305.

[3] جلال الدّين القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، شرحه: علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال، لبنان، 2000، ص106.

أيامى فقدن بعولتهنّ فيك..."[1] ، ففي الفقرة عبارات فيها تقديم للمسند (لله) وهو الخبر على المسند إليه (دماء، أعراض، أموال، يتامى، أيامى)، والأصل القول: (دماء بريئة لله، ...). وغرض التّقديم هنا التّخصيص، إذ خصّص الكاتب هذه التّضحيات كلّها في سبيل الله وحده.

وفي أمثلة أُخَر في الغرض نفسه، يقول: "**للجيل الآتي علينا حقوق أوّليّة مؤكّدة.**"[2] وفي العبارة تقديمان يفيدان التّخصيص، فلقد قدّم الكاتب شبه الجملة (للجيل) على العبارة (حقوق أوّليّة مؤكّدة)، لتخصيص النّاشئة بهذه الحقوق؛ وقدّم شبه الجملة (علينا) على العبارة نفسها، لتخصيص من يجب عليه توفير هذه الحقوق. وأصل الكلام: (حقوق أوّليّة مؤكّدة للجيل الآتي علينا).

- **تقديم خبر إنّ على اسمها:**

يقدّم خبرُ إنّ على اسمها لغرض من الأغراض، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا**﴾ الآية 12 من سورة المزّمّل، والمقصود هنا أنّ العذاب الحقيقيّ عند الله فقط، فأفاد التقديم غرض التّخصيص. وقد يكون الغرضُ التّنبيهَ، ومثل ذلك تحذير الإبراهيميّ معلّمي جمعيّة العلماء من الوقوع في الأخطاء، والتّصرّفات غير المسؤولة، قائلا: "**فإنّ لكلّ فلتة ولكلّ كلمة تصدر منكم أثرًا في نفوس تلاميذكم.**"[3] ولقد قدّم الكاتب الجارّ والمجرور (لكلّ فلتة ولكلّ كلمة) على اسم إنّ (أثرًا)، فنبّه إلى وجوب أخذ الحيطة في الكلام والأعمال وتوبيخ من لا يأخذ بهذه النّصيحة.

وقد يكون الغرض التّوبيخ، كما ورد في نصحه قادة الأحزاب بالاتّحاد، ونبذ الآراء الحزبيّة الضّيّقة: "**إنّ في مبادئكم دسائسَ دخيلةً من الأفكار، تورّث العداوة الحزبيّة بين الإخوة بحجّة المحافظة على المبدأ.**"[4] ولقد قدّم الكاتب الجار والمجرور (في مبادئكم) على اسم إنّ (دسائسَ) لما تحمله كلمة المبادئ من دلالة تمسّ عزّة النّفس، فرمى بهذا توبيخ من يتمادى في الفرقة والتّشتّت.

- **تقديم المفعول به على الفاعل:**

قدّمت العرب المفعول به عن الفاعل لعدّة أغراض، من بينها التشويق إلى المتأخر، ونجد

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر ، ص 371، 372.
[2] المصدر نفسه، ص 301.
[3] المصدر نفسه، ص 298.
[4] المصدر نفسه، ص 334.

مثال ذلك في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ الآية 61 من سورة الأنعام. ففي الآية إخبار بحقيقة الموت التي هي آخر ما يطرأ على الإنسان في حياته الدنيا، فأخّر الله تعالى هذا الحدث وما يعقبه من أهوال، (إذا جاء أحدكم الموتُ) لغرض التشويق. ونجد مثل هذا في وصيّة الإبراهيميّ لأولياء التلاميذ بأن يسهروا على حماية أبنائهم ممّن يُلهونهم عن الدّراسة، حيث يقول لهم: "**إذا اعترض أبناءكم وهم في طريقهم إلى العلم لصوصٌ... أتسكتون وتقعدون عن نجدتهم؟**"[1] وقد أُخّر المسند إليه وهو الفاعل (لصوصٌ) لتشويق القارئ له. والأصل قوله: (إذا اعترض لصوصٌ أبناءكم...).

وقد يقدّم المفعول به لغرض آخر، ففي قول الإبراهيميّ مبرّرا تسخير قلمه لمحاربة فرنسا: "**ولكن يسوء هذا القلمَ أن تتنزّى العروق الخفيّة حينا بعد حين بالظّلم.**"[2] تقديمٌ للمفعول به (القلمَ) على العبارة (أن تتنزّى العروق، وهي جملة فعليّة في محلّ رفع فاعل)، والغرضُ هو بيان مكانة القلم الذي يعبّر به عن لسان الإبراهيميّ وأفكاره التي يواجه بها مخطّطات عدوّه.

- **تقديم الجارّ والمجرور على أحد متعلّقاته:**

يمكن للجارّ والمجرور أن يقدّم على متعلّقه في الجملة، فيؤدّي غرضا يوضّح المعنى الدّلاليّ لمتعلّقه:

– **الخبر**: مثل قوله تعالى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الآية 12 من سورة يوسف. وقد حقّق تقديم (له) تخصيص هذا الحفظ ليوسف دون غيره.

ونجد مثل هذا التقديم عندما يتحدّى الإبراهيميّ الاحتلال وأزلامه في التصدّي للبدع والمنكرات التي تحارب الدّين، فيقول: "**وإنّا –إنْ شاء الله– لهذه المكائد لمتفطّنون، وإنّا على إحباطها لعاملون، وإنّا للحديث عن هذه المخزيات لعائدون.**"[3] وأصل الكلام: (إنّا لمتفطّنون لهذه المكائد، وإنّا لعاملون على إحباطها، وإنّا لعائدون للحديث عن هذه المخزيات.)، وقد آثر الكاتب تأخير الخبر عن شبه الجملة لمراعاة السّجع.

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 351.
[2] المصدر نفسه، ص 394.
[3] المصدر نفسه، ص 356، 357.

وفي غرض الاهتمام والعناية نجد قوله مؤنّبًا المعلّمين الذين تغافلوا عن حقيقة أنّهم قدوة للصّغار وأئمّة للكبار: "**إنّ كثيرًا منكم عن هذه الحقيقة غافلون.**"[1]، ففي العبارة تقديم للجارّ والمجرور (عن هذه الحقيقة) على خبر إنّ (غافلون) لغرض الاهتمام والعناية بهذه الحقيقة التي لا يرونها رغم أهمّيّتها.

– **الفاعل:** كقوله تعالى: ﴿**قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى**﴾ الآية 91 من سورة طه. ففي تقديم (إلينا) تخصيص رجوع موسى عليه السلام إلى عبدة العجل.

يحقّق تقديم الجارّ والمجرور على الفاعل في مقالات الإبراهيميّ عدّة أغراض منها التّخصيص، فحينما يعبّر عن حِرصَه على أن يعيَ المعلّمون مهمّتهم الأساسيّة في عملهم الشريف يقول: "**أخشى أن تغيبَ عن بصائركم حقيقةٌ ثابتةٌ.**"[2] وتقديم الجارّ والمجرور (عن بصائركم) على الفاعل (حقيقةٌ) جاء لغرض تخصيص هذه الخشية على البصائر، إذ يمكن أن تغيبَ المعلومة عن الذّهن بسبب النّسيان فتُذكرَ لاحقًا، لكن غيابها عن البصيرة يعني الجهل بها.

وقد يأتي هذا التّقديم لغرض آخر نجده في حديثه عن حلم الاستقلال الذي راود الجزائريّين بعد مشاركتهم في الحرب العالميّة الثّانية مع الحلفاء، حتّى"**علا نداؤه، وتجاوبت في الخافقين أصداؤه.**"[3] ولا شكّ أنّ الغرض هنا مراعاة الموسيقى.

– **الفعل:** كقول الله عزّ وجلّ:﴿**وَلله يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَات وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ**﴾ الآية 15 من سورة الرّعد. وتقديم شبه الجملة (لله) أفاد تخصيص العبوديّة لله وحده.

يوظّف الإبراهيميّ هذا التّقديم في الكثير من مقالاته، فعلى سبيل المثال يؤكّد تمسّكه برسالة التّعليم، فيقول بثقة وعزم: "**ففي هذه الغاية السّلميّة التي في تحقيقها نجتهد ونكدح، وللوصول إليها نعمل، وفي العمل لها نلقى الأذى، وفي الأذى فيه نلقى راحة الضّمير واطمئنان النّفس...**"[4] ونلاحظ في العبارة أربعة تقديمات للجارّ والمجرور على الفعل، فتقديم شبه الجملة (في تحقيقها)

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 296.
[2] المصدر نفسه، ص 296.
[3] المصدر نفسه، ص 370.
[4] المصدر نفسه، ص304.

على الفعل (نجتهد) مثلا، يريد به تخصيص اجتهاد الجمعيّة لتحقيق هذه الغاية دون غيرها، والشّيء نفسه بالنّسبة للتّقديمات الأخرى.

وفي سياق آخر، يتكلّم الإبراهيميّ عن المجازر المرتكبة في حقّ الجزائريّين، ويقول: "**وفي هذه الأيّام تجري حوادث صامتة الظّواهر...**"[1] ونلاحظ أنّ في العبارة تقديما لشبه الجملة (في هذه الأيّام) على الفعل (تجري)، أفاد التّحسّر من أيّام سودٍ عانى فيها الشّعب من قمع الاحتلال.

- **المفعول به:** كقوله عزّ مِنْ قائل: ﴿**فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ**﴾ الآية 28 من سورة الذّاريات. فكان خوف إبراهيم عليه السّلام من ضيوفه خاصّة لا من غيرهم.

ونجد مثل هذا التّقديم في معرض نصح الإبراهيميّ المسلمين بالتّيسير في تكاليف المهور، "**وأن يعتبروا في الزّواج حسنَ الأخلاق.**"[2] ونلاحظ تقديم (في الزّواج) على المفعول به (حُسْنَ) فأفاد التّخصيص، إذ يحصر الكاتب الأخلاق الحسنة في الزّواج لأنّ به يحصل المجتمع السّوي.

ومن أغراض هذا التّقديم التّشويقُ للمتأخّر، فمثلا يذكّر الإبراهيميّ بجهود أسلافنا في الاعتناء بالعلم، إذ اجتهدوا "**وأنشأوا بذلك كلّه للحضارة الإنسانيّة الشّاملة نموذجا من المدينة الفاضلة.**"[3] ونلاحظ تقديمين للجارّ والمجرور وهما (بذلك)، و(للحضارة) على المفعول به (نموذجا).

- **الصّفة:** كقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ**﴾ الآية 49 من سورة البقرة. فتقديم شبه الجملة (من ربّكم) على صفة (عظيم)، لفت الانتباه إلى مصدر هذا البلاء ألا وهو الله عزّ وجلّ.

يقدّم الإبراهيميّ الجارّ والمجرور على الصّفة في مقالاته، وعلى سبيل المثال يتحدّث عن صنف من المستشرقين لا هدف لهم من دراسة تاريخ الإسلام والمسلمين إلا لينقله إلى أمّته، "**ويضيف إلى معارفها بابًا من المعرفة جديدًا.**"[4] وجاء تقديم الجارّ والمجرور (من المعرفة) على الصّفة (جديدًا) لغرض لفت انتباه القارئ إلى هذه المعرفة الجديدة ألا وهي الثّقافة الإسلاميّة التي أفادت الغرب.

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 411.
[2] المصدر نفسه، ص 364.
[3] المصدر نفسه، ص 285.
[4] المصدر نفسه، ص 395.

وفي سياق آخر، ينفي الإبراهيميّ أن تكون للجزائريّ قابليّة الاحتقار، فيقول مفتخرًا: "**أباها لنا عرق في الإباء أصيلٌ.**"[1] فقدّم الجارّ والمجرور (في الإباء) على الصّفة (أصيل)، لغرض تخصيص العرق الجزائريّ بالأنفة والعزّة، وهذا ما يفسّر عدم استسلامه للاحتلال ولو بعد حين.

- **تقديم الظّرف على الخبر:**

إنّ لتقديم الظّرف على الخبر معنى دلاليّا يؤثّر على نفسيّة القارئ، باستحضار الزّمان أو المكان، ففي قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ**﴾ الآية 127 من سورة الأعراف، تصوير لإحساس فرعون بجبروته، وقد حصل بتقديم الظرف (فوقهم) على الخبر (قاهرون).

ومن أمثلة ذلك كلام الإبراهيميّ عمّن ينزعج حينما يحلّ شهر رمضان، قائلا: "**إنّ أفضلَ يوم عنده أوّلُ شوّالَ.**"[2] وفي هذه العبارة تقديم لظرف المكان (عند) على الخبر (أوّلُ)، لغرض تصوير هذا النّفاق بفضح هؤلاء الفرحين بالعيد ليس شكرا لله، بل بانقضاء رمضان.

- **تقديم خبر كان على اسمها:**

يؤدّي تقديم خبر كان على اسمها عدّة أغراض كالتعظيم، والتّحقير، والتّخصيص، ففي قوله تعالى: ﴿**وَلَقَد أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إلى قَوْمِهِم فَجَاؤُوهُم بِالبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ الآية 47 من سورة الرّوم. ويظهر في تقديم الخبر التّوكيد في الامتنان على المؤمنين بهذا النّصر.

ومن أمثلة تقديم خبر كان على اسمها في مقالات عيون البصائر، ما جاء في معرض عتاب الإبراهيميّ بعض من ينشط في الجمعيّات المحلّيّة بسبب تقصيرهم، قائلا: "**ولو أنّهم – سامحهم الله – وجّهوا بعض اهتمامهم إلى حالة المدارس المادّيّة، لكان لعملهم أثرٌ يذكر.**"[3] وقد قدّم الكاتب خبر كان (لعملهم) على اسمها (أثرٌ)، لغرض تعظيم هذا العمل.

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 402.

[2] المصدر نفسه، ص 288.

[3] المصدر نفسه، ص 307.

وفي حديثه عن تدخّل الإدارة المحتلّة في شؤون الدّين، ودورها في اختيار المفتين ومنحهم الوظائف الدّينيّة يقول: "**ولولا السّياسة ما كان للمفتي الحنفيّ وجودٌ.**"[1] وفي العبارة تقديم خبر كان (للمفتي) على اسمها(وجود)، وهذا لغرض تخصيص هذا التّحقير للمفتي الحنفيّ.

ب-2- الاقتباس:

يتميّز أسلوب البشير الإبراهيميّ بالميل إلى الاقتباس بشكل يشدّ الانتباه، ولا يخفى على القارئ أنّ نثره مليء بتضمينه من آي القرآن الكريم ما يخدم فكرته بدقّة وفاعليّة. وتوظيفه لكلام الله عزّ وجلّ دليلٌ على إلمامه الواسع بكتب التّفاسير، وكلّ ما يتعلّق بعلوم القرآن التي خاضت في غريبه، وناسخه ومنسوخه، وأسباب نزوله، فضلا عن حفظه كتاب الله، ما أكسبه سلاسة وتلقائيّة في فهم معانيه وألفاظه. وإنّ ممّا لا شكّ فيه أنّ هدف الإبراهيميّ من الاقتباس –كغيره من البلغاء والشعراء– هو تأكيد المعنى، والإقناع، إذ "**أنّ سبب حماستهم في استخدام الاقتباس من المصدرين المقدّسين القرآن والحديث رغبتهم في تنوير كلامهم، فكلام الله نور وكلام رسول الله نور واقتباس الإنسان من هذين النّورين، أو من أحدهما يرفع من مقام كلامه ومستوى أدائه الفنّي.**"[2]

ويوظّف الإبراهيميّ الاقتباس في مقالاته لتمرير رسائل يوجّهها إلى كلّ الفاعلين في الوطن المسلوب آنذاك، فهو بذلك يخاطب الجزائريّ الثّائر لتحسيسه بواجباته، وتخويفه من عاقبة تقصيره مستعملا لغة المربّي، ويوبّخ الموالين للاحتلال موظّفا لغة التّهديد الممزوج بالسّخرية، ويتهجّم على سلطة الاحتلال بسلاح الحجّة والبيان.

– ففي مقام الواعظ المرشد، يربطُ الإبراهيميّ على قلوب أبنائه المعلّمين الذين تجنّدوا في صفوف التّعليم الحرّ، ويشجّعهم لأداء واجبهم تجاه الأمّة، فيذكّرهم بسنّة الله في خلقه قائلا: "**وإن أدري أقريب أم بعيد ما أوعد الله الظّالمين، ولكنّني أدري أنّ العاقبة للمتّقين**"[3] ونلاحظ من العبارة

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 76.

[2] بكري شيخ أمين، البلاغة العربيّة في ثوبها الجديد، علم البديع، دار العلم للملايين، ط7، بيروت، 2003، ص111.

[3] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص289.

اقتباسين، الأوّل هو يمثل قوله تعالى حين وعيده الكفّار: ﴿**فَإِنَّ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ**﴾ الآية 109 من سورة الأنبياء. والثّاني يمثّل الثّواب الذي أعدّه الله لعباده الصّابرين، وقد أخذه من قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ الآية 49 من سورة هود. والواضح في هذه المقاربة أن الإبراهيميّ جادّ في اعتبار مهمة المعلّم خطيرة في تلك الفترة من التاريخ.

ومن أمثلة الوعظ أيضًا، تأسُّفُ الإبراهيميّ على حالة التّخلّف التي أصابت أبناء الوطن، وحسبَه فإنّ الجيل السّالف هو الذي خلّف للجيل النّاشئ هذا الهوان، قائلا: "**ثمّ رجع بصره فإذا ذئاب تتخطّف، وصوالجة تتلقّف، وطفيليات أنبتها الدّهر في دمنته؛ ثمّ رجع البصر كرّتين فإذا أمامه مسافات ممّا قطع السّائرون...** "[1] ونلاحظ من العبارة اقتباسا من قوله تعالى حين دعا الإنسان أن يتدبّر في عظمة خلق الكون، ليدرك ضعفه: ﴿**الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ(3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ(4)**﴾ الآيتان 3و4 من سورة الملك.

وحينما يعدّد الإبراهيميّ إنجازات جمعيّة العلماء لصالح الأمّة، ويثمّن أعمالها، يؤكّد أنّه لا يمنّ على الشّعب هذا الفضل، فيقول: "**لا تريد من الأمّة على ذلك جزاء ولا شكورًا...** "[2] ونلاحظ في العبارة اقتباسا لقوله عزّ وجل حين امتدح عباده المحسنين بزكواتهم وصدقاتهم: ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا**﴾ الآية 9 من سورة الإنسان.

وحينما يعبّر عن واقع مرير مغاير لما يدعو إليه القرآن، يوظّف الاقتباس لكشف سياسة إدارة تعدّدت تدخّلاتها في الشّعائر الإسلاميّة إلى درجة التّحكّم في كلّ دقيقة من الدّين، وكأنّ لسان حالها يقول للجزائري: "**قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي للاستعمار...** "[3] وهذا اقتباس من قوله عزّ وجلّ آمرا رسوله صلّى الله عليه وسلّم أن يقول للكفّار:﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ الآية 162 من سورة الأنعام. وشتّان بين أمر الله وأمر السلطة الباطل.

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر،ص302.

[2] المصدر نفسه، ص347.

[3] المصدر نفسه، ص403.

ونجد مثل هذا التوظيف عندما ينادي ضمائر العرب والمسلمين ليهبّوا للذّود عن فلسطين، قائلا: "**فلئن أخذها اليهود منّا ونحن عصبة إنّا إذاً لخاسرون.**"[1] وقد اقتبس الكاتب من من قوله تعالى حين ادّعى إخوة يوسف –عليه السّلام– حرصهم على أخيهم، ليقنعوا أباهم بإرساله معهم: ﴿**قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ**﴾ الآية 14 من سورة يوسف. والفرق بين القولين أنّ الإبراهيميّ حريص على فلسطين حقّا، أمّا إخوة يوسف فكان كلامُهم حقّا أرادوا به باطلا.

–عندما يريد الإبراهيميّ التّوبيخ ينتقي من القرآن الكريم ما يُذِلُّ المَعنيَّ بهذا التوبيخ، فمثلا يهاجم رجال الزّوايا الذين خضعوا للاحتلال خوفا منه وطمعا في كسب رضاه، فيقول: "**بل الواقع أنّهم ازدادوا تعلّقا به وطاعة له، بقدر ما أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف...** "[2] وقد اقتبس الكاتب هذه العبارة من قوله تعالى: ﴿**الَّذِى أَطْعَمَهُم مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُم مِنْ خَوْفٍ(4)**﴾ الآية الرابعة من سورة قريش. وما أبلغ الكاتب حين يصوّر ذلّ المنقادين وعبوديّتهم للاحتلال الذي يرونه في مقام الإله.

وفي أمثلة التّوبيخ أيضا قوله عن العرب الغافلين:"**أفكّر في قومي العرب فأجدهم يتخبّطون في داجية لا صباح لها، ويفتنون في كلّ عام مرة أو مرّتين، ثم لا يتوبون ولاهم يذّكرون**"[3] وقد اقتبس من قوله تعالى عن المنافقين والكفّار غفلتهم عن ابتلاء الله لهم في الدّنيا: ﴿**أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَاهُمْ يَذَّكَّرُونَ**﴾ الآية 126 من سورة التّوبة.

ويذمّ الإبراهيميّ أماكن إقامة الولائم والموالد والحفلات، بسبب ما يحدث فيها من منكرات تجذب إليها شياطين الإنس والجنّ، قائلا "**فإنّ الشّياطين لا تنزّل إلا على كلّ أفّاك أثيم.**"[4] وهذا اقتباس من قوله –عزّ من قائل– حين ذمّ الشّعراء المنافقين: ﴿**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ(221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ(222)**﴾ الآيتان 221و 222 من سورة الشّعراء.

وفي السّياق نفسه، يخصّ الإبراهيميّ العمالة الوهرانيّة بالتهجّم، بسبب تفشّي هذه الظّاهرة بها أكثر من غيرها، حيث أنّ كلّ ما يقع فيها–حسبه– منكرٌ وينافي الشّرع، حيث يصفها بأنّها "**رجسٌ من**

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص504.
[2] المصدر نفسه، ص440.
[3] المصدر نفسه، ص546.
[4] المصدر نفسه، ص354.

عمل الشّيطان."[1] وهذا اقتباس من قوله سبحانه وتعالى في تحريم الخبائث: ﴿**يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ الآية 90 من سورة المائدة.

– وحينما يخاطب الإبراهيميّ الاحتلال، يستعمل الاقتباس ليسخر من إدارته التي تخترع الأكاذيب وتصدّقها، ككذبة (الجزائر فرنسيّة)، فيقول: "**كبرت كلمة تخرج من أفواه هؤلاء المستعمرين الجبّارين...**"[2] وهذا اقتباس من قوله سبحانه عن افتراء النّصارى بأنّ لله ولداً:﴿**مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاّ كَذِبًا**﴾ الآية 5 من سورة الكهف.

وفي سياق آخر، يتهجّم على الإدارة الزّاعمة أنّها لائكيّة، ولكنّها تتصرّف في الدّين الإسلاميّ بهواها، متسائلا: "**فبماذا تفسّر المحافظة على الإسلام؟ أبابتلاع أوقافه؟ وأكلها أكلا لمّا؟**" وهذا اقتباس من وعيد الله عزّ وجلّ من يغتصبون حقوق الغير ويتعدّون على أملاكهم كالمال والميراث بقوله: ﴿**وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا**﴾ الآية 19 من سورة الفجر.

ب-3- القصر:

إنّ أسلوب القصر "**ضربٌ من الإيجاز والتّأكيد في اللّغة**"[3] ولئن كان "**الاختصاص أو التخصيص هو الغرض الأساسيّ للقصر**"[4]، فإنّ له أغراضًا أخرى كالمبالغة والمدح والذّمّ والتّعريض، فقوله عزّ وجلّ: ﴿**هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إلاَّ الإِحْسَانُ**﴾ الآية 60 من سورة الرّحمان، قد أدّى غرض مدح المحسنين فضلا عن تخصيص هذا المدح لهم دون غيرهم.

يُكْثر الإبراهيميّ من استعمال أساليب القصر في مقالاته لتحقيق هذه الأغراض:

– فمن أجل الذّمّ، يقول عن حكومة الاحتلال: "**فإنّ هذه الحكومة لا تعمل عملاً إلاّ وله غاية وعاقبة، ثمّ لا تكون الغاية إلاّ هدما لركن من أركان ديننا...**"[5]والغرض من أسلوبي القصر هو ذمّ

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص355.
[2] المصدر نفسه، ص387.
[3] عبد المتعال الصّعيدي، البلاغة العالية: علم المعاني، ص47.
[4] مختار عطيّة، التقديم والتأخير ومباحث التراكيب بين البلاغة والأسلوبية، ص83.
[5] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص176.

الحكومة المحتلّة بتخصيصها دون غيرها بقيامها بأعمال دنيئة تعود بالخسارة للأمّة.

ونجد غرض الذّم أيضًا، حينما يتحدّث عن مهازل الحكومة في تسيير أمور الحجّ، وتماديها في التدخّل في هذه الشّعيرة، فيقول: "**ولا يرضي أهواءَهم الطّاغية إلاّ بفرض السّيادة على الأرواح والتّحكّم فيما بين العباد وبين خالقهم.**"[1] وهو قصر صفة على موصوف بالنّفي والاستثناء، حيث قصر الكاتب صفة إرضاء الأهواء على فرض السيادة التي جاءت موصوفا.

ويفتي الكاتب ببطلان كلّ ما تقرّره حكومة الاحتلال في شؤون الدّين، فيناقض رأي المفتي العميل، فيقول: "**ولا يخالف فيه إلاّ العاصميّ...**"[2] ويقصد أنّ فتواه صحيحة وواضحة لا يخالفها إلا جاهل، مخصّصا هذا المفتي بالجهل. وهو قصر صفة على موصوف بالنّفي والاستثناء، حيث قصر الكاتب صفة المخالفة على العاصميّ وهو الموصوف.

وفي السّياق ذاته ، يقول: "**وما الدّستور الجزائريّ الأبتر إلاّ أحبولةٌ من تلك الأحابيل؛ وما المجلس الجزائريّ إلاّ سليل للمسلول...**"[3] وفي العبارة قصرًا موصوفٍ على صفة بالنّفي والاستثناء، حيث قصر الكاتب في الأوّل الدّستور وهو موصوف على الأحبولة وهي صفة، وقصر في الثّاني المجلس وهو موصوف على كلمة السّليل وهي صفة.

وكذلك عند كشفه مأرَب إدارة الاحتلال في انتقائها رجال الدّين للتّوظيف على أساس الولاء لا الكفاءة، إذ يقول: "**...وإنّها في حقيقتها مصائد لا وظائف.**"[4] وهو قصر موصوف على صفة بالعطف بـ (لا)، حيث قصر الوظائف الدّينيّة (الضمير المتّصل "ها") على المصائد وهي صفة.

– ونجده يستعمل القصر من أجل المدح، كقوله في جمعيّة العلماء: "**وما جمعيّة العلماء إلاّ الأمّة المسلمة، وما أعمالها إلاّ تثبيت الإسلام.**"[5] وقد ورد أسلوبا قصر لمدح جمعيّة العلماء بذكر أعمالها الجليلة الخادمة للدّين، كالتكلّم بضمير الأمّة والذّود عن حمى الإسلام.

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 56.

[2] المصدر نفسه، ص 97.

[3] المصدر نفسه، ص 98.

[4] المصدر نفسه، ص 75.

[5] المصدر نفسه، ص195.

ويثني الكاتب على جهود جمعيّة العلماء في تحرير العقول من الجهل، فيقول: "**لا يقوى عليه إلاّ العلماء الرّبّانيّون المصلحون...**"[1] وهو قصر صفة على موصوف بالنّفي والاستثناء، حيث أنّ القوة صفة المقصور، والعلماء موصوف وهو المقصور عليه.

وينفي عن جماعة المسلمين تهمة الكيد للإسلام – كما زعم الكذّابون– فيقول:"**...وجماعة المسلمين لا تكيد لدينها بل تنصح وتسدّد وتقارن...**"[2] وهو قصر موصوف على صفة بالعطف بـ (بل)، حيث قصر جماعة المسلمين على النّصح والتّسديد والمقارنة، وفيه مدح لهم.

– ونجده يستعمل القصر من أجل التّأكيد، كقوله في المساجد : "**وما جعل القرآنُ المساجدَ لله إلاّ لتكون منبعا لهدايته.**"[3] ويفيد القصر التّأكيد على رسالة المسجد وهي نشر الدّين الإسلاميّ.

وعندما يوضّح سبب تهجّمه على الأئمّة الموظّفين لدى الحكومة المحتلّة –وهو الحرص على هذه الوظيفة من أجل المرتّب لا غير– يقول: "**وإنّما نريد لهم تثبيته واستحقاقه بشرف...**"[4] ولمّا قصر الكاتب الإرادة وهو موصوف على التّثبيت والاستحقاق وهي صفة، كان القصرُ قصرَ موصوف على صفة باستعمال أداة إنّما.

وحينما ينفي وجود نعرة العنصريّة بين العرب والبربر، يقول مؤكّدا: "**وإنّما هم جزائريّون جمعهم الإسلام على تعاليمه...**"[5] وهو قصر موصوف على صفة بإنّما، حيث قصر الكاتب العرب والبربر – وهو الضّمير هم– الذي جاء موصوفا على الجزائريّين وهو صفة، ليؤكّد على اللّحمة القويّة التي تدعم أواصر القرابة والمحبّة بين الجزائريّين.

– ونجده يستعمل القصر من أجل التّعريض، كقوله: "**وما أعمارنا في عمر الإسلام إلاّ دقيقةٌ من دهر.**"[6] وقد جاء أسلوب القصر لغرض التّعريض بقِصَرِ حياة الإنسان الفرد أمام حياة الأمّة.

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 34.
[2] المصدر نفسه، ص 75.
[3] المصدر نفسه، ص204.
[4] المصدر نفسه، ص 158.
[5] المصدر نفسه، ص 188.
[6] المصدر نفسه، ص164.

– ونجده يستعمل القصر من أجل المبالغة، كقوله مخاطبا الطّلبة: "**إنّما عقولكم أسلحة للحرب الفاصلة بين الخير والشّرّ**."[1] فقد بالغ الكاتب في حصر السّلاح في العلم، إذ أنّ أسلحة الحرب لا تقتصر على العقول فحسب، بل يمكن أن تكون مالا أو عدّة أو عتادا أو إيمانا...

ب-4- الإيجاز* والإطناب:

إنّ "**الإيجاز والإطناب يُحتاج إليهما في جميع الكلام وكلّ نوع منه؛ ولكلّ واحد منهما موضع؛ فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه؛ فمن أزال التّدبير في ذلك عن جهته، واستعمل الإطناب في موضع الإيجاز، والإيجاز في موضع الإطناب أخطأ**."[2]

وتلتقي في نثر الإبراهيميّ هاتان السّمتان المتمايزتان، وهذا دليل على تأثّره بكلام الله، وحديث رسوله –صلّى اللّه عليه وسلّم– ونثر العرب وشعرهم. فنجده لمّا يريد الاختصار يستعمل الإيجاز لدوافع عدّة منها:

– تحصيل المعنى باللّفظ القليل، كقوله: "**فمن أين نلتمس العدل فيها؟ أمن فرنسا؟...**"[3]، عوض أن يقول (فمن أين نلتمس العدل فيها؟ أنلتمسه من فرنسا؟...)، فالإبراهيميّ في هذه العبارة تفادى الإكثار في الكلام لتجنّب التّكرار لا سيما أنّ المعنى المراد مفهوم.

وعندما ينتقد تقرير المفتي العاصميّ المنحاز إلى سلطة الاحتلال، يقول:"**واسأل العرّافين: لو لم يكن العاصميّ مفتيًا، أو لو عزل عن الإفتاء، أكان يرى هذا الرّأي؟ يقول كلّ عرّاف: لا**."[4] ونلاحظ أنّ في العبارة إيجاز حذف في قوله (يقول كلّ عرّاف: لا) وتقديره: (يقول كلّ عرّاف: لا، لن يرى هذا الرّأي). واكتفى الكاتب بكلمة(لا)، وقد أدّت المراد المطلوب، أمّا قرينة الحذف فلفظيّة ظهرت في صيغة السّؤال.

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص462.

*هو نوعان: إيجاز القِصَر، ويكون بتضمين العبارات القصيرة معاني قصيرة من غير حذف. وإيجاز الحذف، ويكون بحذف كلمة أو جملة أو أكثر مع قرينة تعيّن المحذوف.

[2] أبو هلال العسكري، الصّناعتين، تح: علي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربيّة، 1952، ص190.

[3] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص411.

[4] المصدر نفسه، ص89.

وكذلك في دعوته العرب إلى الاتّحاد من أجل تحرير فلسطين، قائلا: "**إنّ الصّهيونيّة وأنصارها مصمّمون، فقابِلوا التّصميم بتصميم أقوى منه...**"[1] ونلاحظ في العبارة إيجاز حذف في قول الكاتب (مصمّمون) ويقصد (مصمّمون على التشبّث بأرض فلسطين).

– تجنّب الاشتغال بالتّصريح بالمحذوف الذي قد يُفضي إلى تفويت أمْرٍ مُهِمّ، كقوله مخاطبا الفرنسيّين الذين تنكّروا لمساعدة الشّعب الجزائري في الحرب العالميّة الثانية، بمقابلة الإحسان بالتقتيل: "**ويومئذ تدعونه، فلا تجدونه.**"[2] والملاحظ أن الإبراهيميّ استعجل النّتيجة السّلبيّة، فحذف عبارة كاملة، وهي:(ويومئذ تدعونه لكي يمدّكم بيد العون كما فعل بالأمس، فلا تجدونه).

ومثل هذا استنكاره لتعسّف ولاة الجزائر المتعاقبين في قضيّة حرّيّة المساجد، قائلا: "**ومن لم يضرّ منهم في السّلب لم ينفع في الإيجاب. وكم ترك الأوّل للآخر؟**"[3] وفي العبارة إيجاز حذف في قوله (وكم ترك الأوّل للآخر؟) والمراد (وكم ترك الوالي الأوّل من قرارات تعسّفيّة للوالي الآخر؟).

– إرادة تحريك النَّفْس وإشغالِها بالإبهام الذي يتبعه البيان، كقوله في ختام كلامه عن واجبات عرب المشرق تجاه فلسطين: "**أمّا عرب الشّمال الإفريقيّ...**"[4] فقد تعمّد ترك بيان شأن عرب الشّمال الإفريقيّ مع فلسطين إلى المقال التّالي الذي تحمل عنوانَه هذه العبارةُ، حتى يكون البيان أوقع وأثبت في النفس.

– إرادة العموم، كقوله تعليقا على احتلال فلسطين: "**ومع ذلك فقد رضينا ورضي العرب...**"[5] وقد أطلق الإبراهيميّ هذا الرّضا ولم يخصّصه، ليبرز استسلام العرب التّامّ لليهود ومؤيّديهم.

وعندما يدافع عن الفتح الإسلاميّ، ينفي عنه تهمة الاعتداء على الغير، إذ احترم الفاتحون اليهودَ والنّصارى المسالمين، فيقول: "**فالإسلام في إبّان قوّته، وعنفوان فورته تعرّف إلى الدّينين بالخير**

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص495.
[2] المصدر نفسه، ص423.
[3] المصدر نفسه، ص251.
[4] المصدر نفسه، ص518.
[5] المصدر نفسه، ص521.

والحقّ والعدل والإحسان، وأبقى على الدّماء والعقائد والمعابد."[1] وفي العبارة إيجازا قِصَر، الأوّل حين عدّد الكاتب سبل تعارف الإسلام مع اليهود والنّصارى -وهي الخير والحقّ والعدل والإحسان- دون ذكر السّبل الأخرى كالتّسامح والحرّيّة الدّينيّة والمساواة والأمن... أمّا الثّاني ففي قوله (وأبقى على الدّماء والعقائد والمعابد)، ولم يذكر مثلا المحافظة على الدّيار، وحقّ المواطنة، واحترام المواثيق، وحسن الجوار...

- مراعاة تناظر الفواصل، كقوله:"**إنّ من تركت وراك، لم يحمد الكرى فهل حمدت كراك؟**"[2]

والملاحظ أنّ الكاتب قد حذف الهمزة من كلمة (وراءك) ليراعيَ السّجع، فلو قال:(إنّ من تركت <u>وراءك</u>، لم يحمد الكرى فهل حمدت <u>كراك</u>.) لفقدت العبارة موسيقاها.

كما نجد الإبراهيميّ حينما يريد زيادة فائدة الكلام، يستعمل أسلوب الإطناب، ليس من أجل الإطالة والحشو اللّذين يبعثان الملل إلى نفس القارئ، بل لدوافع مختلفة تخدم المعنى، وتسدّ أيّ ثغرة قد تكون في مبنى النّصّ، "**فبينما يُذكر الخاصّ ويتبعه العامّ أو يُذكر العامّ ويتبعه الخاص أو يورد الإبهام متبوعا بالإيضاح فإنّنا لا نجد غاية لذلك سوى التّفصيل والإيضاح اللذين يحملان قيمة بلاغيّة تدفع مظنّة التطويل بغير فائدة، وتثبت للخطاب غايته.**"[3] ومن أمثلة الإطناب في مقالات عيون البصائر:

- تقديم المعنى الواحد في صورتين مختلفتين، إحداهما مبهمة والأخرى موضحّة. مثل قوله: "**وعهدا لأولئك الإخوان أنّي ما جفوت ولا غفوت، وأنّي لم أزل – منذ افترقنا- أتسقّط أخبارهم من الصّحف ومن السّفار.**"[4] والملاحظ أنّ الكاتب قد أورد معنى عدم نسيانه لأصدقائه بعبارتين مختلفتين هما: (ما جفوت ولا غفوت)، و(أتسقّط أخبارهم من الصّحف).

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص153.

[2] المصدر نفسه ، ص658.

[3] مختار عطيّة، الإطناب في القرآن الكريم دراسة بلاغيّة، دار الجامعة الجديدة للنّشر، الإسكندرية، 2008، ص75.

[4] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص651.

– ذكر الخاصّ بعد العامّ ليستقر المعنى في النفس أحسن استقرار، فإن المعنى إذا ألقي على سبيل الإجمال كان مبهما، فتتشوّق نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح. ومثال ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ الآية 4 من سورة القدر، ففي الآية تخصيص لجبريل عليه السّلام وهو من الملائكة، بغرض إثبات منزلته الرّفيعة عند الله تعالى.

ونجد مثل هذا في قول الإبراهيمي ناصحا: "**والقرآنَ القرآنَ! تعاهدوه بالحفظ، وأحيوه بالتّلاوة، وربّوا ألسنتكم بالاستشهاد به في اللّغة والقواعد، وعلى الاستشهاد به في الدّين والأخلاق وعلى الاستظهار به في الجدل، وعلى الاعتماد عليه في الاعتبار بسنن الله في الكون.**"[1] فكلّ ما جاء بعد الجملة (والقرآن القرآن)، مفصّل وموضّح لما يجب القيام به تجاه كتاب الله عزّ وجلّ.

ويذكر الإبراهيميّ مآسي الشّعب الجزائري إبّان الحرب العالميّة الثّانية، فيقول: "**أمّة كالأمم حلّت بها ويلات الحرب كما حلّت بغيرها، وذاقت لباسَ الجوع والعري والخوف، وتحيّفَت الحربُ أقواتَها وأموالَها، وجرّعت الثّكلَ أمّهاتِها واليتمَ أطفالَها، وأكلت شبابَها، وقطعت أسبابَها، وصُلّيت نارَ الحربِ ولم تكن من جناتها...**"[2] وقد ذكر الكاتب ما يعانيه الشّعب وهي ويلات الحرب ، ثمّ خصّص بذكر هذه المآسي وهي: الجوع والعري والخوف والثّكل، واليتم... فالإطناب جاء بذكر الخاصّ بعد العامّ.

ويصف حيلةَ الشّيطان في خداع أهل البدع والأهواء في عبادة الوثن، قائلا: "**بل يصوّره لهم إلها متصرّفا في الكون، متصرّفا في النّفع والضّر والرّزق والأجل بين عباد الله...**"[3] ولقد ذكر الكاتب في البداية اعتقاد الجهلة أنّ وليّهم الصّالح له القدرة على التصرّف في الكون وهذا يفيد العموم، ثمّ خصّص هذا التّصرّف بذكر بعض مظاهره كالنّفع والضّرّ والرّزق والأجل. فالإطناب جاء بذكر الخاصّ بعد العامّ.

– توكيد المعنى بالتّكرار، إذ يكون وقع الكلام أكثر تأثيرا على نفس القارئ. نحو قوله تعالى: ﴿القَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3)﴾ الآيات 1 و2 و3 من سورة القارعة،

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص218.

[2] المصدر نفسه ، ص370.

[3] المصدر نفسه ، ص355.

وجاء تكرار لفظ القارعة لتأكيد الإنذار على حلول هذا اليوم الموعود.

ومثل ذلك قول الإبراهيميّ: "**وبآية أنّ العالِمَ لا يعدّ عالما إلاّ إذا زاد في العلم شيئا، أو كشف من خفيّه شيئا، أو جلا من غامضه شيئا. ونفض –مع ذلك– على العلم من روح زمنه شيئا...**"[1] فلفظ (شيئا) المكرّر يدلّ على فضل العلماء، وعلى ضرورة الإسهام في العلم ولو بالشّيء القليل.

ويعلّق الإبراهيميّ عمّا جاء في تقرير المفتي العميل من تزييف للحقائق، مؤكّدًا على موضوعيّته حينما قرأ التّقرير العاصمي، فيقول:"**رجل طموح إلى المناصب، يركب لأجلها الصّعب والذّلول، ويستسهل في سبيلها إخراب البصرة وإحراق روما، وهو الحاجّ، الحاجّ فعلا، الحاجّ نيّة، أمير الحجّ الجزائريّ في إحدى الحجّات، الشّيخ محمّد العاصميّ المفتي الحنفيّ بالجزائر.**"[2] وقد كرّر الكاتب كلمة (الحاجّ) ثلاث مرّات وكلمة (الحجّ) مرّتين، وذلك تحسّرا منه على هذا الشّخص الذي لا يستحقّ مثل هذه المكانة.

ويذكّر اليهود بالعلاقات الطيّبة التي جمعتهم بالعرب في الماضي، لكنّهم تنكّروا لها، فيقول:"**أما وسعهم ما كانوا فيه من أخوّة العرب لهم، وعدل العرب فيهم، وفضل العرب عليهم، وانتصار العرب لهم حتّى يكفروا بذلك كلّه...؟**"[3] ونلاحظ أنّ الإطناب في العبارة جاء بتكرار كلمة (العرب) أربع مرّات، وذلك تلذّذا بذكرهم مقابل ذكر اليهود.

ويصف مساعي أعيان مدينة قسنطينة في فتح الجامع الأعظم لاستقبال الطّلبة المتهافتين إلى طلب العلم، ولكن عاملها رفض ذلك نكاية فيهم، فيقول: "**فلم يزد على أن ردّ عليهم بكلمات جوفاء من الطراز المألوف، وبوعوده من الطّراز المألوف أيضا... وبتنصّل من أوائل القضيّة وأواخرها مألوف أيضا... وبإحالة على مرجع أعلى منه، وهذا من المألوف أيضا، ثمّ ضرب للوفد موعدا بإرجاع الخبر، وهذا من المسكّنات المألوفة أيضا...**"[4] ونلاحظ إطنابا في العبارة بتكرار كلمة (المألوف) خمس مرّات، وذلك تحسّرا من الكاتب على هذا الظّلم والجوْر.

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص647.

[2] المصدر نفسه، ص70 ،71.

[3] المصدر نفسه ، ص502، 503.

[4] المصدر نفسه ، ص75.

ويتّهم الإبراهيميّ الغرب المحتلّ بالتّخطيط لضياع فلسطين، قائلا: "**ولكنّ الاستعمار الذي عقد العقدة لمصلحته، وأبى حلّها لمصلحته، وقايض بفلسطين لمصلحته، هو الذي يباعد بين أجزاء الإسلام لئلا تلتئم...**"[1] وفي العبارة تكرار يفيد تأكيد المعنى، وهو النّيّة المبيّتة التي في نفس الاحتلال حين يقدّم مصلحته على مصلحة غيره سيما المسلمين.

– ذكر العامّ بعد الخاصّ لتكميل اللّذّة بالمعنى من حيث العلم به لا على دفعة واحدة. ومثال ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿**يُبَصَّرُونَهُم يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ(11) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ(12) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ(13) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ(14)**﴾ الآيات من 11 إلى 14 من سورة المعارج. ففي هذه الآيات تدرّج من الخاصّ: الأبناء، والصّاحبة، والأخ، والفصيلة، إلى العامّ وهو النّاس جميعا، بغرض بيان استحالة فداء المجرمين بأيّ ثمن للنّجاة من العذاب.

ومثل هذا نجده في عظة الإبراهيميّ النّاس بمناسبة حلول رمضان، قائلا: "**فهذه عهود أتقدّم بها إلى نفسي وإلى إخواني وأبنائي المشايخ الوعّاظ، فعلينا جميعا أن نلتزمها في هذا الشّهر المبارك...**"[2] ففي العبارة إطناب، إذ تدرّج الكاتب في ذكر الخاص (نفسي، إخواني، أبنائي) إلى ذكر العام (الجميع) لإفادة العموم.

وحينما يتحدّث عن الحدود المادّيّة والمعنويّة التي تفصل الجزائر عن فرنسا، يقول: "**احتلّت فرنسا هذا الوطن بالقوّة، وبينها وبينه بحر فاصل، وبينها وبينه دينان متخالفان، وجنسان متضادّان، ولسانان متباينان، وبينهما – مع ذلك كلّه– أخلاق متنافرة، واجتماعيّات متغايرة، بل بينهما شرق وغرب بكلّ ما بين الشّرق والغرب من فروق.**"[3] ولقد ذكر الكاتب الاختلافات الموجودة بين الجزائر وفرنسا، وهي الجغرافيا، والدّين، والعرق، واللّغة، والأخلاق، والعادات، والتّقاليد، ثمّ عمّم بقوله (بل بينهما شرق وغرب بكلّ ما بين الشّرق والغرب من فروق)، وهذا إطناب بذكر العامّ بعد الخاصّ لإفادة العموم.

ويناجي الإبراهيميّ فلسطين المغصوبة، فيبرّئ الجزائريّ من مسؤوليّة التّفريط فيها، لأنّه مكبّل بقيود

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص494.

[2] المصدر نفسه، ص317.

[3] المصدر نفسه، ص168.

الاحتلال، فيقول: "...**فإن فرّط في جنبك، أو أضاع بعض حقّك، فما الذّنب ذنبه، وإنّما هو ذنب الاستعمار الذي يحول بين المرء وأخيه، والمرء وداره، والمسلم وقبلته.**"[1] ونلاحظ أن الكاتب تدرّج في كلامه من ذكر الأخ ثمّ الدّار –ويعني الأسرة– ثمّ القبلة –ويعني بها الأمّة الإسلاميّة جمعاء–

وهذا إطناب بذكر العامّ بعد الخاصّ لإفادة العموم.

–الاعتراض لتوضيح المعنى، نحو قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ الآية191 من سورة آل عمران. فالجملة (سبحانك) لا محلّ لها من الإعراب، جاءت للدّعاء.

وقد أورد الإبراهيميّ الاعتراض في كثير من المواضع، أذكر منها حديثه عن معاناة الحجّاج الجزائريّين من تعسّف الإدارة الفرنسية في المواسم الماضية، قائلا: "**كان المتفائلون يظنّون – وبعض الظنّ إثم– أنّ الحكومة تنفض يدها من مسألة الحجّ في هذه السّنة.**"[2]

وفي مثال آخر يقول: "**ولكنّ بعض رجالنا –سامحهم الله– لم يفهموا هذا المقصد الصّالح.**"[3] ونلاحظ اعتراضا بإيراد عبارة (سامحهم الله) التي تفيد الدّعاء.

– الاحتراس لدفع توهّم القارئ للشيء غير المراد، نحو قوله عزّ من قائل: ﴿**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾ الآية الأولى من سورة المنافقون. والجملة (والله يعلم إنّك لرسوله) لا محلّ لها من الإعراب، وتفيد الاحتراس ممّا يمكن أن يتوهّمه من يقرأ الآية دونها، إذ يعتقد أنّ العبارة (والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون) تكذيب لقول المنافقين (إنّك لرسول الله) وهذا باطل.

ومثل هذا قول الإبراهيميّ مدافعا عن الحكومات الإسلاميّة التي تغار على الدّين وترعى مصالحه:"**وإنّ من تسمّونهم رجال الدّين، تعيّنهم –في غير الجزائر– الحكومات الإسلاميّة أو جماعة المسلمين.**"[1] وفي العبارة إطناب بالاحتراس، إذ استعمل الكاتب الجملة (في غير

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص491.

[2] المصدر نفسه، ص55.

[3] المصدر نفسه، ص338.

[1] المصدر نفسه، ص75.

الجزائر)، من أجل دفع توهّم القارئ أنّ من يعيّن رجال الدّين بالجزائر هم جماعة المسلمين، وهذا غير موجود بسبب الاحتلال. فجاء الاعتراض لاستثناء الجزائر من هذه الحكومات الإسلاميّة.

وعندما يحكي عن ظروف إجراء المفاوضات حول إلغاء القرارات المجحفة في حقّ التّعليم العربيّ، يقول عن أحد المفاوضين: "**وضرب لي أجلا ضيّقا لأنّ الضّرورة – بزعمه– تقتضي الاستعجال.**"[1] وقد أورد الكاتب عبارة (بزعمه) ليصحّح الخطأ الذي قد يقع فيه القارئ حين يقرأ الجملة دونها، فيصبح المعنى وكأنّ الكاتب يؤيّد فكرة أنّ الضّرورة تقتضي الاستعجال، ولكنّ المعنى المقصود هو مراوغة هذا المفاوض.

– الإيضاح بعد الإبهام، ومثال ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿**فَلْيَنْظُرْ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ(5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ(6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ(7)**﴾ الآيات 5 و6 و7 من سورة الطّارق. ففي الآية الخامسة سؤال يحمل في ثناياه مجملا من القول مبهما يعني الله عزّ وجلّ به إعجازَ خلق الإنسان، ثمّ تأتي الآيتان الأخريان للإجابة عن السّؤال بغرض توضيح هذه المعجزة.

ويكذّب الإبراهيميّ ادّعاء السلطات الفرنسيّة بسهرها على تعليم الجزائريّين، قائلا: "**تمنّ فرنسا على مسلمي الجزائر، وتقول إنّها علّمت، وما علّمت، ولكنّها قلّمت...**"[2] وجملة (تمنّ فرنسا على مسلمي الجزائر) مبهمة مجملة، وضّحتها الجملة (وتقول إنّها علّمت).

ونجد مثل هذا الدّافع للإطناب حين يوصي الإبراهيميّ الأئمّة أن يغتنموا فرصة رمضان لتذكير النّاس بدينهم، وتحسيسهم بمكر عدوّهم، قائلاً: "**وعليهم أن يشرحوا للأمّة ((مظلمة القرن العشرين))، وهي هذه المعاملة المهينة التي تعامل بها الحكومة دين الإسلام ومعابده وأوقافه وشعائره من حجّ وصوم...**"[3] فجملة (مظلمة القرن العشرين) مبهمة مجملة، وضّحها وشرحها ما جاء بعدها.

– التّذييل بتقديم المعنى الواحد في صورتين مختلفتين، إحداهما مبهمة والأخرى موضّحة. نحو قوله تعالى: ﴿**وَللهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ الآية 115 من سورة

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص255.

[2] المصدر نفسه، ص249.

[3] المصدر نفسه، ص316.

البقرة. والعبارة (إنّ الله واسع عليم) تذييل لما سبق (ولله المشرق والمغرب)، والمراد به بيان سعة ملك الله عزّ وجلّ وعظيم تسييره لشؤون الكون.

ونجد التّذييل عندما أكّد الإبراهيميّ عزم الجمعيّة على مواصلة نضالها في قضيّة فصل الحكومة عن الدّين، فقال: "**وما زلنا نطالب بالحقّ، ونندّد بالباطل حتى يبلغ الكتاب أجله؛ وإنّ الله لمع الصّادقين.**"[1] فجملة (إنّ الله مع الصّادقين) تعقيب على الجملة السّابقة، تشتمل على معناها وتؤكّدها، بتأييد الله عزّ وجلّ لمن يطالب بحقّه.

وكذلك ما جاء في كلمته للأمّة، فنبّه إلى خطإ كلّ من ينتظر خيرا من فرنسا، فقال: "**وإنّ الاستعمار شرٌّ، ومحال أن يأتي الشرّ بالخير، ومحال أن يُجنى من الشّوك العنبُ.**"[2] فجملة (ومحال أن يُجنى من الشّوك العنبُ) تعقيب على جملة (ومحال أن يأتي الشرّ بالخير)، أكّد بها الكاتب استحالة الحصول على الخير من الاحتلال.

ب-5- الخبر والإنشاء*:

لئن تجاوزنا الوظيفة الأساسيّة للخبر وهي الإخبار، فإنّنا نلمح الصّلة الموجودة بين الأسلوب الخبريّ وغرضه البلاغيّ المجازيّ، الذي هو هدفُ الكاتبِ الجماليُّ. فقد أخرج البلاغيّون الخبر"**على خلاف مقتضى الظّاهر فيما يتعلّق بأضرب الخبر؛ فيُنزل غير السّائل منزلة السّائل، ويُنزل غير المنكر منزلة المنكر، ويُنزل المنكر منزلة غير المنكر، كما يضيفون إلى أغراض إلقائه الحقيقيّة أغراضًا أخرى مجازيّة بلغت عند بعضهم ثمانية عشر غرضًا.**"[1]

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص141.

[2] المصدر نفسه، ص321.

*- الخبر هو الكلام الذي يكون له مضمون يمكن أن يتحقّق أو لا يتحقّق. وله غرضان: فائدة الخبر، ولازم الفائدة. ينظر: توفيق الفيل، بلاغة التراكيب: دراسة في علم المعاني، مكتبة الآداب، القاهرة، 1991، ص13-20.

- الإنشاء هو ما لا يحتمل التّصديق والتّكذيب. وهو نوعان: الطلبيّ وهو ما يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطّلب، وأنواعه: التمنّي، والاستفهام، والأمر، والنّهي، والنّداء. وغير الطّلبيّ وهو ما لا يستدعي مطلوبا. ينظر: بكري شيخ أمين، البلاغة العربيّة في ثوبها الجديد: علم المعاني، ص71-73.

[1] مختار عطيّة، التّقديم والتّأخير ومباحث التّراكيب بين البلاغة والأسلوبيّة، ص 73.

ولقد عرف الإبراهيميّ كيف يوظّف الأساليب الخبريّة، سواءٌ المؤكّدة منها وغير المؤكّدة، حسبما تقتضيه حالة المخاطَب، إذ نجده يرمي من وراء ما يقوله إلى تنبيه القارئ إلى أنّه لا يخبر فحسب، بل يأمر أو ينهى، ويمدح أو يذمّ، ويعظّم أو يحقّر، ويعد أو يتوعّد، ويدعو، ويؤنّب، ويوبّخ، وينكر...

ففي قوله ردّا على من أصيبوا بداء التّبعيّة للمحتلّ: "**ويقول المتكلّمون بلسان القوّة الجبروت...إنّ الجزائر فرنسيّة.**"[1] يورد الإبراهيميّ هذا الكلام مؤكَّدا على لسان المحتلّ، ويقصد به عكس هذا الزّعم بأنّ الجزائر تابعة لفرنسا.

وفي قوله: "**إنّنا نريد لقضائنا حرمة ومكانة، ونريد لرجاله سمعة ومنزلة...**"[2] يعبّر عن أمله في إصلاح القضاء ورجاله، فأدّى الخبر هنا غرض التمنّي.

أمّا في قوله: "**أمّا الحقيقة التي يجب أن تعرفها أمّتنا من هذه المعركة...فهي أنّها صراع بين الإسلام والمسيحيّة.**"[3] يقصد أن يطلب من كلّ مسلم أن يعرف حقيقة هذا الصّراع، فكان غرض الخبر هنا الأمر، فكأنّه يقول: (اعرفوا هذه الحقيقة...).

وحينما يقول: "**وفّقنا الله جميعا إلى ما يقرّبنا إليه.**"[4] يريد أن يدعو الله تعالى للجميع بالتّوفيق، وكأنّه يقول:(اللهمّ وفّقنا جميعا...)، فغرضُ الجملة الخبريّة الدّعاءُ.

وفي قوله مناجيا فلسطين: "**لقد كُنتِ مباركةً على العرب في حاليْكِ، في ماضيك وفي حاضرك.**"[1] يقصد بهذا الخطاب تعظيم فلسطين بوصف مكانتها وفضلها على أمّة العرب والمسلمين، إذ تضمّ أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، وهي مسرى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

وفي قوله: "**العلمَ... العلمَ... أيّها الشّبابُ، لا يلهيكم عنه سمسارُ أحزاب...**"[2] نلاحظ أنّ الجملة

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص113.
[2] المصدر نفسه، ص129.
[3] المصدر نفسه ، ص271.
[4] المصدر نفسه، ص317.
[1] المصدر نفسه ، ص497.
[2] المصدر نفسه، ص350.

خبريّة منفيّة بأداة النّفي (لا)، مع أنّ المقصودَ النّهيُ، إذ أراد الكاتب قول: (أيّها الشّباب لا تسمحوا لسمسار أحزاب أن يلهيكم عن العلم...)، فكان غرض الخبر هنا النّهي.

وفي قوله مخاطِبا المعلّمين: "**أنتم حرّاس هذا الجيل الجديد، والمؤتَمَنون عليه، والقوّامون على بنائه.**"[1] وهذه الصّفات التي يصف بها الكاتب المعلّمين تشريف لهم، فجاء أسلوب الخبر هنا لغرض المدح.

وفي قوله: "**فإن وُجد في الأمّة من يخالفها اليوم فسيوافقها في الغد القريب، لأنّها تدعو إلى القرآن...**"[2] والملاحظ أنّ غرض الخبر هنا هو الوعد، لأنّ الكاتب في مقام الحديث عن تفاؤله خيرا في المستقبل القريب.

وفي قوله: "**وسنتمادى على مقاومتنا له، وسنبقى –كما كنّا–عاملين على تحرير ديننا....**"[3] يهدّد الكاتب هنا خصومَه بالمحاربة حتّى آخر رمق، فغرض الأسلوب الخبريّ في العبارة الوعيدُ.

لقد نوّع الإبراهيميّ من استعمالات الجمل الخبريّة في مقالاته حسب ضروب الخبر الثّلاثة، وحسب سياق كلامه ومقتضى حال المتلقي تجاه الخبر الذي يلقيه عليه.

– فإذا كان "**المتلقّي فيه خالي الذّهن عن مضمون الخبر، ويساق له الكلام خاليا من أيّ توكيد.**"[4] فالضّرب ابتدائيّ، ومن أمثلة ذلك ما جاء في معرض حديثه عن المضايقات التي تعرضت لها الجمعيّة، وتذكيره بدور جريدة البصائر في ميدان الدّعوة، إذ يقول: "**جريدة البصائر هي إحدى الألسنة الأربعة الصّامتة لجمعيّة العلماء...**"[5] والملاحظ أنّ الكاتب يورد هذه الجملة الخبريّة قصد التّذكير فلم يضطرّ إلى تأكيد هذه المعلومة. أمّا من حيثُ غرضُهُ فهو لازم الفائدة بسبب أنّ هذا الكلام تحصيل حاصل. وتجدر الإشارة إلى أنّ مثل هذا الضّرب موجود بكثرة، فاكتفيت بمثال واحد.

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص299.

[2] المصدر نفسه، ص195.

[3] المصدر نفسه، ص299.

[4] توفيق الفيل، بلاغة التراكيب: دراسة في علم المعاني، ص20.

[5] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص16.

– وإذا كان "**المخاطب متردّدا بمضمون الخبر الذي ألقي إليه، يلقى عليه الخبر مؤكّدا.**"[1] فالضّرب طلبيّ، ومن أمثلة ذلك استقباحه للخيانة، واستحقاره لمن يوالي العدوّ، فحينما يذكر مساومة الفرنسيّين جمعيّة العلماء مقابل الكفّ عن التصدّي لهم، يقول: "**إنّ بيع القلم واللّسان أقبح من بيع الجنْديّ لسلاحه...**"[2] وهو خبر طلبيّ لأنّه مؤكّد بأداة واحدة، وهي **(إنّ)**. ونلاحظ أنّ هذا التّأكيد قد أتى لمحو أيّ شكّ فيما قاله الكاتب، إذ أنّ الجهاد بالعلم لا يقلّ عن الجهاد بالسّلاح. وهذا لازم الفائدة لأنّ المخاطَبَ الواعي يعلم أنّ الخيانة لا تقتصر على المحارب فحسب.

وفي دعوته قادةَ الأحزاب أن يتّحدوا لخوض غمار السّياسة، يقول لهم: "**إنّ العمل النّافع للجزائر يبتدئ من الجزائر...**"[3] وهذا تأكيد لكلّ من يتردّد في العمل داخل الجزائر. فضرب الخبر هنا طلبيّ، وغرضه لازم الفائدة لأنّ القارئ يعلم أنّ هناك وجهتي نظر في هذا الموضوع، وهما العمل السّياسيّ في الدّاخل والعمل السّياسيّ في الخارج.

ومن أمثلة الضّرب الطلبيّ أيضا تأكيده على صعوبة طلب العلم في ظل الاحتلال، إذ يقول: "**إنّ طريق العلم محفوف بالعوائق...**"[4] فاستعمال الكاتب لأداة توكيد واحدة يعني أنّ غرضه هو لازم الفائدة لأنّه بصدد التذكير بهذه الصعوبة.

وكذلك لمّا يريد إبراز الهدف من أساليب محاربة الاحتلال للتّعليم العربيّ، يربطه بالإسلام قائلا: "**<u>أمّا</u> الحقيقة التي يجب أن تعرفها أمّتنا من هذه المعركة...فهي أنّها صراع بين الإسلام والمسيحيّة...** "[5] فضرب الخبر هنا طلبيّ لأن الكاتب استعمل أداة توكيد واحدة، وغرضه فائدة الخبر لأنّ وجوب معرفة هذه الحقيقة دليل على أنّ هناك من يجهلها.

وفي معالجته لأسباب تأخّر الشّباب عن الزّواج، يقول:"...**ولئن سألتهم ليقولن: كيف نتزوّج مع هذه الشروط المرهقة...**"[1] وضرب الخبر هنا طلبيّ لأنّ الكاتب استعمل أداة توكيد واحدة هي (نون

---

[1] رفيق خليل عطوي، صناعة الكتابة، دار العلم للملايين، لبنان، 1989، ص67.
[2] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص18.
[3] المصدر نفسه، ص334.
[4] المصدر نفسه، ص350.
[5] المصدر نفسه، ص271، 272.
[1] المصدر نفسه، ص324.

التوكيد المخفّفة)، وغرضه فائدة الخبر لأنّ تعجيل أو تأخير الزّواج له عدّة أسباب تتغيّر حسب الظّروف وثقافة المجتمعات منها الفقر، والتّبعيّة، والعادات، والتّقاليد.

وعندما ينصح الأئمّة بأداء مهمّتهم الأساسيّة وهي نصرة الإسلام والدّفاع عنه، يقول: "**علماء الدّين –إذا أصلحهم الله– هم حماة الدّين حقًّا...**"[1] ولقد استعمل الكاتب أداة توكيد واحدة وهي ضمير الفصل(هم)، وغرضه لازم الفائدة لأنّه تذكير بأمر يعلمه الجميع وهو أنّ علماء الدّين هم المدافعون عن الإسلام.

ولمّا يقرّر أنّ الاستعمار شرٌّ كلّه، ولا بدّ أن يزول، يقسم قائلا: "**والله والله، أليّةَ المسلم البرّ، لا يرجو الخير من الاستعمار إلا من خولط في عقله...**"[2] وقد وظّف (القسم) لتوكيد الخبر، وغرضه لازم الفائدة إذ يعلم كلّ النّاس أنّ لا خير في الاستعمار.

– وإذا كان "**المخاطب منكرًا تمام الإنكار لمضمون الخبر الذي أُلقي عليه، يلقى عليه الخبر بأكثر من أداة توكيديّة.**"[3] فالضّرب إنكاريٌّ. ومن أمثلة ذلك ذكرُ الإبراهيميّ ما جرى له مع أحد من رجال الحكم العسكريين، الذي توسّم فيه شيئا من اللباقة، إذ يقول معلّقا:"**وإنّ الإنصاف ليتقاضاني...أن أذكر له لطف الحديث وأدب الخطاب وتمجيد الصّراحة...**"[4] وهذا خبر إنكاريّ لأنّه مؤكّد بأداتين هما (إنّ) و(لام التوكيد). ونلاحظ أنّ الكاتب شدّد تأكيده على هذه الشّهادة العادلة التي قد تبدو غريبة في حقّ ألدّ أعدائه. ويبدو أنّ غرضه فائدة الخبر لأن القارئ يجهل هذه الخصال التي تميّز بها هذا الرّجل العسكريّ مع ما يحمله من معاني الوصف وشيء من المدح.

وكثيرا ما يؤكّد الإبراهيميّ كلامه بمؤكّدين اثنين، فمثلا يعبّر عن تحسّره على انحطاط الأمّة بسبب المنافقين، قائلا: "**وإنّا لنؤدّي اليوم ثمنه غاليا.**"[1] وقد استعمل الكاتب أداتي التوكيد (إنّ) و(لام الابتداء)، وغرضه لازم الفائدة ويحمل معنى التحسّر لأنّه يحلّل واقعا معيشًا بمرارة.

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص469.

[2] المصدر نفسه ، ص321.

[3] رفيق خليل عطوي، صناعة الكتابة، ص68.

[4] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص18.

[1] المصدر نفسه، ص210.

ويتأسّف ممّا آل إليه المسلمون من تشتّت نتيجة دسائس الاحتلال، فيقول: "...**فأصبحنا وإنّ الأخ ليقتل أخاه في سبيل قاتلهما معا...**"[1] فأكّد ما قاله بأداتي توكيد. أمّا غرضه فهو لازم الفائدة مع شيء من معنى التحسّر على هذا الوضع.

ويُدافع عن مكانة المرأة في الإسلام –رغم رفضه زجّها في مضمار الانتخاب حتّى تستوفي تعليما كاملا– قائلا: "**أمّا حكم الإسلام فسندمغ به حجج الجاهلين به في مناسبة أخرى.**"[2] وقد استعمل أداتي التّوكيد (أمّا) و(سين المضارعة)، وغرضه فائدة الخبر لأنّه بصدد إعلام القارئ بشيء مستقبليّ يجهل حدوثه.

وعند غضبه من محاولات بعض المفسدين إلهاء طلبة المعهد الباديسيّ عن طلب العلم، يقول: "**ويمينا بالذي طهّر المعهد، وأنزل في كتابه ألم أعهد، لنقطعنّ من هذه الفتنة دابرها ولنقعن من هذه الفئة مقيمها وعابرها...**"[3] فاستعمل أدوات توكيد هي(لام الابتداء) (نونا التّوكيد)، وغرضُه فائدة الخبر لأنّه وعيد مستقبليّ بما ستفعله الجمعيّة للمشوّشين عليها.

وعندَ مقارنته بين من يناضل بالكلمة ومن يناضل بالسّلاح، يقول: "**ألا إنّ فرسان الكلام والأقلام كفرسان النّزال والعراك...**"[4] والملاحظ استعمال حرف التّنبيه (ألا) للتّأكيد على هذه المقارنة، زيادة على حرف التوكيد (إنّ) فضرب الخبر إذن إنكاريّ. أمّا غرضه فهو لازم الفائدة لأنّ كلّ النّاس تعلم أن الجهاد يكون بكلّ الوسائل المتاحة.

ويعبّر عن أمنيته أن يتعاضد علماء الدّين لإعلاء كلمة الله، فيقول: "**أما والله لو أنّهم اجتمعوا وتذامروا...لأعادوا للإسلام قوّته وكماله...**"[1] فوظّف لتأكيد كلامه أداتي توكيد هما (أما) و(لام الابتداء). وهذا لازم الفائدة لأنّ النّاس كلّها تعلم أن في الاتّحاد قوةً.

أمّا في مقام الإصرار على تأكيد الكلام حول أمر يتطلّب الجدّيّة، فيستعمل الإبراهيميّ أكثر

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص472.

[2] المصدر نفسه، ص126.

[3] المصدر نفسه، ص232.

[4] المصدر نفسه، ص17.

[1] المصدر نفسه، ص345.

من مؤكّدين. فمثلا في إشادته بدور جامع الأزهر الرّائد في نهضة مصر على مرّ العصور، يقول: "**ولقد كان الأزهر في أدوار فساد الحكم في مصر... هو المئذنةَ التي يستشرف النّاس إلى سماع كلمة الحقّ منها...**"[1] ونلاحظ ثلاث أدوات توكيد وهي (لام الابتداء) و(قد التحقيقية) و(ضمير الفصل هو)، والغرضُ لازم الفائدة، ويحمل معنى المدح، إذ أنّ دور الأزهر في خدمة الدّين معلوم.

وفي تمجيده لذكرى رفيق عمره الشّيخ عبد الحميد بن باديس، يؤكّد على أواصر الأخوّة الأبديّة التي تربطهما، قائلا: "**فلقد – والله– كنّا إخوان صفاء، وما زلنا إخوان صفاء، وسنبقى إخوان صفاء.**"[2] ونلاحظ أنّ الإبراهيميّ أكثر من استعمال المؤكّدات لإبراز صدق هذه الشّهادة لشيخ العلماء ابن باديس، ففضلا عن استعمال سين المضارعة، فقد استعمل (لام الابتداء) و(قد)، و(القسم)، و(التّكرار). والغرض لازم الفائدة لعلم النّاس بأنّ الأصدقاء تجمعهم المحبّة والوفاء.

تؤدّي الأساليب الإنشائيّة في الكلام وظيفة ما، إمّا على وجه الحقيقة أو المجاز. فالحقيقيّة توصل المقصود بشكل مباشر، أمّا المجازيّةُ فتأتي بأغراضها المتنوّعة لتلبية حاجةٍ في نفس الكاتب مكنونةٍ، يوصلها للقارئ بطرق قد تبدو بسيطة التّركيب والبناء، لكنّها تخفي في ثناياها مدلولا يذهب بالمتلقّي بعيدا لفهم المعنى المراد، بأكثر دقة وجماليّة. وما يجب الإشارة إليه أنّ الحقيقة أوالمجاز يُعرفان من خلال السّياق الوارد فيه أسلوب الإنشاء.

- **الاستفهام:**

يعدّ الاستفهام "**من أكثر التّراكيب اللّغويّة الفنّيّة استدعاء للمثيرات عند المتلقّي، فهو يمارس إثارة الدّهشة النّاجمة عن قطع رتابة التلقّي المستكين، ورضوخ المتلقّي لخمول وطأة استقبال التّراكيب الجاهزة، ويمارس فعل المفاجأة التي تنتهك جمود التّوقّع لتنشأ جدليّة حيويّة حركيّة بين المبدع والمتلقّي عبر تركيب السّؤال، ذلك الذي يجعل المتلقّي فاعلا أصيلا في التجربة الإبداعيّة.**" [1]

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص567.

[2] المصدر نفسه، ص633، 634.

[1] عيد بلبع، أسلوبيّة السّؤال: رؤية في التنظير البلاغي، دار الوفاء، القاهرة، 1999، ص77.

ونجد الإبراهيميّ -كغيره من الكتّاب- في الكثير من المواطن، حين يسأل لا ينتظر جوابا، بل يقرّر حكما أو يبيّن فكرة أو يعرض رأيا، بشيء من التهكّم، أوالسّخرية، أو الحسرة، أو التّعجّب. ونراه غالبا ما يتساءل فيجيب مباشرة، "**ذلك أنّ المستفهم عن الشّيء قد يكون عارفًا مع استفهامه في الظّاهر عنه، ولكنّ غرضه في الاستفهام عنه أشياء.**"[1] ما يعني أنّ غرض الاستفهام ليس البحث عن الجواب، إنّما لإثارة ذهن المتلقّي ولفت انتباهه لما سيعرضه من أفكار. فمثلا حينما يسأل: "**ولكن أين الاستعمار من الإحسان؟ إنّ طالب الإحسان من الاستعمار كطالب النّسل من العقيم...**"[2] هل هو بصدد الشكّ في إحسان الاستعمار للشعوب التي احتلّها؟ قطعا لا، ولكنّه يريد تقرير هذه القاعدة التي لا تتغيّر أبدا، ألا وهي استحالة أن يأتي الإحسان من هذا المحتلّ الغاشم.

ويورد الإبراهيميّ الاستفهام لأغراض أخرى، فعلى سبيل المثال يدعو رؤساء الأحزاب إلى نبذ الفرقة والتّشتّت والخلافات المستمرّة، قائلا: "**فهل من يد جريئة تزيح ذلك الغطاء البغيض؟**"[3] ويفيد الاستفهام هنا تمنّي الكاتب اتّحاد الأمّة.

ويعبّر عن غضبه من تحكّم الاحتلال في كلّ صغيرة وكبيرة في الدّين، فيسأل: "**وكيف تبيح لنفسك التّدخّل فيما لا يعنيك من شؤون ديننا، ثمّ تحرّم علينا الدّخول فيما يعنينا من شؤون دنيانا؟**"[4] ومعنى الاستفهام هنا هو الإنكار والتّوبيخ على هذا التّصرّف المشين المعبّر عن فكره المتحجّر المبني على الظّلم والجَوْر.

ويلوم الجزائريّين الذين انساقوا وراء أهوائهم في اتّباع كلّ ما هو غربيّ، فيقول لهم: "**هل هذا كلّه إلاّ من آثار الاستعمار في نفوسكم، شعرتم أم لم تشعروا؟**"[1] ويفيد الاستفهام هنا معنيين هما النّفي والتّسوية، إذ يقصد الكاتب (ليس هذا كلّه إلاّ من آثار الاستعمار في نفوسكم سواء عليكم شعرتم أم لم تشعروا؟)

---

[1] أبو الفتح عثمان ابن جنّي، الخصائص، ج2، دار الكتب العلميّة ، بيروت، 2001، ص464.

[2] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص154.

[3] المصدر نفسه، ص340.

[4] المصدر نفسه، ص43.

[1] المصدر نفسه، ص48.

وحينما يسخر من المفتي العاصميّ، يتساءل: "**وأين العاصميّ ومن جرى مجراه من فقه أبي حنيفة ودقائقه وقياسه؟**"[1] ومعنى الاستفهام هنا تحقير العاصميّ المدّعي انتسابه إلى المذهب الحنفيّ، وتعظيم أبي حنيفة النّعمان صاحب المذهب الحنفيّ وهو منه براء.

ولكي يعبّر عن اندهاشه من ادّعاء فرنسا نشر العلم في مستعمراتها مع أنّها في الوقت نفسه تسنّ قانونا يمنع ذلك، يتساءل: "**فكيف تسيغه فرنسا (العالمة) وكيف تشرّعه فرنسا (المعلّمة)؟**"[2] ومعنى الاستفهام هنا التّعجّب من هذه المفارقة التّي تعبّر عن نفاق الفرنسيّين حيال تعاملهم مع قضيّة تعليم الجزائريّين.

ونجده يحاجج مفتيَيْنِ عميلين في قضيّة تسليم واستلام تسيير المساجد، فيقول لهما: "**أتظنّ أنّ عمل الحكومة في التّسليم لكما يعدّ توبة لها من الغصْب؟ أنتما موظّفان لا تملكان لأنفسكما حرّية، فكيف تحرّران المساجد والأوقاف؟**"[3] ومعنى الاستفهامين هنا الإنكار على حسن ظنّ المفتيين في الحكومة المحتلّة، بالإضافة إلى تكذيب هذه الحكومة في إجراء لن يرى النور أبدًا.

ويبرز الشّرخ الواسع بين الأمّة والاحتلال الذي سبّب في معاناته، بالسّؤال: "**أرأيتك هذا الاستعمار الذي نمارس منه الشّقاء ونتجرّع بسببه العلقم؟**"[4] ومعنى الاستفهام هنا التّقرير إذ يقصد الكاتب قول:(إنّنا نمارس من الاستعمار الشّقاء ونتجرّع بسببه العلقم).

أمّا حين يريد من الاستفهام الأمر، يقول عن قضيّة فصل الحكومة عن الدّين التي تماطلت فيها الإدارة: "**فهل عزمَتْ على قطع الذّنَب؟**"[1] أي (افصلي في القضيّة).

ويخاطب بغضب أولئك الأئمّة الحكوميّين ويتوعّدهم بالعقاب، قائلا: "**أيكون شفيعا للمسلمين عند ربّهم من يصلّي (للبايليك) ويقرأ الحزب (للبايليك) ويتردّد على أبواب الحكّام...لغير حاجة؟**"[2]

ومعنى الاستفهام هنا وعيد كل متآمر ومتعاون مع سلطة الاحتلال بعقاب الله عزّ وجلّ.

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص73.

[2] المصدر نفسه، ص79.

[3] المصدر نفسه، ص90.

[4] المصدر نفسه، ص184.

[1] المصدر نفسه، ص190.

[2] المصدر نفسه، ص205.

ومن أجل إظهار أساه من أخذ قضيّة بسيطة –وهي فتح مكتب لتحفيظ القرآن دون رخصة– بعدا أكبر من حجمه الطّبيعيّ، إذ تعرّض أصحابها إلى المتابعة القضائيّة، يقول: "...**أفي الحق هذا؟**"[1] ويفيد الاستفهام هنا معنى التّحسّر على هذا الظلم الذي طال الجزائريين.

وأختم أمثلة الاستفهام بهذا المثال الذي يؤدّى فيه الإبراهيميّ غرض التّشويق، إذ ينتقد فرنسا المحتلّة في معاملتها الجزائريّين بعنصريّة، فيخاطب الفرنسيّين قائلا: "**هل أتاكم نبأ أمّة تعيش في زمنكم، بغير أدوات الحياة في زمنكم؟**"[2] ويكمن التّشويق في حديثه عن نبأ هذه الأمّة ومعاناتها.

- **التّمنّي:**

يمثّل التمنّي شكلا من أشكال التّعبير الإنشائي الطّلبي، وهو يختلف عن الترجّي في كون الترجي "**ترقّب حصول الشّيء**"[3] ، أمّا أسلوب التّمنّي فهو "**طلبُ الشّيء المحبوب، وقد يكون ممكنا، وقد يكون مستحيلا**"[4]. فإذا كان مستحيل الوقوع سمّي حقيقيا، وإذا كان ممكن الوقوع فيجب أن "**لا يكون مما تتوقعه نفسك، وإلاّ كان ترجّيا**"[5]، وهذا النّوع من التمنّي يسمّى مجازيا.

ففي التمنّي الحقيقي نقرأ قوله تعالى:((**إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا**)) الآية 40 من سورة النّبأ. نلاحظ أنّ الكافر يتمنّى شيئا لن يتحقّق أبدًا. وفي قوله عزّ وجلّ: ((**فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**)) الآية 79 من سورة القصص. نلاحظ أنّ تمنّي أولئك الفقراء صعب التّحقيق ممّا جعلهم لا يتوقّعون حصوله، فالتمنّي هنا مجازيّ.

فمن أمثلة التمنّي الحقيقيّ في مقالات الإبراهيميّ، قوله تعليقًا على من يروّج أكذوبة الجزائر الفرنسيّة:"**لو أنّ البحر جفّ والتأمت حافّتاه، حتّى أصبحت الجزائر ربضا من أرباض مرسيليا، لما**

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص243.

[2] المصدر نفسه، ص414.

[3] فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، ص156.

[4] المرجع نفسه، ص156.

[5] المرجع نفسه، ص156.

كان لهذه الكلمة موضع في العقل ما دامت تلك الفوارق قائمة."[1] فلا البحر يمكن أن يجفّ، ولا ضفّتاه تلتقيان ولا الجزائر ستصبح ضاحية فرنسية، زيادة على فوارق الدّين والعرق والتّاريخ...

وكذلك حينما يثني على مناعة العرب الذين –رغم الجراح التي أنهكتهم– صمدوا أمام ظلم الاحتلال، قائلا: "...**هي آثار الخصائص الأصيلة في الجنس العربي، ولولاها لكان في الغابرين، وهي بقايا المزايا السّامية من الدّين المحمّديّ، ولولاها لختم به تاريخ طسم وجديس وعاد الأولى، ولو أنّ ما حلّ بهذه الأمّة حلّ أيسره بأمّة أخرى لانعكست فيها نظريّة داروين."[2]** ونرى جليّا أنّ هذه التمنّيات حقيقيّة لا يمكن وقوعها أبدًا.

أمّا التمنّي المجازيّ فقد يأتي لعدّة أغراض منها:

–إبراز المعنى الممكنِ الوقوعِ بصورة المستحيل، مثل قوله عن المعلّمين المتهاونين: "**ولو أنّهم –سامحهم الله– قاموا بواجباتهم أو ببعضها، لخفّفوا عنّا الكثير، وهوّنوا علينا العسير."[3]** فالكاتب يرجو أن يقوم هؤلاء بواجبهم – وهذا ممكن– فأخرج المعنى الممكن الوقوع بصورة المستحيل، فحقق وظيفة البلاغة والجمال معاً.

ونجد مثل هذا الغرض لمّا ينتقد بحسرة الإجراءات البيروقراطيّة التي تقابل طالب رخصة فتح مدرسة للتعليم العربيّ في الجزائر، وإن جاءت الرّخصة كانت محدوديّة الصّلاحية، فيقول: "**وليت المتاعَ بها طويل، ولكنّه متاع قليل."[4]** وقد أبرز الكاتب هذا التمنّي الممكن بأنّه مستحيل لكون الإدارة الفرنسيّة تعرقل مصلحة الجزائريّ دائمًا. وكذلك عندما يبرّر غضّ جمعيّة العلماء الطّرف عن بعض المآخذ التي يمكن أن تسجّل في حقّها –كالصّلاة خلف الأئمّة العملاء– بأخذ القدوة من الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– حين هادن الكفّار، فقال: "**ويا ليت قومنا يعلمون السرّ في مناجزته للشّرك، وإرجائه للخمر، أو في تقديمه للتّبنّي، وتأخيره للاسترقاق."[1]**

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص387.
[2] المصدر نفسه، ص403.
[3] المصدر نفسه، ص290.
[4] المصدر نفسه ، ص236.
[1] المصدر نفسه ، ص165.

-إبراز المعنى المستحيل في صورة الممكن الوقوع، مثل قوله معاتبا مصر على شراكتها مع الإنجليز في حفر قناة السّويس: "**فليتك تعاسرت بالأمس في حفر هذه القناة، وليتك تصنعين بها اليوم ما صنع العرب بمناة، فتوسعين هذه ردمًا، كما أوسعوا تلك هدمًا**..."[1] فالكاتب يتمنّى شيئا لا يمكن حدوثه، لأنّه ماض، فأبرزه ممكن الوقوع بتصوير هذه الأعمال كالهدم، والردم، والحفر...

ونجد مثل هذا الغرض عندما يفضح نفاق فرنسا في إعطائها حقّ الانتخاب للمرأة الجزائريّة، بينما حَرَمتها من أدنى حقوق الحياة، فيقول: "**وهلاّ فكّروا في تقوية عقلها بالعلم، وفي تقوية جسمها بالغذاء، وفي حفظ نسلها بالرّعاية، وفي تخفيف ويلاتها بالاهتمام**..."[2] وقد علم الكاتب أنّه من المستحيل لفرنسا أن تحقّق هذه الأماني فأبرزه في صورة الممكن أن يقع، بهدف وضع فرنسا أمام الأمر الواقع ألا وهو ظلمها للمرأة.

- **الأمر:**

إذا كان أصل الأمر "**طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام.**"[3] فإنّه يخرج إلى أغراض عديدة كالدّعاء من الأدنى إلى الأعلى، حيث أنّ "**العلاقة بين الأمر والدّعاء: الإطلاق والتّقييد لأنّ الأمر طلب على وجه الاستعلاء، فأُطلق عن قيده، ثمّ أريد به الطّلب على وجه التّضرّع.**[4] كقوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿**رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾ الآية 83 من سورة الشعراء. أمّا عند تساوي المرتبة فالأمر يؤدّي غرض الالتماس أو النّصح أو الإرشاد وغيرها، كقول الله عزّ وجلّ على لسان أحد إخوة يوسف: ﴿**اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ**﴾ الآية 9 من سورة يوسف.

ولقد استعمل الإبراهيميّ أسلوب الأمر بشتّى صيغه، كفعل الأمر، والمصدر النّائب عن فعل الأمر، واسم فعل الأمر، وقصد به هذه الأغراض حسب السّياق.

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص290.

[2] المصدر نفسه ، ص127.

[3] بكري شيخ أمين، البلاغة العربيّة في ثوبها الجديد: علم المعاني، ص96.

[4] سعود بن غازي أبو تاكي، صور الأمر بين التّنظير والاستعمال، دار غريب للطباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، 2005، ص58، 59.

فحينما يقول: "**اللّهم يا ناصر المستضعفين انصرنا، وخذ بنواصينا إلى الحق، واجعل لنا في كلّ غاشية من الفتنة ردءا من السّكينة...**"[1] فهو يقصد الدّعاء بصيغة فعل الأمر.

وحينما يوضّح للنّواب المسلمين دورهم في التّصدي لقضيّة فصل الدّين التي تماطلت الإدارة في الفصل فيها قائلا: "**فليفهم النّواب المسلمون هذا جيّدًا، وليحاسبوا ضمائرهم، وليعلموا أنّ الدّين لا مساومة فيه ولا مهاودة.**"[2] فهو يريد معنى الإرشاد والنّصح.

ولمّا يتحدّى الحاكمَ الإداريّ لمنطقة من مناطق الوطن، حين أوقف معلّم المدرسة لا لشيء سوى أنّه منتسب لجمعيّة العلماء، قائلا: "**...وليقع الاستعمار أو ليطر فإنّنا نتعلّم لغتنا وديننا، ولو في سمّ الخياط...**"[3] فهو يريد معنى التّخيير.

وعندما تحدّى السّلطة التي اتّهمت العلماء بممارسة السّياسة، فقال: "**فليكنْ ذلك، ولْنكن علماء وسياسيّين، ولنكن كلّ شيء ينفع أمّتنا ويحمي ديننا ولغتنا.**[4] ويفيد الأمر هنا معنى الإباحة.

وفي حديثه عن الظّلم المقنّن الذي يمارس على الجزائريّين، يقول: "**ابدأ بما شئت، واختم بما شئت، من النّظم والقوانين التي تساس بها الجزائر، تجدها كلّها دائرة في مبادئها وغاياتها على محور واحد، وهو احتقار المسلم الجزائريّ وبغضه...**[5] حيث يريد معنى التّسوية، إذ قصد (كل القوانين سواء، إذ هي ظالمة في حق الجزائريّين).

وعندما يستخفّ بعمّال إدارة البريد الذين يحتكرون وسائل الاتّصال، قائلا لهم: "**وإنّ لكلامنا عندكم شرحين، شرحا يمليه الحقّ وشرحا يمليه الباطل، فكونوا ما شئتم.**[1] يريد معنى التّهديد.

وحينما يهاجم الرّجلَ التهاميّ ذا الوجهين، قائلا له: "**ليس الإسلام بعشّك فادرج، وليست داره بدارك فاخرج.**[2] فهو يتعمّد إهانة هذا الشّخص وتحقيره.

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 15.

[2] المصدر نفسه، ص 70.

[3] المصدر نفسه، ص 245.

[4] المصدر نفسه، ص 27.

[5] المصدر نفسه، ص 403.

[1] المصدر نفسه، ص 432.

[2] المصدر نفسه، ص 466.

وفي رسالته إلى الغرب المتآمر على فلسطين يدعوهم فيها أن لا ينحازوا إلى اليهود، وأن يدعوا العرب والصّهاينة يتواجهون بجيشين متكافئي العدّة والعتاد، يقول لهم: "...**ثمّ اضمنوا لنا البحر أن لا يقذف بمدد، ونضمن لكم الصّحراء أن لا يتسرّب منها أحد، ولتبقوا أنتم ويهود العالم نظّارة متفرّجين**...[1] فأراد بأمره هذا معنى التّعجيز.

وفي مقام الوعظ يذكّر الإبراهيميّ بمعاني هجرة الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– ويدعو إلى أخذ العبرة منها، فيقول:"**وانظر إلى بدر والحديبية وعمرة القضاء تجدها تعبّر عن اتّجاه وتحويم...ثمّ انظر إلى أيّة ثورة تثيرها في النّفوس الحرّة آية ﴿إذ أخرجه الذين كفروا﴾**"[2].

- **النّهي:**

يفيد معنى النهي "**طلب الكفّ عن الفعل أو الامتناع عنه على وجه الاستعلاء والإلزام**"[3] وله صيغة واحدة هي الفعل المضارع المقرون بلا النّاهية الجازمة، نحو قوله تعالى: ﴿**ولاَ تَلْبِسُوا الحَقَّ بالبَاطِلِ وتَكْتُمُوا الحَقَّ وأَنْتُم تَعْلَمُون**﴾ الآية 42 من سورة البقرة. وقد يخرج هذا المعنى لتحقيق أغراض عديدة حسب مراد النّاهي، كالتّهديد، والتّيئيس، والتّحقير، والإرشاد، والتّوبيخ.

ولقد زخرت مقالات الإبراهيميّ بهذا الأسلوب، تماما مثل الأمر، إذ أنّ الآمر بالمعروف لا يكتمل دوره إلاّ بالنّهي عن المنكر، فكان الإبراهيميّ عليما بمواضع النّهي في مختلف مواضيع الرّاهن آنذاك، فلم يترك ظاهرة في المجتمع، أو سياسة انتهجها الاحتلال إلاّ وتعرّض إليها.

ومن أمثلة النّهي نجد:

– مناشدة الإبراهيميّ الأئمّة الموظّفين لدى السلطة المحتلّة بالحرص على قول كلمة الحقّ في الاستعمار، إذ يقول لهم: "**فلا تقفوا في طريقنا، ولا تكونوا عونا له علينا، وإنّنا لا نسكت حتّى نؤدّي حقّ الله فيه، وفيكم إن أبيتم إلاّ ذلك**..."[1] ويفيد النّهي هنا التّهديد.

– تأسّفه لشحّ الأغنياء في البذل لفائدة الجمعيّة التي تدفع رواتب المعلّمين الأحرار، فقال لهم: "**وإذا**

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 521.

[2] المصدر نفسه، ص 536.

[3] بكري شيخ أمين، البلاغة العربيّة في ثوبها الجديد: علم المعاني، ص102.

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 205.

لم يكن الغيث هاميًا، فلا ترجُ أن يكون النّبت ناميا."[1] ويفيد النّهي هنا التّيئييس.

– استياؤه من ظلم الاحتلال الذي يتدخّل في أمور الدّين، فقال على لسانه مخاطبا الجزائريّ: "**أنا أحق منك بالتّصرّف في دينك، فلا تدخل المسجد إلاّ بإذني، ولا تصلّ إلاّ من وراء إمامي، ولا تحجّ إلاّ برخصتي، ولا تصم إلاّ على رؤيتي، ولا تزكّ إلاّ بعد استشارتي، ولا تضع زكاتك إلاّ حيث أريد لا حيث تريد.**"[2] ويفيد النّهي هنا تحقير الاحتلال للجزائريّين والحطّ من قيمتهم.

– وصيّته معلّمي جمعيّة العلماء المنتشرين في أرجاء الوطن أن يتجنّبوا طرق التّدريس القديمة، وأن يعتنوا بالموادّ العلميّة والأدبيّة على حدّ سواء، فقال لهم: "**لا تعمّروا أوقاتهم كلّها بالقواعد، فإنّ العكوف على القواعد هو الذي صيّر علماءنا مثل« القواعد».**"[3] ويفيد النّهي هنا الإرشاد.

– عتابه الشّعب الجزائريّ على الهوان الذي حلّ به، بسبب سماحه للمحتلّ أن يتحكّم فيه كيفما شاء، فيقول له: "...**فلا تلمْهم، ونفسَك فلُم**..."[4] ويفيد النّهي هنا التّوبيخ.

- **النّداء:**

يعرّف النّداء على أنّه "**طلب المتكلّم إقبال المخاطَب عليه بحرف من حروف النّداء.**"[5] وحروفه: الهمزة، أيْ، أيا، هيا، وا. نحو قوله تعالى: ﴿**يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**﴾ الآية 12 من سورة مريم. والنّداء كغيره من الأساليب الإنشائيّة الطّلبيّة له عدّة أغراض تفهم من سياق الكلام. فالنّداء بقول: (يا فلان) مثلا ليس كالنّداء بقول: (يا الله). إذ إنّ الأوّل يهدف إلى إقبال المخاطب، بينما الثّاني يفيد الدّعاء.

ولقد وظّف الإبراهيميّ النّداء في مقالاته، وأراد هذه الأغراض التي تعدّت مجرّد طلب الإقبال، فمثلا حين يخاطب الشّباب الجزائريّ يقول له: "**يا شباب الجزائر هكذا كونوا !... أو لا تكونوا !...**"[1]

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 307.

[2] المصدر نفسه، ص 403.

[3] المصدر نفسه، ص 300.

[4] المصدر نفسه، ص 422.

[5] بكري شيخ أمين، البلاغة العربيّة في ثوبها الجديد: علم المعاني ، ص106.

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 587.

ويفيد النّداء هنا الإغراء بالتّحلّي بتلك الخصال الحميدة التي تخيّلها.

أمّا حين ينصح الأئمّة الموظّفين لدى السلطة المحتلّة بالحرص على قول كلمة الحقّ في الاستعمار، يقول لهم: "**أي أبنائي! إنّ هذا القلب الذي أحمله يحمل من الشّفقة عليكم، والرّحمة بكم والاهتمام بشؤونكم ما تنبت به الحبال وتنوء بحمله الجبال...**"[1] ويفيد النّداء التّحبّب والتّودّد.

أمّا عند استهانته بالحالمين بالوحدة مع فرنسا، والمنتظرين عطفها، والمستعصمين بأمل توبتها، يقول لهم: "**يا هؤلاء ! إنّ الاستعمار شيطان، وإنّ الشّيطان لكم عدوّ فاتّخذوه عدوًّا...**"[2] ويفيد النّداء هنا تحقير الاستعمار وأتباعه.

أمّا عند تحسّره من تعسّف وظلم الإدارة باحتكارها تسيير أمور الدّين، فيقول: "**واضيعتاه ! أفي الوقت الذي تطمح فيه أنظار الأمم إلى الاستقلال التامّ، يرسلها رئيس وزراء فرنسا صيحة إنذار، بأن لا حقّ لنا حتى في استقلال ديننا؟ !**"[3] ويفيد النّداء هنا الندبة.

ويتألّم من تخلّي العرب عن فلسطين فيقول:"**يا هوان فلسطين !... أيكون من ذوي الحقّ في بيعها تلك الدّويلات التي لم تخلق خلقا طبيعيّا وإنّما خلقتها المنافسات...**"[4] ويفيد النّداء هنا التّحسّر.

وفي تأنيبه العرب المخدوعين بكلام الإنكليز المعسول، يقول لهم: "**فيا ويحكم... أكلّ ذلك لأنّ الإنكليز أغنياء وأنتم فقراء؟ أو لأنّهم أقوياء وأنتم ضعفاء؟ كلاّ...**"[1] ويفيد النّداء هنا التّوبيخ.

ومجمل القول إنّ الإبراهيميّ قد استعمل مختلف التّراكيب اللّغويّة لأسباب إقناعيّة، وجماليّة، وعاطفيّة، ونفسيّة. وكلّما خرجت وظيفتها عن المعنى الأصليّ، انزاح إلى أغراض بلاغيّة أخرى تضفي على العبارة أحلى أبّهة، وعلى المعنى أكثر دقّة. فكان الإبراهيميّ عارفا لهذه الأغراض مجسّدا إيّاها في مقالاته حسب الموضوع المتناول.

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 292.

[2] المصدر نفسه ، ص 321.

[3] المصدر نفسه، ص 322.

[4] المصدر نفسه، ص 503.

[1] المصدر نفسه، ص 511.

الفصل الثّالث:

التّشكيل البلاغيّ في مقالات عيون البصائر

أ- المحسّنات البديعيّة وأسباب استعمالها في عيون البصائر.

أ-1-السّجع.

أ-2- الجناس.

أ-3- الطّباق.

أ-4- المقابلة.

ب-الصّور البيانيّة وأسباب استعمالها في عيون البصائر.

ب-1-التّشبيه.

ب-2-المجاز.

ب-3- الاستعارة.

ب-4-الكناية.

أ- المحسّنات البديعيّة وأسباب استعمالها في عيون البصائر:

تُعَدُّ المحسّناتُ البديعيّةُ من الأساليب التّعبيريّة التي لا يُدرك قيمتَها الفنّيّةَ إلّا المبدعون والنّقاد والبلاغيّون، وقد "**كانت وِجهتُهم الأولى والأهمّ هي النّصَّ القرآنيَّ. والبديعُ في القرآن الكريم ليس حليةً تُزيّن ألفاظَه وتراكيبه، ولا عرضا يُستغنى عنه، ولا تابعا لا قيمة له، بل هو أصل يختلّ المعنى بزواله، ويتأثّر الأسلوب باختلاله.**"[1] فالبديع في الكلام إذن يجلب المتلقّي إلى الاستماع بلذّة وانتباه، فيستجيب سريعا إلى المضمون بسبب افتتانه بجمال لغة المبدع، وقدرته على صياغة الفكرة بلغة فنّيّة جديدة بعيدة عن لغة الإفهام المباشرة.

ولا تعدو مباحث البديع أن تكون "**تناسبا صوتيّا كالموازنة والتّصريع وكلّ ما يلحق بالوزن والقافية من حيث المبدأ، أو تناسبا دلاليّا صوتيّا كالجناس والطّباق وغيرها. فهذه الأنواع تقوم في عمومها على تناسب بين طرفين أو أكثر في النّصّ، وهي تحقّق هذا التناسب بوصفه مقياسا جماليّا له أهمّيّة في التّأثير الإيجابيّ في المتلقّي وكسب تفاعله، وإعجابه.**"[2]

وتتداخل الفنون البديعيّة في مقالات عيون البصائر لتكوّن لوحة فنّيّة رسمتها ريشة الإبراهيميّ، تكامل فيها الشّكل مع المضمون. "**فالعمل الفنّي هنا إذن ليس شكلا ولا لفظا ولا ضمّ كلمة إلى مجانستها ولا إلى نقيضتها، ولا وضع كلمة على وزن إلى جانب كلمة أخرى ذات الوزن أو وزنا قريبا منها.. إنّه عمل معقّد كما لاحظنا.. يتظاهر عليه العقل والقلب، الفكر والخيال، وتتعاون عليه التراكيب والألفاظ التي تتوالد توالدا ذاتيّا، مع قدر محدود من التنبّه لها والوعي بها، ليكون من كلّ ذلك هذا الأداء الفنّيّ المحبّب.**"[3] فقد أدّت الفنون البديعية عند الإبراهيميّ دورها في إبراز المعنى المقصود بألفاظ جميلة موحية، استطاع من خلالها إبعاد الملل عن القارئ.

---

[1] عبد الفتاح لاشين، البديع في ضوء أساليب القرآن ، مكتبة الأنجلومصريّة، ط3، 1986، ص5.

[2] مسعود بودوخة، عناصر الوظيفة الجمالية في البلاغة العربية، عالم الكتب الحديث، الأردن ، 2011، ص188، 189.

[3] شكري فيصل، قضايا الفكر في آثار الإبراهيمي، ص196.

أ-1- السّجع:

استعملت العرب السّجع بكلّ أنواعه في شعرها ونثرها منذ العصر الجاهليّ، و"**لقد كان يستخدم في أقوال الكهّان والخطب الوعظيّة والصّلوات والأمثال والحكم والرّسائل والمقامات والتّراجم والتّواريخ، ومنذ القرن العاشر إلى القرن العشرين وعناوين الكتب كلّها تقريبا تكتب سجعًا، كما كانت مقدّمات كثير من الأعمال الأدبيّة تصبّ كاملة في قالب من السّجع.**"[1]

ففي عناوين الكتب مثلا نجد مقدمة ابن خلدون الموسومة: (كتاب العبر، في ديوان المبتدأ والخبر، في أيّام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر).

وفي النّصوص التي وظّف فيه السّجع، أورد قولَ الحريري في إحدى مقاماته: "**أجمعت حين قضيت مناسك الحجّ، وأقمت وظائف العجّ والثّجّ، أن أقصد طيبة، مع رفقة من بني شيبة، لأزور قبر المصطفى، وأخرج من قبيل من حجّ وجفا، فأرجف بأنّ المسالك شاغرة، وعرب الحرمين متشاجرة، فحرت بين إشفاق يثبطني، وأشواق تنشّطني؛ إلى أن ألقي في رُوعي الاستسلام، وتغليب زيارة قبره عليه السّلام.**"[2]

ولقد وظّف الإبراهيميّ هذا اللّون البديعيّ كمّا ونوعا، ولا تكاد تخلو مقالاته منه، إلى درجة الإفراط لولا حسن استعماله لهذه المحسّنات بشكل يبعث على الاستحسان، ويرسّخ في الذهن التلقائية التي تميّز بها الكاتب تأسّيا بالأدب القديم. "**والسّجع الذي التزمه الكاتب فيها لم يقلّل في شيء من روعتها وجمالها، بل زادها ملحا وماءً، وزخرفا وبهاءً. لأنّ السّجع إذا جاء في الكتابة الفنّيّة العالية عفوا، يكون تحلية للكلام، وزينة للأدب.**"[3] فمن يعتقد أنّ الإبراهيميّ يوظّف السّجع لمجرّد النّغم الموسيقي فهو مخطئ، فخذ مثالا حينما يذكر هجران الوهرانيّين للعوائد المنتشرة في العمالة الوهرانيّة بسبب الحرب والفقر، ثمّ لا يلبثون أن يعودوا إليها، فيقول معلّقا:"...**إلى أن عادت لميس، فأزّت لإحيائها خلفاء إبليس**"[4]. ونلاحظ أنّ هذا السّجع لا يؤثّر على المتلقّي بموسيقاه

[1] ديجن ستيوارت، السّجع في القرآن، تر: إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشذرق، القاهرة، 1998، ص5.

[2] أبو العبّاس الشريشي، شرح مقامات الحريري، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، ج4، المكتبة العصريّة، بيروت، 1992، ص36.

[3] عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص329.

[4] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص381.

فقط، بل خدم فكرة أنّ فرنسا تعود دائما إلى عاداتها السّيئة في تشجيع أولياء الشيطان، فوظّف اسم لميس الذي تطلقه العرب على من لا ينسى عاداته القديمة، واسم إبليس وهو الشّيطان الذي لا يفتأ يتربّص بالنّاس حتّى يحيدوا عن الصّراط المستقيم. واسما لميس وإبليس كلمتان متناغمتان صوتا ومتلازمتان معنى.

وقد استعمل الإبراهيميّ السّجع بأنواعه المختلفة:

– فمن أمثلة السّجع المطرف الذي "**تتفق فيه الفاصلتان أو الفواصل أو القرينتان في الرّويّ، وتختلف في الوزن**"[1] ما جاء في حديثه عن عودة جريدة البصائر بعد توقيفها، إذ يقول: "**وها نحن أولاء نعود إلى الميدان الأوّل أوفر ما نكون <u>نشاطًا</u>، وأكثر ما نكون <u>اغتباطًا</u>.**"[2] ونلاحظ اختلاف الكلمتين (نشاطا) و(اغتباطا) في الوزن، واتفاقهما في حرف الرّوي وهو (الطّاء).

كما نجده في ثنائه لقرّائها الأوفياء الذين لم ينسَوْها حين احتجبت، فيوعِزُ هذا الغياب إلى قضاء الله، الذي "**يدركه أيقاظ <u>الشواعرِ</u>، وأحياء <u>الضمائرِ</u>.**"[3] والرّوي نفسه وهو حرف (الرّاء) في كلمتي (الشواعر) و(الضّمائر)، مع اختلاف وزنيهما فالأولى (فواعل) والثّانية (فعائل).

وفي مثال آخر، ينفي الكاتب وجود أي هيئة استطاعت إنجاز ما أنجزته الجمعيّة في توجيه الأمّة وتصحيح نظرتِها للحياة، "**وزنِها <u>للرجال</u>، وتقديرها <u>للأعمال</u>**".[4] فاتّفقت كلمتا (الرّجال) و(الأعمال) في حرف الرّوي وهو(اللّام)، واختلف وزناهما وهما (الفعال) للأولى و(الأفعال) للثانية.

كما استعمله عندما حثّ أبناء الوطن أن يهبّوا للّحاق بالرّكب، وأن لا يغطّوا في سباتهم، "**لأنّ اليقظة استئناف حياة، والحياة المستأنفة ليست وجودا من <u>عدمٍ</u>، وإنّما هي تجديد لما <u>انهدمَ</u>.**"[5] والكلمتان مختلفتان في الوزن ومتّفقتان في حرف الرّوي وهو(الميم).

---

[1] محمود أحمد حسن المراغي، في البلاغة: علم البديع، ص 130.

[2] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص201.

[3] المصدر نفسه، ص16.

[4] المصدر نفسه، ص34.

[5] المصدر نفسه، ص285.

– ومن أمثلة السّجع المتوازي الذي "**تتّفق فيه اللّفظة الأخيرة من الفاصلة أو القرينة مع نظيرتها في الوزن والرّوي**"[1]، نجد قول الإبراهيميّ: "**اللّهمّ باسمك نبتدي، وبهديك نهتدي**..."[2]، ونلاحظ أنّه أورد فعلا مهموزًا (نبتدئ)، ولكي يتوافق مع الفعل الثاني (نهتدي) في الرّوي وهو حرف (الدّال)، قام بإبدال الهمزة ياءً فصار (نبتدي)، مع العلم أنّ وزنهما (نفتعل) فأضفى على العبارة موسيقى خاصّة.

وحين يستنكر موقف فرنسا الدّاعم لتقسيم فلسطين، مُعيبًا عليها عدم اقتدائها بإنجلترا التي تعاملت بكياسة فحفظت "**للعرب والمسلمين ما يحفظه التّاجر للعملاء، أو المسافر للزّملاء**..."[3] ففضلا عن الموسيقى التي ترن في الأذن بسبب هذا السّجع، فالإقناع بفكرة أنّ إنجلترا لبقة تحقق بهذين المثالين اللّذين لا يختلف فيهما إثنان، وهو ذلك الخيط الرّفيع من الودّ الذي يبقى بين التاجر مع شركائه في التّجارة، والمسافر مع رفقائه في السّفر.

ويتحدّث عن أعداء الجمعيّة الذين كانوا يقفون أمامها حجر عثرة، "**فلا تعمل عملاً إلاّ تقوّلوا، ولا تقف موقفا إلاَّ تغوّلوا**"[4]. وهذا سجعٌ متواز لاتّفاق الفعلين (تقوّلوا) و(تغوّلوا) في الوزن وهو(تفعّلوا)، وكذلك في حرف الرّوي وهو(اللاّم)، زيادة عن إفادتهما معنى بذيئًا وهو النّميمة.

ويفضح الأمّة الفرنسيّة التي تدّعي حمل راية العدل والحرّيّة، فيقول: "**فلا ترى من هذه الأمّة إلاّ عظاما معروقة، وجموعًا مفروقة، وأشكالاً من الجحيم مسروقة**..."[5] ونلاحظ أنّ السّجع متوازٍ بسبب اتّفاق الكلمات في الوزن وهو(مفعول)، وفي الرّوي وهو (القاف).

ويذكر المفتي ذا المذهب الحنفيّ الذي يلقبه بالعاصميّ وتقريره المملوءَ "**بالمنطقِ الأعوجِ، المبنيِّ على التّاريخِ الأعرجِ**"[6] موظّفًا كلمتيْ (الأعوج) و(الأعرج) اللتين تتفقان في الوزن وهو (أفعل)، وحرف الرّوي وهو(الجيم).

---

[1] محمود أحمد حسن المراغي، في البلاغة: علم البديع، دار العلوم العربية، بيروت، 1991، ص129، 130.
[2] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص15.
[3] المصدر نفسه، ص524.
[4] المصدر نفسه ، ص32.
[5] المصدر نفسه، ص87.
[6] المصدر نفسه، ص89.

ويوجّه نداءً إلى الأغنياء حاثّا إيّاهم على المشاركة في المشاريع العلميّة التي من شأنها أن تسهم في نهضة الأمّة، فيقول: "**وإلى هؤلاء المتقاعسين عن البذلِ، المتصامّين عند العذلِ...**"[1] ويظهر السّجع المتوازي في اتفاق الكلمتين(البذل) و(العذل) في الوزن وهو (الفَعْل)، وفي حرف الرّوي وهو(اللاّم).

ويصف حال العلم في الجزائر تحت الاحتلال، قائلا: "**طال في الجهل ليلُه، وأقام بالأمّيّة ويلُه.**"[2] ويبيّن اتّفاق الكلمتين (ليله) و(ويله) في الوزن وهو (فَعْل) وحرف الرّوي وهو (اللاّم)، أنّ السّجع متواز.

كما استعمل السجع المتوازي في ندائه اللّجان المحلّيّة طالبا إيّاها تنفيذ تعليمات جمعيّة العلماء لتكون "**صلة متينةً، وواسطة أمينةً.**"[3] فالكلمتان (متينة) و(أمينة) متّفقتان في الوزن (فعيل) وفي حرف الرّوي (النّون).

-ومن أمثلة السّجع المرصّع وهو"**أن تُقابل كلّ لفظة من فقرة النّثر أو صدر البيت لفظة على وزنها ورويّها**"[4]، تعليقُه على عودة جريدة البصائر إلى الصّدور، قائلًا: "**وكما تعود الشّمس إلى الإشراقِ بعد التّغيّبِ، وتعود الشّجرة إلى الإيراقِ بعد التسلّبِ.**"[5] ويبدو توافق الكلمتين (الإشراق) و(الإيراق) في الوزن(الإفعال)، وحرف الرّوي (القاف)، وكذلك في الكلمتين (التّغيّب) و(التّسلّب) في الوزن (التفعّل) وحرف الرّوي (الباء).

ومن أمثلته أيضا ذكرُه تاريخ الإسلام في بلاد المغرب والدّماء العربيّة التي "**أثّرت فيها مؤثّرات الهواء والتّربة، وطول الثّواء والغربة.**"[6] ويتجلّى السّجع المرصّع في اتفاق كلمتي (الهواء) و(الثّواء) في الوزن (الفَعال) وحرف الرّوي (الهمزة)، وكذلك كلمتي (التّربة) و(الغربة) في الوزن (الفُعلة) وفي حرف الرّوي(الباء).

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص230.
[2] المصدر نفسه، ص283.
[3] المصدر نفسه ، ص349.
[4] محمود أحمد حسن المراغي، في البلاغة: علم البديع، ص 130.
[5] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص15.
[6] المصدر نفسه، ص36.

وكذلك حين يتحدّث عن تدخّل الإدارة الفرنسيّة في شؤون الدّين الإسلاميّ وتصرّفها المطلق فيه وهي الجاهلة إيّاه قائلاً: "**علمنا هذا ممّا علمناه من أعمال الحكومة، وبلوناه من سرائرها، وجلوناه من جرائرها.**"[1] وقد اتفق الفعلان (بلوناه) و(جلوناه) في الوزن وهو(فعلناه)، وفي حرف الرّوي وهو (الواو)، والكلمتين (سرائرها) و(جرائرها) في الوزن وهو(فعائل)، وفي حرف الرّوي وهو (الرّاء).

وحينما يتحدّث عن الأئمّة الذين غرّهم زُخرفُ الحياة، فباعوا دينهم بوظائف السّلطة، فاغترّ بهم العوامّ "**المغرورون بالمداورة، والأتباع المجرورون بالمجاورة...**"[2] وقد ورد في هذه العبارة السّجع المرصّع وذلك بتقابل كلمتيْ (المغرورون) و(المجرورون) في وزن (مفعولون)، وحرف الرّوي (الرّاء)، وكلمتي (المداورة) و(المجاورة) في وزن(المفاعلة) وحرف الرّوي (الرّاء).

وكذلك حين يعدّد مزايا المعهد الباديسيّ، ودورَه في تربية أبناء الوطن على الفضائل المبنيّة على الوطنية الحقّة، لا على "**وطنيّة التّزوير والتّضليل، والتّزمير والتّطبيل.**"[3] ويظهر تقابل كلمتي (التّزوير) و(التّزمير) في الوزن وهو(التّفعيل)، وفي حرف الرّوي وهو(الرّاء)، وكذلك كلمتي (التضليل) و(التّطبيل) في الوزن وهو(التفعيل) وفي حرف الرّوي وهو(اللّام).

ونجد السّجع المرصّع أيضا حين يبيّن فضل أسلافنا في بناء الحضارة الإنسانيّة، ونموذج المدينة الفاضلة التي عجز عن تحقيقها اليونان، "**وإنّما حقّقها من سادَ بالعدلِ، وقادَ بالعقلِ.**"[4] ويظهر تقابل الفعلين (سادَ) و(قادَ) في الوزن (فَعَلَ) وحرف الرّويّ (الدّال)، وتقابل الكلمتين (العدْل) و(العقْل) في الوزن (فَعْل) وحرف الرّوي (اللّام).

وفي كلمته الثّانية إلى تلامذة الزّيتونة والقرويّين، ينبّههم إلى الصّعوبات التي تحول بينهم وبين العلم "**من مقْتٍ يحيقُ، ووقْتٍ يضيقُ.**"[5] ونلاحظ كلمتي (مقْت) و(وقْت) المتفقتين في الوزن (فَعْل) وفي حرْف الرّوي(التّاء)، وفعلي (يحيق)و(يضيق) المتّفقين في الوزن (يفعلُ) وفي حرف الرّوي (القاف).

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص89.

[2] المصدر نفسه، ص201.

[3] المصدر نفسه، ص231.

[4] المصدر نفسه، ص285.

[5] المصدر نفسه، ص350.

أ-2 – الجناس:

للجناس في البلاغة دور خاصّ في إضفاء العبارة رونقا، وللإيقاع طربا، إذ "**لاشكّ أنّ التّجاوب الموسيقيّ الصّادر من تماثل الكلمات تماثلا كاملا أو ناقصا تطرب له الأذن، وتهتزّ له أوتار القلوب، والمجنّس يقصد اختلاب الأذهان، وخداع الأفكار، حيث يوهم أنّه يعرض على السّامع معنى مكرّرا أو لفظا مردّدا لا يجني منه السّامع غير التطويل والسّآمة، فإذا هو يروع ويعجب، ويأتي بمعنى مستحدث يغاير ما سبقه كلّ المغايرة، فتأخذ السّامعَ الدّهشةُ لتلك المفاجأة غير المتوقّعة.**"[1]

ولقد مزج الإبراهيميّ في هذا اللّون البديعيّ بين نوعيه التّامّ والنّاقص، بالرّغم من صعوبة الإتيان بمتجانسات تفي بغرض الكاتب، وتثري –في الوقت نفسه– المعنى الذي يرتبط بسياق الكلام، وهذا دليل على رصيده اللّغويّ الوافر، وتأثّره بكلام العرب، "**فهو جاحظ عصره، وبديع زمانه، ممّا جعله بحقّ معجزة من معجزات الثّقافة العربيّة الإسلاميّة في القرن العشرين.**" [2]

– فمن أمثلة الجناس التّامّ*، نقرأ انتقاد الإبراهيميّ تدخّل الحكومة في تعيين الأئمّة، فيضرب مثالا عن الحكومات الإسلاميّة التي تراعي المؤهل العلمي، "**لأنّ وراء الجميع رقيبا عتيدا من الدّين، وأمام الكلّ حسابا شديدا يوم الدّين.**"[3] ولفظة (الدّين) الأولى تعني الملّة والشرعة أمّا الثّانية فتعني يوم القيامة. وبما أنّ اللفظين اسمان فالجناس تامّ مماثل.

وفي مثال آخر، يطالب بإصلاح القضاء بانتقاء القضاة ذوي الكفاءة والأمانة، وإقصاء المفسدين منهم، فيقول:"**حقيقة...إنّ بعض القضاة أعوان للقضاء على القضاء.**"[4] وجاءت لفظة (القضاء)

---

[1] عائشة حسين فريد، رشى الربيع بألوان البديع في ضوء الأساليب العربيّة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000، ص186.

[2] عبد الرحمان شيبان، الإمام الشّيخ محمّد البشير الإبراهيمي واللّغة العربيّة، مجلّة الثقافة، دار الأمّة، ع87، 1985، ص73.

*الجناس التام أنواع منها: المماثل وتكون الكلمتان من نوع واحد إمّا فعلين أو اسمين؛ والمستوفي وتكون الكلمتان من نوعين مختلفين؛ والمركّب المفروق وتكون الكلمة الأولى مفردة والأخرى مركّبة وجرسهما في الأذن واحد وصورة كتابتهما مختلفة. ينظر: بكري شيخ أمين، البلاغة العربية في ثوبها الجديد: علم البديع، ص134-137.

[3] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص75.

[4] المصدر نفسه، ص129.

الأولى بمعنى المحو، والثّانية تعني الهيئة الشّرعيّة للفصل بين المتخاصمين. ونلاحظ أنّ كلا اللّفظين اسم فالجناس تامّ مماثل.

ونجد الجناس التّامّ حينما يفضح السلطات الفرنسيّة التي تدّعي كذبا تعليمها الجزائريّين، ولكنّ الحقيقة عكس ذلك، إذ يقول: "**فئة تدرس في جامعةٍ، وملايين ترسف في جامعةٍ**..."[1] ولفظة (جامعة) الأولى تعني المعهد العالي، والثّانية هي القيد الذي يجمع اليدين والرّجلين. والجناس تامّ مماثل لأنّ اللفظتين اسمان.

وحين يحثّ ذوي المال على الإمداد بالإعانات الماليّة والمادّيّة لفائدة جريدة البصائر، ويعد القرّاء بشرح طرق ووسائل إيصال هذه المساعدات، قائلا:"...**وسنجليها في البصائر لذوي البصائر**."[2] وتعني لفظة (البصائر) الأولى اسم لسان حال الجمعيّة أمّا الثّانية فهي جمع بصيرة وتعني الإدراك والعلم. ونلاحظ أنّ اللفظين اسمان فالجناس تامّ مماثل.

ونجده يستعمل الجناس التّامّ المماثل أيضا في حديثه عن تقاعس فرنسا عن التّحقيق في الجرائم المرتكبة في حقّ المسلمين، إذ لم تحرّك ساكنا، و"**طردت القاعدةَ، فظلّت قاعدةً**."[3] وتعني لفظة (قاعدة) الأولى القانون والنّظام، أمّا الثّانية فمعناها عدم المبالاة بما حدث.

وفي تهنئته ملك المغرب بمناسبة احتفال الأشقّاء المغاربة بعيد العرش، وبعد عبارات تعيد للأذهان الذّكريات والأمجاد، يقول: "**تلك هي الجمل التي شرحها عيد العرش المغربيّ فأبان، ورفع أحاديثها مسندة إلى أبان**..."[4] ولفظة (أبان) الأولى هي فعل أبان يبين بمعنى أفصح، أمّا الثّانية فالمقصود بها اسم أحد التابعين*. وبما أنّ إحدى اللّفظتين فعل، والأخرى اسم فالجناس تامّ مستوفٍ.

وكذلك في ثنائه على علماء الأزهر الشّريف ودورهم في هداية المصريين إلى كلمة الحق "**التي**

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص249.

[2] المصدر نفسه، ص282.

[3] المصدر نفسه، ص411.

[4] المصدر نفسه ، ص442.

*أبانُ بنُ عثمانَ بنِ عفّانَ، من فقهاء التابعين وعلمائهم. أوّل مؤرّخ في الإسلام، وأوّل من كتب في السيرة النبوية.

تحدّد علاقتهم بالله فلا يجاهدون في __سبيله__ وهم منحرفون عن __سبيله__."[1] وتعني لفظة (سبيله) الأولى كلّ ما أمر به اللّه به من الخير، أمّا الثّانية فمعناها الطّريق.

وفي خطابه لأحد الزّعماء الخانعين –رغم أنّه من المنتسبين إلى بني هاشم– قائلا: "**...ما أنت لهاشم ...إنّما أنت لعبد العزّى؛ أغضبت سَراة __الحيِّ__، وأزعجت الميّت منهم و__الحيَّ__.**"[2] ويكمن الجناس التامّ المماثل في لفظة الحيّ التي تعني عكس الميّت، أمّا سَراة الحيّ فهم نُخبة القوم.

وفي السّياق نفسه يهاجم الإبراهيميّ العرب الذين تخاذلوا عن الاتّحاد، وانشغلوا بالصّراعات الدّاخليّة، حتّى "**تقوّضت __المضاربُ__، وكهمت __المضاربُ__.**"[3] وتعني لفظة (المضارب) الأولى الخيام، أمّا الثّانية فمعناها ما يُضرب به من السّيف. واللّفظان اسمان فالجناس تامّ مماثل.

ثمّ يشرح كيف تمكّن الغربُ من العربِ، والسّبب –حسبه– هو عجزهم عن الدّفاع عن أنفسهم حتّى وإن غضبوا فإنّ "**غضبة العاجز لا تبكي ولا تنكي. تشتعل في __الحنايا__، ولا تهدم __الحنايا__...**"[4] وتعني لفظة (الحنايا) الأولى أعماق الصّدر، والثّانية ما كان منحنيا كالقوس ويعني الكاتب هنا حنيّة الكنيسة وهي نصف قبّة في صدر الكنيسة، ويقصد بهدم الحنايا محاربة الغرب الصّليبيّ، والجناس تام مماثل لأنّ كلا اللّفظتين اسمان.

وفي مقالة أخرى، يوجّه الإبراهيميّ نداءه لأهل اليمن مذكّرا إيّاهم بماضيهم المشرق، متمنيّا لهم الاستفاقة بعد الغفلة، باثّا فيهم الحماس، فيقول: "**...ثكلت __الأبناء__، يا مطارح __الأبناء__.**"[5] ولفظة (الأبناء) الأولى جمع ابن وتعني الولد، أمّا الثّانية فهي اسم لطائفة من الفرس استوطنوا اليمن. فالجناس تامّ مماثل لأنّ اللّفظتين اسمان.

ثمّ يتابع كلامه قائلا:"**يا __عاد__، أودى درم فما __عاد__...**"[6] ولفظة (عاد) الأولى هي اسم لقوم سكنوا

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص568.
[2] المصدر نفسه، ص598.
[3] المصدر نفسه، ص601.
[4] المصدر نفسه، ص601.
[5] المصدر نفسه، ص605.
[6] المصدر نفسه، ص607.

اليمن قديما، وكفروا باللّه فعاقبهم بريح صرصر عاتية، أمّا اللّفظة الثانية فهي من عاد يعود عودا عودة، أي رجع. وبما أنّ إحدى اللّفظتين اسم والأخرى فعل فالجناس تامّ مستوفٍ.

ثمّ يمجّد اليمن بذكر إنجازات الأجداد لتحفيزهم، فيقول: "**يا أخلاف ...بنيتم السّد، وأحكمتم للثّغور السّدّ...**"[1] ويقصد بلفظة (السّدّ) الأولى سدّ مأرب، أمّا الثّانية فهي الحاجز بين الشّيئين ويقصد هنا الحدود. والجناس تام مماثل لأنّ اللّفظتين اسمان.

ونجد الجناس المركّب المفروق الذي لا يرد إلاّ نادرا مقارنة بأنواع الجناس التّام الأُخَر في تهجّمه على الذين خذلوا فلسطين وباعوها لليهود، فيقسم مجازا " **بالآخذين أمس من تل أبيب بالتلابيب**."[2] والملاحظ أنّ أنّ لفظة (تل أبيب) مركّبة من كلمتي (تل) و(أبيب) وهي مدينة الصهاينة، ولفظة (التلابيب) تشبهها في النّطق وتعني الثّوب المجموع إلى العنق.

وكذلك عندما يتوعّد الذين حاولوا إلهاء طلبة المعهد الباديسي عن العلم، قائلا: "**ويمينا بالذي طهّر المعهدَ، وأنزل في كتابه ألم أعهدْ، لنقطعن من هذه الفتنة دابرها...**"[3] ونلاحظ تشابه النّطق بين لفظة (المعهد) و عبارة (ألم أعهد).

– أمّا الجناس النّاقص* الذي ورد كثيرا في مقالات الإبراهيميّ بسبب كثرة الألفاظ المتشابهة في اللغة العربيّة، فنجده قد استعمل الجناس المضارع في معرض انتقاده ازدواجيّة الحكومة في التّعامل مع المناسبات الدّينيّة قائلا:"**...والأهلّة لا تُرى بعينها ولا بمرصدها، ولم يكن ذلك استعفافًا منها وإنّما كان استخفافًا بها...**"[4] والجناس هنا مضارع لأنّ كلمتي (استعفافا) و(استخفافا) مختلفتان في حرفي (العين) و(الخاء) المتقاربين في المخرج إذ ينتميان إلى مجموعة الحروف الحلقيّة.

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص607.

*إذا اختلف اللّفظان المتجانسان في حرف أو حرفين مع تقاربهما في المخارج سمّي جناسا مضارعا.

[2] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص597.

[3] المصدر نفسه، ص232.

*هو أن تختلف الكلمتان في أنواع الحروف، أو أعدادها، أو حركاتها، أو ترتيبها، وهو أنواع منها: محرّف، ومصحّف، ولاحق، ومضارع، ومذيّل، ومطرّف، وجناس قلب. ينظر: بكري شيخ أمين، البلاغة العربيّة في ثوبها الجديد: علم البديع، ص 139–144.

[4] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص106.

وكذلك في حديثه عن قضيّة القضاء الإسلاميّ، وما جرى من عبث وخلاف، قائلا: "**وإذا بالوحي ينزل مرّة أخرى بالنّسخ أو بالفسخ**..."[1] ويبدو الجناس المضارع في كلمتي (النّسخ) و(الفسخ) لتقارب حرفي (النّون) و(الفاء) في المخارج فالأوّل ذلقي والثّاني شفوي.

وعند تقديمه لخلاصة دور الجمعيّة في الدّفاع عن الإسلام، يقول:"**لا ذنب لنا عندهم إلا كلمة الحقّ نقولها صريحة فتشرح وتجرح، مجلجلة فتصكّ وتصخّ**..."[2] والملاحظ أنّ في العبارة جناسين مضارعين، الأوّل في لفظتي (تشرح) و(تجرح) لانتماء الحرفين (الشّين) و(الجيم) إلى مجموعة الحروف الشجرية، والثّاني في لفظتي (تصكّ) و(تصخّ) لتقارب مخرجي حرفي (الكاف) و(الخاء)، المنتميين إلى مجموعتي الحروف اللهوية والحلقية على التوالي.

وفي وصفه إصلاحات فرنسا الفاسدة، وعمل الإدارة التي زعمت بأنّها "**أخذت بالحزم والحسم**..."[3] والواضح في كلمتي (الحزم) و(الحسم) أنّ حرفي (الزاي) و(السين) ينتميان إلى مجموعة الحروف الأسلية ممّا يجعل الجناس مضارعًا.

أمّا الجناس اللّاحق فقد وظّفه الإبراهيميّ في حديثه عن سياسة الاحتلال الخبيثة عندما نقض عهده بتعدّيه على مقوّمات الجزائريّين "**من عقائدَ ومعابد وعوائدَ**..."[4] والجناس لاحق لأنّ كلمتي (عقائد) و(عوائد) مختلفتان في حرفي (القاف) و(الواو) ومتباعدا المخرج (الأوّل لهوي والثّاني جوفي).

وفي مثال آخر نجد هذا النّوع من الجناس حين يستنكر سياسة الاحتلال الذي حارب الإسلام بالتّبشير للدّين النّصراني، فأخلط "**في ألسنتهم كلمة الهادي بكلمة الفادي**."[5] والكلمتان (الهادي أي محمّد صلّى الله عليه وسلّم، والفادي أي المسيح عليه الصلاة والسّلام) متباعدتان في مخرجي الحرفين (الهاء الحلقيّ) و(الفاء الشّفويّ).

وحين يفضح لجنة الأهلّة الموالية للاحتلال، التي زرعت الفتنة بإعلانها عدم ثبوت هلال شوّال،

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص128.
[2] المصدر نفسه، ص138.
[3] المصدر نفسه، ص584.
[4] المصدر نفسه، ص22.
[5] المصدر نفسه، ص83.

إلاّ أنّ السكّان اتّبعوا رأي جمعيّة العلماء بحلول العيد "**ذاكرين لفضلها على الدّين، شاكرين للعلماء الأحرار لطف مداخلهم في إقامة الحجّة على أعوان الباطل...**"[1] ونلاحظ أنّ كلمتي (ذاكرين) و(شاكرين) متباعدتان في مخرجي حرفي (الذّال) و(الشّين) فالأول لثويّ والثّاني شجريّ.

وكذلك عندما يذكّر بجملة من أعمال البرّ التي أمرنا بها الله تعالى، وأخرى نهانا عنها، ليجنّبنا "**ويقينا تجرّع مرارة النّدم، وحرارة الحسرة.**"[2] وكلمتا (مرارة) و(حرارة) متباعدتان في مخرجي حرفي (الميم) و(الحاء)، فالأوّل شفويّ، والثاني حلقي.

وفي وصيّته لمعلّمي جمعيّة العلماء بأن يكونوا قدوة للطلبة، يقول: "**واعلموا أنّ كلّ زلّة منكم –وإن صغرت– محسوبة على جمعيّة العلماء، منسوبة إليها.**"[3] ويظهر الجناس اللاّحق في كلمتي (محسوبة) و(منسوبة) لتباعد مخرجي حرفي (الميم) و(النّون)، فالأوّل شفويّ، والثاني ذلقي.

ومن أمثلة الجناس المطرف ما ورد في معرض استنكاره لأساليب المنصّرين غير الإنسانيّة في التّحايل على الشعب، من أجل أن يردّوهم عن الدين الإسلاميّ، قائلا:"**حاشا لدين المسيح عليه السّلام...أن يكون هذا طريقَه إلى النّفوس، وهذه طريقَتَه في الانتشار.**"[4] والملاحظ زيادة حرف التاء في كلمة (طريقته) مقارنة بكلمة (طريقه).

وكذلك يستعمل الجناس المطرف حين ينصح الطّلبة بالاجتهاد في أداء واجباتهم تجاه وطنهم الذي ينتظر منهم:"... **الحيا والحياة.**"[5] ويتجلّى الجناس المطرّف في زيادة حرف التّاء في كلمة (الحياة) عن كلمة (الحيا).

وحين يعتذر للقرّاء، بسبب الأسلوب غير المعتاد الذي كتب به أثناء أسفاره، وقد أراد ترقيعه "**فأبت الشّواغل، وزاحم الواغل...**"[6] ففي الكلمتين (الشواغل) و(الواغل) جناس مطرّف، بسبب زيادة حرف

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص110، 111.
[2] المصدر نفسه، ص289.
[3] المصدر نفسه، ص298.
[4] المصدر نفسه، ص85.
[5] المصدر نفسه، ص216.
[6] المصدر نفسه، ص276.

الشّين في الكلمة الأولى مقارنة بالكلمة الثّانية.

وعندما يوجّه رفضه التّام للمزاوجة بين كلمتي الإسلام وفرنسا، يضرب مثلا لاستحالة هذا المزج مذهبا عنصريا فاشلا أسسه المحتلّون، فيقول: "**كانوا يسمّون جانبه التّأثيريّ«الإدماج» وجانبه التّأثّري«الاندماج »...**"[1] حيث نلاحظ زيادة حرف النّون في الكلمة الثّانية مقارنة بالأولى.

وحينما يؤكّد على مقدرة شعوب الشّرق العربيّ على إخراج الصّهاينة المحتلّين لو أنّ قواتها الرّوحيّة والمادّيّة قائلا:"... **توافَت على فلسطين وتوافَرَت...**"[2]

وأمّا من أمثلة الجناس المذيّل ما يورده الإبراهيميّ في سياق سخريته من مكافآت الاحتلال لرجالها العسكريّين والإداريّين، قائلا:"**...وإنّ وسمها لكم بالنّياشين، يعرّ ويشين، لأنّكم –كما تزعمون– رجال دين لا رجال ميادين، وأصحاب نسبة لها شان أعلى من النيشان...**"[3] ونسجّل هنا جناسين مذيّلين: الأوّل في زيادة حروف (الميم) و(الياء) و(الألف الممدودة) في كلمة (ميادين) مقارنة بكلمة (دين). والثّاني في زيادة حرفي (النّون) و(ياء المد) في كلمة (نياشين) مقارنة بكلمة (شين).

ومن أمثلة هذا النوع من الجناس أيضا ما جاء عند انتقاد الإبراهيميّ مماطلة الحكومة في اختيار أعضاء جمعيّة مشتركة بين المسلمين والمسيحيّين، رغم بساطة القضيّة قائلا: "**... وما هو إلاّ قطع وانفصال، وفطام وفصال...**"[4] ونلاحظ زيادة حرفي (الألف) و(النّون) في كلمة (انفصال) مقارنة بكلمة (فصال).

وفي تحسّره على ضياع فلسطين بسبب التّخلّف في المال والعلم والصّناعة، يقول: "**... فلو كنّا ممّن يفكّر ويقدّر ويأخذ الأحوط الأحزم، لبدأنا من أوّل يوم بالإعداد والاستعداد...**"[5] ويبرز الجناس المذيّل في زيادة حرفي (السّين) و(التّاء) في كلمة (الاستعداد) مقارنة بكلمة (الإعداد).

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص390.

[2] المصدر نفسه، ص517.

[3] المصدر نفسه، ص118.

[4] المصدر نفسه ، ص147.

[5] المصدر نفسه ، ص499.

وفي تساؤله عن مصير الأمم اليمنيّة السابقة، يعقّب مجيبا:"...**إنّها اليومَ مجاهلُ، يضلُّ فيها القطا، ويُقطع فيها من المَطَايَا المَطَا.**"[1] ونلاحظ زيادة حرفي (الياء) و(الألف الممدودة) في كلمة (المطايا) مقارنة بكلمة (المطا).

ومن أمثلة الجناس المحرّف ما يورده الإبراهيميّ مناجيًا بحيرة طبريّة، حيث يقارن بين شخصيّتين هما بدر بن عمّار* والأمير الخائن الذي باع القدس لليهود، فيقول:"...**ذاك رمز إقدام، وهذا موطِئ أقدام...**"[2] والملاحظ أنّ كلمتي (إقدام) و(أقدام) متّفقتان في عدد الحروف وترتيبها ومختلفتان في حركة الحرف الأوّل. وتدلّ كلمة الإقدام على الشّجاعة عكس كلمة الأقدام التي تدلّ على الذّلّ والجبن، وهذا التّباين دليل على الفرق الشاسع بين من ضحّى في سبيل وطنه ومن خانه.

وكذلك حينما يتمنّى –من أجل نصرة إخوانه في فلسطين– لو كان يملك: "...**ما يملكه الكانز من وَرِقٍ ووَرَقٍ...**"[3] والجناس هنا محرّف لاتّفاق اللفظتين (وَرِقٍ) التي تعني النقود و(وَرَقٍ) في عدد الحروف وترتيبها مع اختلافهما في الحركات. ونلاحظ هنا تلازم الورَق والورِق من حيث إنّهما وسيلتان للجهاد، فالأولى بالعلم والقلم، والثّانية المال والمادّة، ممّا سمح لهذا المحسّن البديعي أن يضيف لمراده ألا وهو الحثّ على الجهاد.

وفي رثائه أعزّ أصدقائه الشيخ عبد الحميد بن باديس المتوفّى، يقول:"...**إنّ بُعْدَك أتعب من بَعْدَك...**"[4] حيث إنّ كلمتي (بُعدك) و(بَعدك) تتّفقان في عدد الحروف وترتيبها مع اختلافهما في حركة حرف الباء. وتدلّ كلمة البُعد عن الفراق، وكلمة بعدَك عن أحبّة ابن باديس وأصدقائه الذين سيواصلون الدّرب وسيعانون لسدّ الفراغ الذي خلّفته هذه الفجيعة.

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص608.

*بدر بن عمّار صاحب طبريّة في زمن الشّاعر أبي الطّيّب المتنبّي؛ وقصّته أنه كان على فرسه، فمرّ على أسد كان قد تمكن من فريسته للتوّ، فتسبّب حضوره المفاجئ في انفلات الفريسة منه. فانطلق الأسد إلى بن عمّار، فانشغل عن سيفه لسرعة الحدث وكان بيده سوط ضرب به الأسد على وجهه فأرداه قتيلا. ثم خرج عليه أسد آخر فتوجه له بن عمار فهرب الأسد منه. فكان ابن عمّار أشجع من الأسد.

[2] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص523.

[3] المصدر نفسه، ص523.

[4] المصدر نفسه، ص658.

ومن أمثلة الجناس المصحّف، ما جاء في معرض استنكار الإبراهيميّ لتقرير المفتي العميل المليئ بالكذب، ولكي يثبت موضوعيّته، يقول الإبراهيميّ:"...**وأعدنا قراءته استجلاءً أو استحلاءً**."[1] ونلاحظ أنّ اللّفظتين (استجلاء) بمعنى استكشاف، و(استحلاء) بمعنى اعتبار الشّيء حلوًا، اتّفقتا في عدد الحروف وترتيبها، واختلفتا في نقطة حرف الجيم. ويدلّ توظيف الكلمتين عن عمق رصيد الكاتب اللّغوي، فبالإضافة إلى جمال العبارة، تدل كلمة استحلاء على عدم جدوى استطلاع مثل هذه التّقارير الجافّة والملغومة لمرارة مضامينها.

ونجده يستعمل هذا الجناس كذلك في تحذيره الطّلاب الانجرار وراء السّياسة المضيّعة للوقت، فيحثّهم على تركها حتّى يحين وقتها، والتفرّغ للدّراسة فقط، لأنّ الوطن يتوسّم فيهم جيلا "**شديد العزائم، سديد الآراء...**"[2] وقد اتّفقت اللفظتان (شديد) و(سديد) في عدد الحروف وترتيبها، واختلفتا في نقط حرف الشّين. وتحمل الكلمتان من الدّلالة ما يقرّب إحداها من الأخرى، إذ السّداد في الرّأي لا يكون فاعلا ما لم تتبعه الشّدّة في التّنفيذ.

وكذلك في أسفه على ما وقع لمعلّم من ظلم، وقهر من طرف الاحتلال، فيستنجد الشّيخ لحلّ هذه القضيّة قائلا: "**من لي بمن يزجيها ولا يرجيها سبّة تالدة له ولأنصاره في العالمين؟** "[3] فالكلمتان (يزجيها) و(يرجيها) متّفقتان في عدد الحروف وترتيبها، مع اختلافهما في نقطة حرف الزّاي. ويدلّ اختيار هذين الفعلين المتضادّين (يُزجي) –بمعنى يقدّم– و(يُرجي) –بمعنى يؤخّر–على غضب الكاتب من هذا الظّلم، وتعاطفه مع كلّ مظلوم.

وفي وصفه للشّيطان الذي يزيّن للوهرانيّين سوء أعمالهم ومنكراتهم في احتفالات الأولياء الصّالحين التي يطلقون عليها اسم الزُّرد والوعْدات، بأنّه "**بليد القريحة، جامد الفكر، خامد الذّوق...**"[4] وقد اتّفقت اللفظتان (جامد) و(خامد) في عدد الحروف وترتيبها، واختلفتا في نقط حرفي الجيم والخاء. وبالإضافة إلى الأثر الجمالي في هذه الثّنائيّة، فإنّهما تدلاّن على المعنى نفسه وهو السّكون والخمول والسلبيّة.

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص71

[2] المصدر نفسه، ص219.

[3] المصدر نفسه، ص243.

[4] المصدر نفسه، ص355.

وفي تصوّره لما يجب أن يتحلّى به الشّاب الجزائريّ من صفات، قائلًا: "**أتمثّله بانيًا للوطنيّة على خمس، كما بني الدين قبلها على خمس: السّباب آفة الشّباب؛ واليأس مفسد للبأس؛ والآمال لا تدرك بغير الأعمال؛ والخيال أوّله لذّة وآخره خبال؛ والأوطان لا تُخدم باتّباع خطوات الشّيطان.**"[1]

ويكمن الجناس المصحّف في هذه الفقرة في ثلاثة مواضع:

-في لفظتي (السّباب) و(الشّباب) في اختلافهما في نقط حرف الشّين. ونلاحظ أنّ الكاتب اختار كلمة السّباب لربط عفّة الشّباب بمراقبة ما يتفوّهه اللّسان، إذ أنّ الكلام البذيء عنوان الشّاب المنحرف.

-في لفظتي (اليأس) و(البأس) في اختلافهما في نقط حرفي الياء والباء. وقد اختار الكلمتين لنصح الشّباب بعدم الاستسلام للصّعاب لأنّهم يملكون قوّة الإيمان مع قوّة الجسم.

- في لفظتي (الخيال) و(خبال) في اختلافهما في نقط حرفي الياء والباء. وفضلا عن المعنى الذي قصده الكاتب من توظيف كلمة الخبال – بمعنى الجنون– والتي هي نتيجة من يعيش في عالم الخيال وينسى واقعه، فإنّ الموسيقى والوزن يشعران القارئ بتشابه الكلمتين وتناغمهما.

ومن أمثلة جناس القلب ما جاء في معرض ذكر الإبراهيميّ جملة من الأعمال التي تمارسها الجمعيّة، مستنكرا على الاحتلال اعتبارَها تدخّلا في السّياسة، فيقول: "...**ولتعلم أنّ تلك الأعمال تزيدنا مع جلال العلم جلال العمل.**"[2] والجناس هنا جناس قلب لاتّفاق كلمتي(العمل) و(العلم) في عدد الحروف مع اختلافها في الترتيب. وأكّد الكاتب على تلازم العلم والعمل وتكاملهما، فلا يكون العلم نافعا ما لم يتوّج بثمرة العمل، ولا يكون العمل صالحا ما لم يعتمد على علم صحيح.

وفي مثال آخر يقول: "**ولميس هذه في مورد المثل هي امرأة كانت لها عوائد شرّ تعتادها، وأخلاق سوء تفارقها ثمّ تقارفها، لغلبة الفساد فيها وصيرورته أصلا في طباعها– والعتر هو الأصل– فسيّرت العرب فيها هذا المثل.**"[3] ويظهر جناس القلب في اتّفاق اللفظتين (تفارقها) و(تقارفها) في عدد الحروف واختلافها في التّرتيب. ويوحي استعمال هذين الفعلين المتضادّين

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص594.

[2] المصدر نفسه، ص43.

[3] المصدر نفسه، ص379.

المعبّرين عن التّوبة الظّاهريّة القصيرة التي تتبعها العودة إلى الذّنب مرّة أخرى، بلمسة جماليّة بسبب تشابههما في الكتابة وتباينهما في المعنى.

ويحمّل الإبراهيميّ كلّ فرد من الشّعب مسؤوليّة ما وصلت إليه الأمّة من هوان، إذ أعان عدوّه على نفسه، فيقول له: "**أعنتهم في إفساد دينك وأخلاقك فارتفعوا وانحدرت، وأعنتهم على إفساد دنياك فاستغنوا وافتقرت، واجتمعوا وافترقت...**"[1] وقد اتّفقت اللفظتان (افتقرت) و(افترقت) في عدد الحروف واختلفتا في التّرتيب.

ويؤكّد على عروبة فلسطين، إذ تغلّب العرب والمسلمون على اليهود من حيثُ العددُ والاستقرارُ فيها عبر العصور، وهيمن بها الإسلام على اليهوديّة، و"**سادت فيها العربيّة أكثر ممّا سادت العبريّة.**"[2] وقد اتّفقت اللفظتان (العربيّة) و(العبريّة) في عدد الحروف واختلفتا في التّرتيب. ولقد أحسن الكاتب اختيار الكلمتين لما تحملان من نغم موسيقيّ، ودلالة دينيّة وتاريخيّة وسياسيّة وعرقيّة، تعبّر عن التّنافر الأزليّ والأبديّ بين العرب واليهود.

وآخر مثال أختم به أمثلة الجناس النّاقص ما جاء في سياق حديثه عن العميل الذي خان قضيّة فلسطين، حيث يقول الإبراهيميّ متهكّما: "**وقعت على الأردن منه بليّة، هو من الكهانة الكاهنة.**"[3] ويظهر جناس القلب في اتّفاق اللفظتين (الكهانة) و(الكاهنة) في عدد الحروف واختلافها في التّرتيب. وقد أراد الكاتب في استعمال النّعت المشتقّ من منعوته الدّلالة على طغيان هذه الكارثة التي حلّت بالأمّة.

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص422.

[2] المصدر نفسه، ص494.

[3] المصدر نفسه، ص597.

أ-3 – الطّباق:

يُعدُّ الطّباق من الفنون البلاغيّة التي اهتمّ بها البلاغيّون قديمًا وحديثًا، ولقد ورد في كلام الله عزّ وجلّ، وحديث رسوله -صلّى الله عليه وسلّم- وشعر العرب ونثرهم ما يدلّ على قيمة هذا المحسّن البديعيّ، إذ "**يُؤتى بالمطابقة في الكلام إذا كانت الفكرة تقتضيها والموقف يتطلّبها، وليس لمجرّد الصّنعة اللّفظيّة، وهي حينئذ تضفي على الكلام جمالا ورونقا، وتزيده حسنا وقبولا، فإنّ عرض المتضادّات في نسق مؤتلف يثير انتباه السّامع إلى الفكرة، فيشتدّ تقبّله لها لما بين التفكير والتّعبير من انسجام، على أنّ الجمع بين الأضداد يظهرها في معرض التآلف وهي متخالفة، ويربط بينها وهي متباعدة.**"[1]

ومن أمثلة الطّباق في الحديث النّبوي الشّريف، حديث أبي موسى أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يدعو بهذا الدّعاء: "**اللّهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به منّي، اللّهم اغفر لي جِدِّي وهزْلِي، وخطئي وعمدي، وكلُّ ذلك عندي، اللّهم اغفر لي ما قدّمت وما أخّرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به منّي، أنت المقدّم وأنت المؤخّر وأنت على كلّ شيء قدير.**"[2]

ولقد اهتمّ الإبراهيميّ كثيرا بالطّباق بنوعيه*، كونه يسهم في توضيح الفكرة المراد توصيلها، فكثيرا ما تكون الكلمة الواردة في كلامه صعبة الفهم للقارئ فيجعلها سهلة عند سماع نقيضها. بالإضافة إلى تعزيز الفكرة ولو كانت واضحة بإعطاء الأضداد، ممّا يثير الانتباه إلى مغزى الكاتب من ذلك. فضلا عن جمال العبارة وعذوبة الموسيقى التي ترنّ في الأذن.

– ومن أمثلة طباق الإيجاب التي أوردها الإبراهيميّ في مقالاته، ما جاء في حديثه عن الضّغوطات التي تلقّتها جمعيّة العلماء من الإدارة الفرنسية ردّا على تحريرها « تقرير السّكوت»، ومفاده منع أعضائها من التصريحات الصّحفيّة، فيقول:"...**وألحّ عليّ في صراحة- أن أخرج من**

---

[1] عبد العاطي غريب علاّم، دراسات في البلاغة العربيّة، منشورات جامعة قان يونس، بنغازي، 1997، ص170.

* إن كان المتضادّان مثبتين معا أو منفيين معا عدّ من طباق الإيجاب، وإذا كان أحدهما مثبتا والآخر منفيّا عدّ من طباق السّلب. ينظر: عبد القادر حسين، فن البديع، ص45.

[2] مسلم بن الحجّاج النيسابوري، صحيح مسلم، تح: فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التّراث، ط2، بيروت، 1972، ح رقم 2719.

الصّمت إلى الكلام باسمي أو باسم الجمعيّة-..."[1] والملاحظ أنّ الطّباق هنا مجازيّ لأنّه لا يمكن الخروج من الصّمت على وجه الحقيقة والدّخول في الكلام. والمراد هو التكلّم بعد السّكوت، وإنّما عبّر عن ذلك بالطّباق المجازيّ لأنّ التّأثير أقوى والمغزى أسهل للفهم، إذ صوّر لنا الكاتب هذا الفعل – وهو التكلّم- أنّه يدلّ على الشّجاعة في قول كلمة الحقّ أمام ضغوطات الاحتلال.

وفي السّياق نفسه، يؤكّد الإبراهيميّ أنّ المسؤول الأوّل عن تغلّب الضّمير العسكريّ على الضّمير الإنسانيّ هو الوحشيّة التي أعمت الاحتلال، فيقول: "**لأنّني أعلم أن الاستعمار يشرك بين الأقوياء والضّعفاء في إفساد الضّمائر.**"[2] ويبدو الطّباق حقيقيّا بين كلمتي (الأقوياء) و(الضّعفاء)، وقد استعمل الكاتب أسلوبا مباشرا لفضح أساليب الاحتلال.

ونجد هذا النّوع من الطّباق في معرض شرحه أساليب الاحتلال في العبث بمقوّمات الشّعب الجزائري، الذي لم يحترم الأحكام الإسلاميّة، "**وحارب الإيمان بالإلحاد**، و**الفضائل بحماية الرّذائل**..."[3] ففي العبارة طباقان اثنان هما (الإيمان≠ الإلحاد) ، و(الفضائل≠ الرّذائل)، وهما مجازيّان لأنّ المحاربة الفعليّة تكون بين الأشخاص وبوسائل مادّية محسوسة، ولعلّ استعمال الطباق المجازيّ هنا أبلغ وأشمل، إذ يتصوّر القارئ عظم الخطب بشكل أجلى عندما تكون الحرب بين صفّ الإيمان وصفّ الكفر.

وكذلك في فضحه انحياز الحكومة إلى أشخاص دون آخرين في منحهم الرّخص فيما يتعلّق بشؤون التّعليم قائلاً: "**فوجدنا الحكومة تيسّر على من رضيت عنه، وتعسّر على المغضوب عليهم**..."[4] ويظهر الطّباق الحقيقيّ بين الفعلين (تيسّر) و(تعسّر).

وفي تأكيده بأنّ الأمّة الإسلاميّة ترفض أيّ فصل بين المساجد والأوقاف باعتبارهما وجهين لعملة واحدة، "**وتعدّ ذلك كلّه من باب نزع الشيء من اليد اليمنى، ووضعه في اليسرى**..."[5] ويبرز

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص18.
[2] المصدر نفسه، ص18.
[3] المصدر نفسه، ص22.
[4] المصدر نفسه، ص25.
[5] المصدر نفسه، ص29.

الطّباق الحقيقيّ بين كلمتي (اليمنى) و(اليسرى).

وفي وصفه مواقف الجمعيّة الجادّةَ –عكس بعض المتهوّرين الذين يتلوّنون فيقعون في الأخطاء– قائلا: "**فالطّائر قد تصدمه نواميس الخفّة والثّقل، فينقلب مضعضعا أو مكسورًا...**"[1] وهذه العبارة تحوي طباقا مجازيّا بين اللّفظتين (الخفّة) و(الثّقل)، لأنّ النّواميس ليست أشياء حسّيّة تستطيع أن تصدم طائرا بل هي قوانين فيزيائية تخضع لها حركة الأجسام وسكونها.

وفي وصفه العروبة، بأنّها أصلٌ راسخٌ "**عرفه التّاريخ باديا وحاضرًا، وعرف فيه الحكمة والنّبوّة، وعرفته الفطرة لأوّل عهودها فتبنّته صغيرًا، وحالفته كبيرًا...**"[2] ولقد ورد في العبارة طباقان هما (باديًا≠ حاضرًا) ، و(صغيرًا≠ كبيرًا)، وكلاهما مجازيّ، لأنّ التّاريخ والفطرة ليسا أناسا يعرفون ويتبنّون ويحالفون. وإنّما أورد الكاتب ذلك على سبيل المجاز للتّأثير على القارئ، وجعله يدرك الصّلة الوثيقة بين العروبة والتّاريخ اللّذين يمثّلان عمادَ الأمّة.

وفي تعليقه على الخوض في معترك السّياسة، رأى أنّ فيه أذًى للمعارضين، ومغنمةً للمتزلّفيين، فهي "**تكون خيرا لأقوام، وشرّا لآخرين...**"[3] والطّباق هنا بين كلمتي(خيرا) و(شرّا) حقيقيّ.

وفي كلامه عن معاناة الحاجّ الجزائريّ من بيروقراطية الإدارة الفرنسية في مختلف المصالح الإداريّة، إذ يقول: "**فهذه تعطي وتلك تمنع، وهذه توسّع وتلك تضيّق.**"[4] ويظهر الطّباق الحقيقيّ بين لفظتي (تعطي) و(تمنع)، وبين لفظتي(توسّع) و(تضيّق).

وفي كشفه عن ديْدَن الحكومة في إسكات كلّ معارض، بفسح المجال للمؤيّد، فيقول: "**فقد تعوّدت أن ترصد لكلّ حقّ معارضا من الباطل...**"[5] والطباق بين كلمتي (حقّ) و(الباطل) حقيقيّ. وتجدر الإشارة إلى أنّ الطّباق بين كلمتي (الحق) و(الباطل) ورد أكثر من أربعين مرّة في كتاب عيون البصائر، وهذا من فرط ما رآه الإبراهيميّ من سلب للحقوق وانتهاك للحرّيّات.

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص32.
[2] المصدر نفسه، ص35.
[3] المصدر نفسه ، ص43.
[4] المصدر نفسه، ص59.
[5] المصدر نفسه، ص103.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الإبراهيميّ قد نوّع في أنواع الطّباق المختلفة في المقال الواحد، لإبعاد الملل عن القارئ، فقد يكون الطّباق الحقيقيّ أوجب لأنّ الخطاب مباشر، مثل ما ورد في المقالة الأولى من سلسلة (القضيّة ذات الذنب الطّويل)، حينما يتحدّث عن قضيّة فصل الدّين الإسلاميّ عن حكومة الاحتلال، قائلا: "**فإنّ إصرارنا على الحقّ نتيجة لإصرار الحكومة على الباطل**."[1] فقد طابق بين (الحقّ) و(الباطل) وهو طباق حقيقيّ، وظّفه الكاتب لأنّه يخاطب الاحتلال، ولا مجال للمراوغة والتلميح، بل هو يكشف عن مطالبه بشكل علنيّ.

– ومن أمثلة طباق السّلب، نجد على سبيل المثال ما يورده في سياق مدحه الدّين الإسلاميّ، واصفا إيّاه بالشّمولية حيث تعرّض إلى الأحكام التّشريعيّة التي تخصّ كل مجالات الحياة، "**وبنى أصولها على الفطرة وما تحتمل وما لا تحتمل**..."[2] ويظهر طباق السّلب بين (تحتمل) و(لا تحتمل)، وهو مجازيّ.

ومثل ذلك ما جاء في كلامه عن جهود الحكومة الفرنسيّة في تقصّي كل كبيرة وصغيرة تكتبها أقلام الجمعيّة، إذ تستعرض كلّ الاحتمالات، "**وتحمل الكلام من المقاصد وحظّها ما يطيق وما لا يطيق**..."[3] وقد طابق بين (يطيق) و(لا يطيق). وهذان طباقان مجازيّان لأنّ الفطرة والكلام شيئان معنويّان، ويبدو أنّ الكاتب آثر التّعبير عن هذا التّضاد باستعمال طباق السّلب بتكرار الفعل نفسه من أجل التّوكيد.

وفي مثال آخر، ينصح الأئمّة غير المخلصين الذين يمارسون الإمامة من أجل المرتّب لا غير، قائلا: "**كلّ هذا ونحن لا نريد لهم قطع المرتّب، وإنّما نريد لهم تثبيته واستحقاقه بشرف**..."[4] فطابق بين (لا نريد) و(نريد)، وهذا طباق حقيقيّ.

ونجد مثل هذه الطّباقات الحقيقيّة في الكثير من المقالات منها مقالة (خصمان فمن الحكم؟)، حيث يعلّق الإبراهيميّ على السّجال الدائر بين الحكومة والأمّة التي تدافع عنها جمعيّة العلماء،

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص186.

[2] المصدر نفسه، ص132.

[3] المصدر نفسه، ص144.

[4] المصدر نفسه ، ص158.

قائلا: "**فنحن لا نسكت حتى تنصف، وهي لا ترضى حتى نسكت...**"[1] فطابق بين (لا نسكت) و(نسكت). وكذلك مقالة من سلسلة (التّعليم العربيّ والحكومة)، التي ينتقد فيها الإبراهيميّ تعسف الحكومة في ميدان التعليم الحرّ، حيث أبقت على تشريعات قنّنتها في زمن الحرب وصارت لا توافق زمن السّلم، قائلا: "**فما يصلح فيه لا يصلح في غيره...**"[2] فطابق بين(يصلح) و(لا يصلح).

وقد أورد الإبراهيميّ طباق السّلب أيضا حينما يقارن بين الأسلاف والأخلاف في جدّيّتهم وإصرارهم على طلب العلم، فيقول: "**كانوا يقيّدون وأنتم لا تقيّدون...**"[3] وقد يبدو الطّباق هنا مجازيّا، إلاّ أنّ المتمكّن من اللّغة العربيّة سرعان ما ينتبه إلى أنّه حقيقيّ، فقد طابق بين (يقيّدون) و(لا تقيّدون). ويعني بالتّقييد تشكيل الكلمات وتنقيطها؛ وترك ذلك عادة سيّئة ظهرت في أوساط الطلاّب في ذلك العهد، وتفشّت الآن بشكل ملفت.

وقد يكون الطباق المجازيّ أجمل وأبلغ لأنّ المقام يقتضي ذلك، فمثلا حينما يتابع كلامه في المقال نفسه محذّرا الجزائريّين من سياسة الاحتلال في مسخ مقوّمات الأمّة باستعمال أساليب التّمويه التي "**تخدع العين والأذن ولكنّها لا تخدع الحقيقة.**"[4] فهو يطابق بين (تخدع) و(لا تخدع)، وهو طباق مجازيّ، لأنّ خداع العين والأذن بالمسخ هو على سبيل المجاز، والمقصود من الخداع ليس الكذب فحسب، بل تخدير الشّعب وجعله يغط في بحر من الخيال الزّائف.

وقد يكون هذا التّنويع في الفقرة الواحدة مثلما نجده حين ينصح الطّلبة قائلا: "**إنّ الحياة قسمان: حياة علميّة وحياة عمليّة، وإنّ الثّانية منهما تنبئ على الأولى قوّة وضعفًا، وإنتاجا وعقما، وإنّكم لا تكونون أقوياء في العمل، إلاّ إذا كنتم أقوياء في العلم...**"[5]

وفي السّياق ذاته يردف ناهيا إيّاهم عن الانشغال باللهو عن العلم، فيقول: "**واعلموا أنّ كلّما يدعوكم إلى ذلك إنّما يدعوكم ليضلّكم عن سبيل الله...أو ليلهيكم بما لا تحسنون عما**

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص179.
[2] المصدر نفسه ، ص267.
[3] المصدر نفسه، ص217.
[4] المصدر نفسه ، ص187.
[5] المصدر نفسه، ص217.

تحسنون... إنّ من يريد أن يتكثّر بكم لا يتكثّر إلاّ ليقلّلكم..."[1] ففضلا عن وجود طباق الإيجاب بين لفظتي (يتكثّر) و(يقلّلكم)، نجد في الفقرة، طباقي سلب حقيقيّين في (لا تحسنون ≠ تحسنون) ، وفي (يتكثّر≠ لا يتكثّر).

أ-4 – المقابلة:

إنّ المقابلة بعناصرها المتضادّة لا توظّف لتحسين الأسلوب فقط، بل هي قطعة فنّيّة لا يستغني الكاتب عنها للتعبير عن المعاني التي لا يستطيع إيصالها دون إيراد الكلمات وأضدادها. ومن أجمل المقابلات التي وردت في القرآن الكريم، لتعدّد الألفاظ المتضادّة فيها قوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى واتَّقَى(5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(6) فَسَنُيَسِّرُهُ لليُسْرَى(7) وأمّا مَن بَخِلَ واستغنى(8) وكذّب بالحُسْنَى(9) فَسَنُيَسّرُه للعُسْرَى(10)**﴾ الآيات من 5 إلى 10 من سورة اللّيل. ونلاحظ أنّ المقابلة جاءت بأربعة ألفاظ وهي (أعطى وبخل، اتّقى واستغنى، صدّق وكذّب، اليسرى والعسرى).

ولقد وظّف الإبراهيميّ المقابلة بكمّ أقلّ من السّجع والجناس والطّباق، باعتبار المقابلة عدّة طباقات تستلزم الترتيب والتناسق، ترد في العبارة نفسها، وتراعي المعنى والمبنى، وهذا ليس باليسير كالطّباق. ويختلف هدف توظيف الإبراهيميّ للمقابلة حسب المعنى المقصود:

- فنجده يوظّفها لتأكيد المعنى وتوضيحه، مثل ما ورد في سياق تقديمه معاني العيد المتعدّدة، حيث يقول: "**والعيد في معناه الإنسانيّ يوم تلتقي فيه قوّة الغنيّ وضعف الفقير على (اشتراكيّة) من وحي السّماء عنوانها (الزّكاة) و(الإحسان) و(التّوسعة).**"[2] ونرى المقابلة بلفظين في (قوّة و ضعف)، و(الغنيّ والفقير). فمن أجل توضيح الفرق الشّاسع بين الغنيّ والفقير مادّيا، وصف الأوّل بالقوّة والثّاني بالضّعف.

وفي بيانه الحكمة من الصّيام الذي "**يحرّك النّفوس إلى الخير، ويسكّنها عن الشّر...**"[3] والمقابلة هنا بين (يحرّك ويسكّن)، و(الخير والشّر). وجاءت لتقوية معاني الصّوم التي هي فعل الخيرات.

وفي إدانته استيلاء الإدارة الفرنسيّة على أوقاف المسلمين الجزائريّين، حيث يصف ذلك باللّصوصيّة

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص218، 219.

[2] المصدر نفسه ، ص543.

[3] المصدر نفسه ، ص573.

التي "**لا تتأتّى إلاّ في الغفلة أو النّوم أو الظّلام، فأمّا في الانتباه واليقظة والنّور فافتراس تبرّره القوّة والعتوّ...**"[1] وقد قابل الكاتب بين (الغفلة والانتباه)، و(النّوم واليقظة) و(الظّلام والنّور).

وفي مستهلّ حديثه عن إمامَيْ النّهضة في المغرب العربيّ محمّد الطّاهر بن عاشور، وعبد الحميد بن باديس، يذكر الإبراهيميّ منهجيّة عمل جريدة البصائر، فيقول: "**وهي تمدح المستحقّين للمدح فلا تشين المدح بالغلوّ، وتذم المستأهلين للذّمّ فلا تزيّن الذّمّ بالكذب والاختلاق.**"[2] وتكمن المقابلة هنا بأربعة ألفاظ بين (تمدح وتذمّ)، و(المدح والذّم)، و(تشين وتزيّن)، و(المدح والذّم).

– ونجده يورد المقابلة للتّعبير عن المفارقة الناتجة عن فعل شيء، والمطلوب عكسه تماما، ومثل ذلك نصحه الطلاّب على احترام المواقيت من أجل تدارك ما فات الأمّة من وقت، فيقول لهم: "**إنّنا – يا أبنائي– كنّا أوّل من نام، وآخر من استيقظ...**"[3] وقد قابل الكاتب بين (أوّل وآخر)، و(نام واستيقظ). وقد أبلغ الكاتب في هذه العبارة إذ تدلّ هذه المفارقة على جسامة التّردّي الذي وصل إليه الوضع آنذاك. ويا لها من صورة مؤسفة أن يتراكم الكسل والتخلّف إلى درجة أن يقضي الجزائريّ جلّ وقته في الرّاحة والنّوم. ويهدف الكاتب بهذا اللّوم إلى توعية الشّباب بضرورة الحراك.

وكذلك حينما يهاجم الصّحافة الجزائريّة الموالية للاحتلال، لأنّها تغضّ الطّرف عن تجاوزات الإدارة، فيقول: إنّها "**تأمر في حقّ الأمّة الجزائريّة بالمنكر، وتنهى عن المعروف...**"[4] وقد قابل الكاتب بين (تأمر وتنهى)، و(المنكر والمعروف). فعوض الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، قامت الإدارة بالعكس، فجاءت هذه المقابلة حاملة شيئا من السّخرية من تصرّف الاحتلال العبثيّ.

والشّيء نفسه نجده في استنكاره تصرّف علماء الدّين الجزائريّين الموالين للإدارة الفرنسيّة، حينما سكتوا عن المطالبة بحقوق المسلمين بل تعدّوا إلى الاستنجاد بها من أجل حماية الدّين، قائلا: عنهم إنّهم"**لا ينصرون حقّا ولا يخذلون باطلا...**"[5] ويعني بهذه المقابلة أنّ هؤلاء الخونة ينصرون

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص98.
[2] المصدر نفسه، ص627.
[3] المصدر نفسه، ص288.
[4] المصدر نفسه، ص409.
[5] المصدر نفسه، ص470.

الباطل ويخذلون الحقّ، وهي قمّة النّذالة.

وكذلك حين يتعرّض إلى ظاهرة عزوف الشّبّان عن الزّواج، وحجّتهم في ذلك جهل الفتيات المسلمات، والحقيقة هي تأثّرهم بالثّقافة الغربيّة حتى صار الشّابّ "**يأنف من الفضيلة إذا كانت أمّيّة، ولا يأنف من الرّذيلة إذا كانت متعلّمة...**"[1] وقد جعل الكاتب المقابلة بين (يأنف ولا يأنف)، و(الفضيلة والرّذيلة) و(أمّيّة ومتعلّمة). فبدلا من أن يقبل على الزّواج بالمتخلّقة، فهو يتحاشى ذلك زاعما أنّها أمّيّة، ولا يجد حرجا من أن يتزوّج بغير المتخلّقة بدعوى أنّها مثقّفة. والمغزى من هذه المقابلة هو دعوة الشّباب إلى العفّة والعودة إلى الحكمة من الزّواج.

– ونجده يوظّف المقابلات التي لا تأتي لمجرّد المقارنة، بل لربط علاقة شيء لا يتحقّق إلا بشيء آخر، نحو ما جاء في دعوة الإبراهيميّ الجزائريّين إلى الاتّحاد والانخراط في العمل السّياسيّ، للوقوف ندّا أمام العملاء والفرنسيّين الذين سيزدادون قوّة إن بقوا مشتتين، فيقول: "**إنّ ضعف الضّعيف لا يكون – في سنّة الله – إلاّ زيادة في قوّة القويّ...**"[2] وقد قابل الكاتب بين (ضعف وقوّة)، و(الضّعيف والقويّ)، لكي يؤكّد على أنّ تغلّب القوي المستبدّ لا يرجع إلى قوّته إنّما يعود إلى ضعف الضّعيف واستكانته. ويرمي الكاتب بهذا إلى إيقاظ وعي الجماهير لتغيير الأوضاع.

ونجد مثل ذلك عندما يشيد بدور جامع الأزهر في التّمهيد للثورة ضدّ الاحتلال البريطانيّ، ويشدّد على الاستمرار بإرادة وحزم في الجهاد حتّى النّصر، لأنّ الثورات "**لا تُحمدُ مبادِيها حتّى تُحمدَ خواتمُها...**"[3] ونلاحظ أنّ المقابلة هنا جاءت بين (لا تحمد وتحمد)، و(مباديها وخواتمها). والمقصود أنّ العبرة في نجاح ثورة أو عمل ما في الخواتيم، وليس في مجرّد التّنفيذ دون التّخطيط الدّقيق للنّجاح.

وكذلك حينما يطالب عقلاء الغرب بإنصاف الشّعوب المتخلّفة بمساعدتهم لمواكبة قافلة الرّكب الحضاريّ قائلا: "**فهلاّ أذّنتم في أولاها بالأناة والتّلبّث، وحدوتم في أخراها بالعجلة واللّحاق...**"[1]

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص324.

[2] المصدر نفسه ، ص332.

[3] المصدر نفسه، ص567.

[1] المصدر نفسه، ص414.

وتظهر المقابلة بثلاثة ألفاظ في (أولاها وأخراها)، و(الأناة والعجلة) و(التّلبّث واللّحاق). ويريد الكاتب أن يقول إنّ المتخلّفين لن يتمكّنوا من اللّحاق بالرّكب الحضاريّ إلا بتريّث الغرب المتطوّر، عساه يكفّر عن ذنب احتلاله للبلدان المتخلّفة لقرون عديدة.

وبعد هذه النّماذج القليلة مقارنة بما ورد في الكتاب، يمكنني القول إنّه ليس من الغريب أن يوظّف الشّيخ الإبراهيميّ فنون البديع لأسباب جماليّة، كونه يصنّف من كتّاب الصّنعة اللّفظيّة في العصر الحديث. فلقد أدرج الكثير من النّقّاد أدباء عصر النّهضة في خانة من تأثر بكتابات عصور الانحطاط بل عدّوهم امتدادا لهم، "**ويدلّلون على ذلك بشواهد من بعض ظواهر البديع التي استخدمها هؤلاء الكتّاب، فيتحدّثون عن السّجع، ويرون فيه قيدًا من القيود التي تكبّل الفكرة ... ويتحدّثون عن الجناس ويرون فيه نوعًا من التّكلّف البغيض الثّقيل... فيحمّلون هذه الأساليب مسؤوليّة التّأخّر الفكريّ والانحطاط الأدبيّ...**"[1] ويرى بعض البلاغيّين أنّ استخدام فنون البديع في الشعر الجاهليّ كان عفويّا "**فقد كان يقع ذلك في خلال قصائدهم ويتفق لها في البيت بعد البيت على غير تعمّد أو قصد**"[2] مما دفع المحدثين فيما بعد إلى التكلّف، ومحاولة تحسين أدبهم بهذه الفنون. ولكنّ هذه الفكرة لا تنطبق بتاتا على المفكّرين المتمرّسين في الكتابة الأدبيّة أمثال الشّيخ الإبراهيميّ الذّي كان مفكّرا قبل أن يكون أديبا، عالما قبل أن يكون معلّما، صالحا قبل أن يكون مصلحا. فاستعمل هذه المحسّنات كما يستعمل النّحّات إزميله أداة لتجسيد فكرة نشأت في ذهنه ثمّ حوّلها إلى تحفة تجذب العين. فلو لم تكن الفكرة حاضرة لما تشكّلت التحفة، ولو لم يكن النّحّات متمكّنا في فنّه لكانت التّحفة ذات شكل دميم. "**إنّ هذه المحسّنات أدوات، والأداة ليست شيئا، وإنّما اليد التي تستعمل هذه الأداة هي المسؤولة عمّا تعمل بها.**"[3] وأداة الإبراهيميّ في تزيين كتاباته كانت ذلك الكمّ الهائل من المحسّنات البديعيّة التي وطّدت العلاقة بين الفكرة والمعنى، بمعنى أنّ المضمون يسهل إيصاله كلّما صُبغ بلون أجمل، خاصّة إذا كان هذا المضمون حاملا رسالة ذات هدف هو الإقناع والوصول بالتأثير على المتلقّي إلى أقصى حدّ ممكن.

---

[1] شكري فيصل، قضايا الفكر في آثار الإبراهيمي، ص192.

[2] الجرجاني، علي بن عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح، إبراهيم محمد أبو الفضل ، علي محمد البجاوي، ط4 ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1966 ، ص34 .

[3] شكري فيصل، قضايا الفكر في آثار الإبراهيمي، ص193.

ولقد ذهب نقّاد آخرون إلى أبعد من هذا فرأوا أنّ المحسّنات البديعيّة "**ليست اصطناعا للتحسين والبديع وإنّما هي أصلا للإبلاغ والتّبليغ**".[1] والمقصود هو أنّ فنون البديع تمتلك طاقات إبلاغية تجعل المعنى أوضح مع الزّيادة في جمالية الصورة الفنية، لأنّ النّفس تستلذّ المقارنة بين المتشابهات والمتضادّات، والعقل يميّز الفكرة بهذه المقارنة. وهو يكون مكروها إذا اقتصر على تحسين الشّكل، أمّا إذا زاد في المعنى وقوّة الإبلاغ فهو مستحسن.

في ختام هذا المبحث الذي تطرّقت فيه إلى البديع في مقالات عيون البصائر، يمكن أن نقول إنّ الإبراهيميّ أبدع في استخدام هذا الفنّ في مواطن الجدّ والسّخرية، والمدح والذمّ، والنّصح والفضح. فحينما تطلّب الموضوع الإكثار فيه بسبب قوة العاطفة كالغضب والحزن، فاضت مقالاته بالمحسّنات البديعيّة التي لوّنت المضمون برونق من الفصيح الجماليّ يمثّل غاية الإبداع، وحينما استلزم الكلام العرض والتّحليل قلّت فكان الحسن فيه يأتي نابعاً من ذات النص، لأنّ الفكرة أهمّ من اللّفظ ممّا يدل على أنّ الكاتب أحسن توزيع البديع عن دراية ومعرفة.

---

[1] ميشال زكريا، الألسنية علم اللغة الحديث، ط2، بيروت ، 1985، ص90.

ب- الصّور البيانيّة وأسباب استعمالها في مقالات عيون البصائر:

إنّ من يقرأ للإبراهيميّ، يكتشف عوالم من الخيال مخبّأةً وراء لغة قويّة سحرا وبيانا، فإن قال أحدهم إنّ هذه صنعة، فما أبلغها من صنعة، ويا ليت كتّاب اليوم يتصنّعون مثله، فأساليبه البيانيّة المألوفة منها والغريبة النّابعة من مصادر التّراث المختلفة توطّد العلاقة بين القارئ ومضمون المقالة بصورة متينة؛ فلا يكاد ينتقل من فكرة بعد استساغتها بانبهار حتّى تباغتَه عبارةٌ أخرى ليست أقلّ من الأولى بلاغة. فتتوالى هذه الصّور البيانية مؤلّفة قطعة أدبيّة متناسقة الأفكار والمعاني. ولقد وظّف الإبراهيميّ فنون البيان الأربعة بشكل كبير، ممّا يدلّ على اطّلاعه الواسع على أساليب البلاغة المختلفة. واستهدف من خلال هذه الصّور البيانيّة إثارة المتلقّي سلبيّا بالذّمّ والسّخريّة، وإيجابيّا بالمدح والإشادة. وقد نالت الاستعارة في كتابه هذا حصّة الأسد، لما لها من وقع في القلوب وتأثير في الأذهان مع ما تتميّز به من إيجاز في القول.

ب-1- التّشبيه:

إنّ التّشبيه -بصفته فنّا يدلّ على دقّة الكاتب في المقارنة بين الأشياء وأشباهها، وحسن اختياره في التّعبير عن شيء خفيّ بشيء جليّ، أو عن شيء ضعيف بشيء قويّ- من الوسائل التي اعتمدها الإبراهيميّ في السّموّ بكتاباته إلى مقامات بالغة البيان، و"**تنشأ بلاغة التّشبيه من أنّه ينتقل بك من الشّيء نفسه إلى شيء طريف يشبهه، أو صورة بارعة يمثّله. وكلّما كان هذا الانتقال بعيدًا قليل الخطورة بالبال، أو ممتزجا بقليل أو كثير من خيال، كان التّشبيه أروع للنّفس وأدعى إلى إعجابها واهتزازها**."[1]

ومن أمثلة التّشبيه في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿**إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (43) طَعَامُ الأَثِيمِ (44) كَالْـمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ(45)**﴾ الآيات 43 و44 و45 من سورة الدّخان. فطرفا التّشبيه هما طعام الأثيم والمهل أي الزيت الحامي ووجه الشّبه هو الغليان.

وفي كلام العرب قول البحتريّ:

[1] علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، دار المعارف، ط17، مصر، 1964، ص65.

وتراه في ظُلَم الوغى فتخاله قمرا يكرّ على الرّجال بكوكب[1]

لقد استعمل الإبراهيميّ التّشبيهَ بأنواعه المختلفة* بدرجات متفاوتة حسب الغرض المرجوّ منه:

– فأحيانا يستعمل التّشبيه لغرضه الأساسيّ وهو عقد مقارنة بين شيئين، كونَ الفكرة التي يدلّ عليها أكثرَ بيانا وأوضح دلالة من التّعبير عن المعنى مباشرة دون استخدام التّشبيه. مثل قوله:"**إنّ الانتخابات في نظر الأمم الحيّة كميدان المصارعة الرّياضيّة، لا ينتهي المتصارعان حتّى يتصافحا على الوفاء للفنّ...**"[2] فتصوير الانتخاب الشفّاف والنّزيه الذي ينتهي بقبول كل الأطراف المشاركة بنتائجه –سواء فازت أو خسرت فيه– قد تحقّق بهذا التّشبيه بفن المصارعة النّبيلة.

وكذلك في تشبيهه عودة جريدة البصائر إلى الصّدور بعد طول احتجاب بالشروق، قائلا: "**وهذه جريدة البصائر تعود إلى الظّهور بعد احتجاب طال أمده وكما تعود الشّمس إلى الإشراقِ بعد التّغيّبِ.**"[3] ويبدو التشبيه مرسلا مفصلا لوجود الأداة (كما)، ووجه الشّبه (الإطلالة بعد الغياب). ورمى الكاتب بهذا التّشبيه أن يشير إلى ضرورة وجود الجريدة لإفادة قرّائها، إذ تبصّرهم بالحقائق وتغذّيهم بالعلم النّافع، فلا يجوز الاستغناء عنها مثلما لا يمكن استغناء الكائن عن الشّمس.

وكذلك ما نجده حين يفضح الإدارة الفرنسيّة التي حوّلت الانتخاب من حقّ وواجب يمارسه المواطنون لاختيار ممثّليهم بحرّيّة، إلى مجرّد مسرحيّة معروفة النّهاية، قائلا: "**وكلّ ما قلناه عن الانتخاب فهو القاعدة، فإن شذّ عنها شيءٌ فهو تعويذةٌ يُدفع بها النّقد، وستارٌ تُغطّى به الحقيقة.**"[1] وفي العبارة تشبيهان، فقد شبّه الكاتب هذا النّزر اليسير من الجدّيّة في تعامل الإدارة المحتلّة مع المواطن في الاستحقاقات الانتخابيّة بالتعويذة التي تدفع الشّرور من أجل التّمويه،

---

[1] رفيق خليل عطوي، صناعة الكتابة، ص34.

* أنواع التّشبيه: التّشبيه المرسل وهو ما ذكرت فيه الأداة كالكاف، وكأنّ، ونحو، ومثل، والتّشبيه المؤكّد وهو ما حذفت منه الأداة، والتّشبيه المفصّل وهو ما ذكر فيه وجه الشّبه، والتّشبيه المجمل وهو ما حذف منه وجه الشّبه، والتّشبيه المؤكّد المجمل أو البليغ وهو ما حذف منه وجه الشّبه والأداة معا. ينظر: علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، ص20–25.

[2] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص333.

[3] المصدر نفسه، ص15.

[1] المصدر نفسه، ص126.

وشبّهه مرّة أخرى بالسّتار الذي يغطّي الحقيقة. ونلاحظ أنهما تشبيهان مؤكّدان مفصّلان لأنّ الأداة محذوفة في كليهما ووجه الشّبه مذكور فيهما وهو دفع المكاره في الأوّل وإخفاء الحقيقة في الثّانيّ.

– وأحيانا نجده يستعمل التّشبيه لغرض الإمتاع الذي لا نجده في غيره من طرق الكلام، مثل قوله: "**جاء الاستعمار الفرنسيّ إلى هذا الوطن، كما تجيء الأمراض الوافدة تحمل الموت وأسباب الموت...**"[1] فتشبيه الاستعمار بالدّاء المميت أبلغ من وصفه مباشرة بأنّه يقتل الجزائريّين، أمّا جانب الإمتاع فيه فهو تصوير هذا الاحتلال بمواصفات الفيروسات القاتلة، فهو دخيل، وطفيليّ، ومضرّ.

ومثل ذلك تشبيه الدّيمقراطيّة المزيّفة لدى المنافقين السّياسيّين بالعلك الذي لا فائدة من مضغه، بل هو مضرّ للمعدة لأنّ من يلوكه يوهمها بأكل طعام وهو لا يفعل، فكذلك من يدّعي الدّيقراطيّة ولا يؤمن بها، إذ يقول: "**وأصبحت في أفواههم كالعلك يمضغ ولا يزدردّ.**"[2] وهذا التشبيه مرسل مفصّل لوجود أداة التشبيه (الكاف)، ووجه الشّبه وهو المضغ دون البلع. ونلاحظ جانب الإمتاع في هذا المثال حيث نتخيّل اجترار السّاسة للوعود الرّنّانة الكاذبة في الحملات الانتخابية، ولكن سرعان ما يتناسونها بعد مرور هذه المناسبات.

وكذلك عندما يشبّه الاحتلال –مهما ادّعى التّحضّر– بحيوان ذي قوائم أربعة، فيقول: "**إنّ الاستعمار القائم على الجنديّ والمعلّم والطّبيب والرّاهب هيكل حيوانيّ يمشي على أربع.**"[3] وهذا تشبيه مؤكّد مفصّل، إذ حذفت منه أداة التّشبيه، وذكر وجه الشّبه وهو المشي على أربع. ويكمن عنصر الإمتاع هنا في الصّورة الكاريكاتيريّة التي رسمها هذا التّشبيه عن الاستعمار التي تدعو إلى السّخرية.

– وأحيانا نجده يستعمل التّشبيه لغرض الإقناع، مثل قوله: "**إنّ الأمّة الإسلاميّة ترى أنّ المساجد والأوقاف هما مسألة واحدة لا يمكن الفصل بينهما، كالشّخص وظلّه.**"[1] فهذا التشبيه مرسل مفصّل، يبيّن الصّلة الوثيقة التي يستحيل قطعها بين المساجد والأوقاف تماما كصلة الإنسان بظلّه

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص21.
[2] المصدر نفسه، ص20.
[3] المصدر نفسه، ص85.
[1] المصدر نفسه، ص29.

–حيث لا ينفصلان أبدًا– أدّى غرضه الإقناعيّ.

ومثل ذلك ما ورد في معرض استشهاده بأحداث الفتنة الكبرى، وكيف تمّ إرساء حكم بني أمّيّة واستخلاف معاوية –رضي الله عنه–لابنه يزيد مهما كان الثّمن،"**ولكنّه كان يرى تلك البيعة كاللّغو، ما لم يبايع العبادلة والحسن، لمكانتهم في العلم...**"[1] وهذا تشبيه مرسل مجمل، حيث شبّه الكاتب بيعة يزيد باللّغو واللّعب، وحذف وجه الشّبه، وأبقى على الأداة. ويبدو أنّ الكاتب يقصد بتشبيه البيعة النّاقصة باللّغو الذي لا طائل منه، بغرض إقناع النّاس ببطلانها ما لم يبايع العلماء والأشراف.

وكذلك لمّا ينفي وجود أيّ علاقة تربط الإسلام بفرنسا، فيقول: "**والإسلام وفرنسا كالزّيت والماء، لا يمتزجان إلّا في لحظة التّحريك العنيف**"[2] فهذا تشبيه مرسل مفصّل، حيث شبّه الكاتب هذا التّنافر بين الإسلام وفرنسا بتنافر الماء عن الزّيت، وهي حقيقة علميّة لا شكّ في صحّتها.

– وأحيانا نجده يستعمل التّشبيه لغرض الترغيب في المشبّه أو التنفير منه. ففي قوله مخاطبا الشّباب الجزائريّ: "**أنتم اليوم جنود العلم فاستعدّوا لتكونوا غدا جنود العمل...**"[3] تشبيه للطلبة بالجنود المدافعين عن الوطن، فكان غرض هذا المدح الترغيب في طلب العلم.

ومثل ذلك قوله: "**والاستعمارُ سلٌّ يحارب أسباب المناعة في الجسم الصّحيح...**"[1] تشبيه الاستعمار بمرض السّل والغرض منه التنفير من الاحتلال بذمّه.

وكذلك ما يورده في سياق انتقاده مرتزقي السّياسة الذين باعوا ضمائرهم من أجل إرضاء فرنسا، لأنّ عملهم هذا لا فائدة منه للوطن، قائلا: "**إنّ السّياسة لباب وقشور، وإنّ حظّ الكثير منكم–مع الأسف والمعذرة – القشور دون اللّباب.**"[2] ويبدو التّشبيه بليغا لحذف أداة التّشبيه ووجه الشّبه بين السّياسة والثّمرة وهو أنّ كليهما فيهما الصّالح والطّالح. وقد شبّه السّياسة بثمرة فيها لباب وقشور،

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص342.

[2] المصدر نفسه، ص390.

[3] المصدر نفسه، ص219.

[1] المصدر نفسه، ص22.

[2] المصدر نفسه، ص44.

فأمّا اللّباب فيقصد به مصلحة الوطن، وأمّا القشور فيقصد بها مفسدته. وأدّى هذا التّشبيه غرضه في تنفير النّاس من السّياسة –في ظلّ الاحتلال–التي لا فائدة منها.

وحينما يقارب بين دجّالي الخرافات والبدع ودجّالي السّياسة، يؤكّد اتّفاقهم في نقطة واحدة، "**وهي أنّ بضاعتهما وعود غرّارة، وبروق كاذبة، وخيالات لا حقيقة لها، وأماني لم تسلك لها وسائلها، ومقدّمات لم تربط بها نتائجها...**"[1]

وفي العبارة خمسة تشبيهات بليغة، والمشبّه مشترك فيها وهو البضاعة، والمشبه به هو الوعود، والبروق، والخيالات، والأماني، والمقدّمات. وقد استعمل الكاتب هذا التّشبيه لينفّر الشعب من الدّجّالين والمشعوذين المتاجرين بأعراض النّاس.

– وأحيانا يستعمل التّشبيه لنقل المعنى إلى السامعين بحيث يفهمونه بمجرّد ما يُلقى إليهم مقروناً بالتّشبيه، وتتفاوت درجة الإيضاح حسب مستوى الفهم لدى المتلقّي، فنجده تارةً يوظّفه بسيطا، لا يكلّف القارئَ عناءً من أجل الفهم، كقوله مخاطبا رئيس الجمهورية الفرنسيّ:"...**وأن تحاطوا بالمواكب الرّسميّة التي تحجب عنكم الحقائق كما يحجب الضّباب نور الشّمس.**"[2] ونلاحظ من هذه العبارة تشبيهًا واضحا لا يحتاج القارئ إلى إعمال عقله لفهم العلاقة بين حجب الضّباب نورَ الشّمس، والتّستّر عن الحقائق.

– ونجده تارةً أخرى يوظّفه معقّدا يتطلّب من المخاطب تأمّل العبارة بدقّة حتّى يؤوّل كلام الكاتب، فتثير فيه الإعجاب والتّحسين، كقوله:"**الاستعمار عملٌ أوّله ختلٌ، وآخره قتلٌ، وشرّ لا بقاءَ عليه، ثمّ لا بقاء له، ووحشٌ مروّض آخر صرعاه رائضه...**"[1]

ونلاحظ من هذه العبارة تشبيهات بليغة تلزم القارئ أن يتمعّن فيها لفهم المقصود منها، فتشبيه الاستعمار بعمل يبدأ بالخداع وينتهي بالقتل ينفي عنه الإنسانيّة؛ وتشبيهه بالشّر الذي سيفنى يومًا رغم أنّه يبيد كلّ شيء يقصد منه أنّ الاحتلال رغم شراسته سيرحل لا محالة؛ وتشبيهه بالوحش

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص225.

[2] المصدر نفسه، ص77.

[1] المصدر نفسه، ص416.

المروّض الذي يفترس كلّ من يجده أمامه –حتّى صاحبه– يقصد منه أنّ السّحر سينقلب على السّاحر، فكما تدين تدان.

ب – 2–المجاز:

إنّ المجاز ليس تلاعبا بالكلام وإنّما قول جميل يلمّح به الكاتب البارع إلى معنى باستعمال معنى آخر. ويحمل المجاز في العبارة إبداعا فنّيّا لا يؤدّيه الكلام العاديّ إذا استعمل على وجه الحقيقة في كثير من الأحيان. فالمجاز "**فيه تخلّص من قيد العبارة وضيقها، وشعور بحريّة الشّاعر أو الأديب لأن يصبّ المعاني في القوالب التي يتصوّرها خياله، والأشكال التي يستسيغها ذوقه...**"[1] وقد شاع استعمال المجاز عند العرب، لأنّهم كانوا يميلون إلى تحسين كلامهم بالتّلميح لا التّصريح، لنباهتهم في تذوق فنّ القول، "**فيتحقّق بالاستعمال المجازي ذلك الوفاق بينه وبين السّامع لشهرة لفظ المجاز عن لفظ الحقيقة، أو لشهرة التّركيب المجازي عن الإسناد الحقيقيّ في الكلام.**"[2] ومن أمثلة المجاز في القرآن قوله تعالى : ﴿ **وما أدراك ما العقبة (12) فك رقبة (13) أو إطعام فى يوم ذى مسغبة (14)** ﴾. الآيات 12و13و14 من سورة البلد. والمراد بفكّ الرّقبة هو تحرير عبد من الرّقّ، فذكر الرّقبة وهي الجزء الأهمّ من الجسد وأراد الإنسان المستعبد

وتتمثّل أغراض المجاز بشكل عامّ في الإيجاز والإمتاع والمبالغة في التّصوير لتأكيد المعنى وتوضيحه. وقد وظّف الإبراهيميّ المجاز في مقالاته لتحقيق هذه الأغراض حسب الحاجة:

– ففي قوله مثلا: "**رأى الاستعمار...**"[1] مجاز عقليّ* حقّق غرض الإيجاز، إذ بدل القول (رأى القادة الفرنسيّون المحتلّون للجزائر)، اختصره فأدّى المعنى ممّا أضفى على الكلام خفّة وجمالا.

---

[1] بكري شيخ أمين، البلاغة العربيّة في ثوبها الجديد: علم البيان، ص98.

[2] مختار عطيّة، علم البيان وبلاغة التّشبيه في المعلّقات السّبع، دار الوفاء لدنيا الطّباعة والنّشر، الإسكندريّة، دت، ص125.

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص57.

* ويكون في إسناد الفعل إلى غير ما هو له. كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلَالَةِ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِجَارَتُهُم وَمَا كَانُوا مُهْتَدِين﴾ الآية 16 من سورة البقرة. فأُسند الفعل (ربح) إلى التّجارة، والمقصود أصحابها. ينظر: محمّد مصطفى هدّارة، في البلاغة العربيّة: علم البيان، دار العلوم العربيّة، بيروت، 1989، ص52.

ونجد مثل هذا المجاز الذي حقّق فيه غرض الإيجاز في الكثير من المواضع مثل ما نجده في حديثه عن الإزعاج الذي سبّبته جمعيّة العلماء للإدارة بسبب مواقفها الصّامدة، وهكذا "**سمع الاستعمار لأوّل مرّة في حياته بهذه الدّيار نغمة جديدة...**"[1] والمراد هنا سماع أعوان وجنود الاستعمار بما يقوله العلماء، وليس الاستعمار نفسه، فأسند الفعل (سمع) إلى غير فاعله. ويبدو الإيجاز مقصودا إذ يقترن الفعل بكلّ من يتجسّس وهذا لا يفعله إلاّ العملاء المأجورون.

وكذلك في حديثه عن منشور الوالي العامّ الذي نصّ على فصل الدّين عن الدّولة، ووصفه بالغامض المستحيل تطبيقه، فيقول: "**قرأت الأمّة هذا فعجبت...**"[2] ونلاحظ في العبارة مجازين عقليين، وهما إسناد فعل القراءة والتّعجب إلى الأمّة بدلا من الفاعل الحقيقيّ وهو الشعب. ولا شكّ في أنّ هذا الإيجاز خدم الفكرة إذ عبّر عن استيقاظ كل أفراد الشّعب، و بلوغهم درجة كبيرة من التثقّف التي تظهر بالقراءة ومواكبة كلّ ما يطرأ.

وكذلك بعدما يصف انتشار القِباب التي تُشدّ إليها الرّحال في كلّ أرجاء عمالة وهران، فيقول: "**واسأل الحقيقة تجبك عن نفسها.**"[3] ويكمن المجاز المرسل في أنّ الكاتب تجوّز بالسؤال للحقيقة والمراد أصحابها العارفين بخبايا الطّرقيّة وزيف دعاويهم.

وفي وصفه العروبة، يقول: "**إنّ العروبة جذم بشريّ ...عرفه التّاريخ...**"[1] والملاحظ أنّ الكاتب أسند الفعل (عرف) إلى غير فاعله وهو التّاريخ، والمقصود هو المؤرّخون والكتّاب والباحثون والدّارسون الذي دوّنوا الأحداث وسجّلوها وحلّلوها، فحقّق هذا المجاز العقليّ غرض الإيجاز.

وعندما يذكر معاناة مصر من ويلات الاحتلال، يقول: "**علمت مصر –كما علم غيرها– أنّ الشّعار الكاذب لحرب 14–18 هو وعود المتحاربين للأمم الضّعيفة...**"[2] وقد أسند الفعل (علمت) إلى مصر والمقصود أهلُها وساستها وقادتها ومفكّروها وغيرهم.

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص22.

[2] المصدر نفسه، ص30.

[3] المصدر نفسه، ص356.

[1] المصدر نفسه، ص35.

[2] المصدر نفسه، ص557.

وحينما يتطرّق إلى المؤامرة التي حيكت على الشّعب وكشفها نائب برلمانيّ، لم يندهش الكاتب من هذا لأنّ هذه عادة فرنسا، فيقول: "**ورجعنا إلى الماضي نستقريه ونسأله.**"[1] وفي العبارة مجازان مرسلان*غرضهما الإيجاز، لأنّ الكاتب تجوّز بالاستقراء والسؤال للماضي والمراد به سؤال واستقراء من حاك هذه المؤامرات، ومن كان شاهدا عليها، ومن أرّخها.

وفي سياق فضح الإبراهيميّ المفتي العاصميّ، يقول: "**هذا ما يقوله لسان الحكومة لصنائعها من أمثال العاصميّ...**"[2] واللّسان هو آلة اللّغة، ويقصد الكاتب بهذا المجاز المرسل أثرَ اللّسان وهو كل ما يقوله مسؤولو الحكومة من كلام وتعليمات لعملائها، فحقّق غرض الإيجاز.

وفي تهكّمه على حكومة الاحتلال التي سيطرت على كلّ ما يخصّ الدّين، يتساءل ساخرًا: "**فبماذا تفسّر المحافظة على الإسلام؟ أبابتلاع أوقافه، وأكلها أكلا لمًّا؟**"[3] والمجازان مرسلان حيث تجوّز الكاتب بابتلاع الأوقاف وأكلها، ويقصد به أكل ما يشترى بمال الأوقاف وهو سحت.

– ونجد المجاز لغرض المبالغة في قوله: "**ثمّ بردت الحرارة...**"[1] فهو مجاز عقليّ عبّر به الكاتب عن الهدوء المريب الذي أعقب زوبعة عنيفة أثيرت حول قضيّة من القضايا بالجمع بين نقيضين ألا وهما الحرارة والبرودة، وهذا من أجل إبراز هذا التّغيّر المفاجئ بشكل يؤكّد ويوضّح المعنى وبتصوير مبالغ فيه. ومثل هذا نجده في تذكير الإبراهيميّ بمجازر الاحتلال، وكيف كان يقتّل الجزائريّين،"**ويحدّثهم بلغة الدّم ومنطق الأشلاء.**"[2] ويبدو المجاز العقليّ المستعمل في عبارتي (لغة الدّم) و(منطق الأشلاء)، دالاًّ على وحشيّة كبيرة ، اتّصف بها الاحتلال في قمعه للمتظاهرين.

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص418.

*هو الكلمة المستعملة قصدًا لغير معناها الأصلي لملاحظة علاقة غير المشابهة مع قرينة دالّة على عدم إرادة المعنى الأصلي. نحو قوله تعالى : ﴿ **وما أدراك ما العقبة (12) فك رقبة (13)** ﴾. الآيات 12و13 من سورة البلد. فذكر الرّقبة وهي الجزء الأهمّ من الجسد وأراد الإنسان المستعبد. ينظر: أحمد الهاشميّ، جواهر البلاغة، دار ابن خلدون، الإسكندريّة، دت، ص232، 233.

[2] محمّد البشير الإبراهيميّ، عيون البصائر، ص380.

[3] المصدر نفسه، ص113، 114.

[1] المصدر نفسه، ص128.

[2] المصدر نفسه، ص370.

– ونجد المجاز لغرض الإمتاع في قوله: "**تلطمنا فرنسا فنشكرها على اللّطمة...**"[1] فهو مجاز عقليّ، حقّق غرضي الإيجاز والإمتاع. فأمّا الإيجاز فهو يقصد أنّ المحتلّين إداريّين وقادة وجنودا يلطموننا، وأمّا الإمتاع فإنّ الكاتب قد صوّر لنا باستهزاء الإهانة التي تعامل بها الإدارة المحتلّة الجزائريّين، فيتلقّى بعضهم هذه الإهانات بالقبول تملّقا منهم وجبنا.

وفي تخيّله صفات الشّابّ الجزائريّ –كما يرجوها– يقول: "**يحمل ما حُمّل من خير لأنّ يدَ الإسلام طبعته على الخير.**"[2] وهذا المجاز مرسل ذكر فيه الكاتب اسم آلة العمل والفعل وهي اليد، والمراد الأثر النّاتج عنها وهو كل عمل صالح، وفيه يكمن الإمتاع، إذ يستأنس القارئ بهذا الخير.

ب–3– الاستعارة:

تشبه بلاغة الاستعارة بلاغة التشبيه في ناحيتي اللّفظ و ابتكار مشبه به بعيد عن الأذهان، "**فبلاغتها من ناحية اللفظ أن تركيبها يدل على تناسي التشبيه، ويحملك عمداً على تخيل صورة جديدة تنسيك روعتها ما تضمنه الكلام من تشبيه خفي مستور... أمّا بلاغة الاستعارة من حيث الابتكارُ وروعة الخيال، وما تحدثه من أثر في نفوس سامعيها، فمجال فسيح للإبداع، وميدان لتسابق المجيدين من فرسان الكلام.**"[1]

ومن أمثلة الاستعارة ما ورد في كتاب كليلة ودمنة:"**وقد قيل: لا يواظب على باب السلطان إلا من يطرح الأنفة، ويحمل الأذى.**"[2] وقد شبّه الكاتب الأنفة والأذى بشيئين ملموسين فحذف المشبّه به وأبقى على أحد لوازمه متمثّلا في الفعلين (يطرح ويحمل) على سبيل الاستعارة المكنيّة.

ويرى البلاغيّون أنّ مكمن أفضليّة الاستعارة على التشبيه البليغ، أنّ التّشبيه في الاستعارة مخفيّ، ممّا يزيد من بيان العبارة وسعة الخيال. ومن أغراضها أنها تعطي الكثير من المعاني

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص128.

[2] المصدر نفسه، ص591.

* هي مجاز لغويّ علاقته المشابهة بين المعنى الحقيقيّ والمعنى المجازيّ. وهي تشبيه سُكت عن أحد طرفيه (هو المشبّه عادة)، وذكر فيه الطّرف الآخر وأريد به الطّرف المحذوف. ينظر: الأزهر الزّنّاد، دروس في البلاغة العربيّة، المركز الثّقافيّ العربيّ للنّشر والتّوزيع، ط1، بيروت، 1992، ص59.

[1] علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، ص105، 106.

[2] عبد الله بن المقفّع، كليلة ودمنة، دار الفكر، لبنان، 1985، ص70.

بألفاظ قليلة، وتوظيفها من قبل الإبراهيميّ في مواطن محدّدة من مقالاته تؤكّد هذه الخصّيصة، ألا وهي قصد الكثير من المعاني، فمثلا حينما ينقد الانتخابات التي تنظّم في الجزائر آنذاك، يقول: "**أمّا في الجزائر فالانتخابات... ولدت شوهاء ناقصة...**"[1] فهذه الاستعارة مكنيّة، إذ شبّه الكاتب الانتخابات بوليد فحذف المشبّه به وأبقى على قرينة دالّة عليه وهي الفعل (ولدت)، تحمل الكثير من المعاني المستورة التي قد تخفى على القارئ، ولكن بقليل من التّركيز والتّمعّن يكتشفها، وهي سلبيّات الانتخابات التي تنظّمها الإدارة مثل:

– التّنظيم العشوائيّ دون سابق إنذار تماما كالولادة غير الطّبيعيّة في قوله (ولدت).

– المفارقة التي تحملها مناسبة الاستحقاق الانتخابيّ، فعوض أن تكون فرصة للتّغيير سعيدة، نجدها مناسبة لتكريس النّظام السّائد، في قوله: (ولدت شوهاء).

– التّزوير الذي لا يمثّل رغبة الشّعب الحقيقيّة، فالنّواب الممثّلون للشّعب مزيّفون في قوله (شوهاء).

– نتيجة الانتخاب هي برلمان أو هيئة سياسية فارغة، لا فائدة منها بسبب عجزها وفقدانها الصّلاحيات في قوله (ناقصة).

ومن أغراضها أيضا المبالغة في إبراز المعنى، كقوله: "**أفاقت الأمّة الجزائريّة إفاقة غير منتظمة، لأنّ الأحداث التي سبّبت لها النّوم، حقنتها بأنواع شتّى من المخدّرات.**"[1] فالأمّة شبّهت بإنسان مريض يحقن عمدا بالسّموم– عوض حقنه بالدّواء– فحذف الكاتب المشبّه به وأبقى على قرينة تدلّ عليه وهي (حقنتها). فهذه استعارة مكنيّة كان للمبالغة أثر فيها وهو إبراز ما لا يدرك إلى ما يدرك بالحاسة. فالأمّة التي تعاني من مشاكل لا تحصى أكبرها الاحتلال، عوض أن يسعى أبناؤها إلى إنقاذها، ما زالت تتخبّط وتواجه بالمخطّطات والمؤامرات.

ومثل ذلك ما ورد في معرض سخريّته من الإدارة المحتلّة التي تصنع رجالها كما تريد، وكما يوحي إليها شيطانها، قائلا: "**في هذا المطبخ طُبخ التّقرير العاصميّ ملفوفا بتوابله...**"[2] فشبّه الكاتب

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 382.

*ماحذف فيها المشبّه به ورمز له بشيء من لوازمه. ينظر:علي الجارم ومصطفى أمين،البلاغة الواضحة، ص77.

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص285.

[2] المصدر نفسه، عيون البصائر، ص72.

التّقرير العاصميّ المليء بالمؤامرات بالأكل المطبوخ المتبّل، فحذف المشبّه به وأبقى على قرينة دالّة عليه وهي الفعل طُبخ، وبالتّالي فالاستعارة مكنيّة. وتظهر المبالغة في هذه الاستعارة في كثرة التّوابل المضافة للطّعام، ويقصد بها كثرة هذه المكائد في التّقرير.

وكذلك عندما يتعجّب من حرمان الشّعب من أدنى الحقوق الأساسيّة –مع حرص وإصرار الإدارة على منحه حق الانتخاب– يقول ساخرًا: "**وجنت يداه جميع الثّمرات، ومنها ثمرة الانتخاب...**"[1] فشبّه الكاتب الانتخاب بشجرة مثمرة، فحذف المشبّه به وأبقى على قرينة دالّة عليه وهي (ثمرة) وبالتّالي فالاستعارة مكنيّة. فهذا المشهد السّاخر يوحي بأنّ الكاتب قد قصد المبالغة في إبراز معنى هذا الحرمان اللامتناهي من الحقوق.

ومن أغراض الاستعارة أيضا بث الحياة والنطق في الجماد، كقوله: "**واختار الله له من الأماكن تلك الصّحراء الطّاهرة بلعاب الشّمس.**"[2] فالشّمس جماد تحوّل بالخيال الذي هيأته الاستعارة المكنيّة إلى إنسان حيّ له لعابٌ.

ومثل ذلك ما جاء في كلامه السّاخر من الإدارة المحتلّة التي تصنع رجالها كما تريد ويوحي إليها شيطانها، إذ يقول: "**فاذكر أنّ العاصميّ في تقريره المملوء بالمنطق الأعوج، المبنيّ على التّاريخ الأعرج.**"[1] ففي العبارة استعارتان مكنيّتان، الأولى في تشبيه الكاتب للمنطق بعود أعوج فحذف المشبّه به وأبقى على قرينة دالّة عليه وهي الاعوجاج، والثّانية تشبيه التّاريخ بإنسان له إعاقة في الرّجل، فحذف المشبّه به وأبقى على أحد لوازمه وهي الإعاقة. وقد أدّت هاتان الاستعارتان غرض بث الحركة والحياة في الجماد.

وكذلك حينما ينفي عن المسلمين تهمة محاولة إحداث الفوضى عندما طالبوا بتسلّم حقّ التّصرف في شؤون الدّين الإسلاميّ، ويتّهم الإدارة الفرنسيّة بذلك قائلًا:"...**والحكومة الاستعماريّة هي زارعة الخلاف بيننا، وهي التي تسقيه كلّما ذبل وتغذّيه كلّما ضعف...**"[2] فالاستعارة مكنيّة لأنّ الكاتب

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص125.
[2] المصدر نفسه، ص57.
[1] المصدر نفسه، ص89.
[2] المصدر نفسه، ص195.

شبّه الخلاف بنبات، فحذف المشبّه به وأبقى على قرائن دالّة عليه هي، زارعة، تسقيه، ذبل. فأدّت الاستعارة غرض تشخيص وتجسيد هذا الشيء المعنويّ أي الخلاف. فلكي يكون المعنى أبلغ، صوّر لنا الكاتب هذا التعهّد الذي دأب عليه الاحتلال في بثّ الفرقة كما يتعهّد الفلاّح أرضه بالعمل المتواصل.

ومثل هذا التّجسيد لشيء معنويّ ما يقوله الإبراهيميّ واصفا نفسه وإخوانه في الجمعيّة: "**أمّا نحن فقد كنّا علماء دين وعاة علم وتربية، وزرّاع خير ورحمة...**"[1] وهي استعارة مكنيّة حيث شبّه الخير والرّحمة وهما شيئان معنويّان بشيء مادّيّ هو النّبات، فحذف المشبّه به وأبقى على قرينة دالّة عليه هي كلمة زرّاع.

وكذلك عندما يشدّد على لزوم المذاكرة والمثابرة في طلب العلم مخاطبا الطّلبة، إذ يقول:"...**وعكفتم على أخذه من أفواه الرّجال وبطون الكتب**..."[2] ونلاحظ أنّ الكاتب شبّه الكتب بإنسان فحذف المشبّه به، وأبقى على قرينة دالّة عليه وهي البطون ثمرة وبالتّالي فالاستعارة مكنيّة.

وعندما ينصح المعلّمين بتحكيم ضمائرهم، ومراقبة الله في أداء أمانة تربية النّشء، وتعليمه على أسس صلبة وصحيحة، يقول لهم:"...**فابنوا عقوله على أساس من الحقيقة، وابنوا نفوسه على صخرة من الفضائل الإنسانيّة، وأشربوه عرفان قيمتها**..."[1] والاستعارة هنا مكنيّة لأنّ الكاتب شبّه العقول والنّفوس ببناء فحذف المشبّه به وأبقى على قرائن دالّة عليه هي الفعل ابنوا.

وحينما يريد تحفيز الشّباب الجزائريّ بالزّواج، يدغدغ أنفتهم ومشاعرهم الوطنيّة، قائلا لهم:"...**ولمن تُخدَم الأوطان؟ إذا لم يكن ذلك لحماية من على ظهرها من أولاد وحُرَم، ومن في بطنها من رفات ورِمم**..."[2] وهذه الاستعارة مكنيّة لأنّ الكاتب شبّه الوطن بإنسان فحذف المشبّه به وأبقى على قرائن دالّة عليه ظهرها، وأولاد، وحرم، وبطنها.

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص275.

[2] المصدر نفسه، ص216.

[1] المصدر نفسه، ص299.

[2] المصدر نفسه، ص327.

ويؤكّد على دور الوعظ الدّينيّ بصفته وسيلة ناجعة للإصلاح، قائلا:"...**والوعظ الدّينيّ هو الذي حرّكت به جمعيّة العلماء الهمم الرّاكدة، وشدّت به العزائم الواهية، واجتثّت به الرّذائل الموبقة، فكان هو معينها على غرس الإصلاح الدّينيّ، وتثبيت جذوره، وامتداد أصوله وفروعه.**"[1]

ولقد أورد الكاتب في العبارة عدّة استعارات مكنيّة هي:

-(حرّكت الهمم الرّاكدة)، شبّه الهمم وهي شيء معنويّ بالماء السّاكن، فحذف المشبّه به وأبقى على قرينة دالّة عليه وهي كلمة راكدة التي تعبّر عن عدم الحراك.

-(شدّت به العزائم الواهية)، شبّه العزائم بشيء يربط، فحذف المشبّه به وأبقى على قرينة دالّة عليه وهي كلمتا شدّت بمعنى ربطت، وواهية وهي صفة بمعنى ضعيفة الإحكام والرّبط.

_(اجتثت به الرذائل الموبقة)، شبّه الرّذائل بشجرة خبيثة، فحذف المشبّه به وأبقى على قرينة دالة عليه هي الفعل اجتثت بمعنى اقتلعت من الجذور.

-(غرس الإصلاح الدّينيّ وتثبيت جذوره)، شبّه الإصلاح الدّينيّ بشجرة مباركة، فحذف المشبه به وأبقى على أحد لوازمه وهي كلمة غرس.

وفي دعائه الله بالتوفيق لكل المسلمين في كل ما يعود إلى الأمة بالفائدة والخير، يقول: "...**ويَسَّرنا جميعًا لخدمة هذا الوطن، وإخراجه من الظلمات إلى النور.**"[1] والملاحظ أن الكاتب شبه الإسلام بالنور وحذف المشبه (الإسلام)، وشبه الجاهلية بالظلمات وحذف المشبه (الجاهلية) وصرّح بالمشبه به (النور) و(الظلمات) على سبيل الاستعارة التصريحية.

ب -4- الكناية:

تعدّ الكناية من طرق الإبداع الأدبيّ، ومن أوجه البلاغة، فهي تخفي معانيَ عميقةً ومتداولةً، ممّا يجعلها سببا في جذبِ الانتباه، وتشويقِ القارئ. "**والسرّ في بلاغتها أنّها في صور**

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص314.
[1] المصدر نفسه، ص317.

كثيرة تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها، والقضيّة وفي طيّها برهانها."[1] فتعدّي المألوف إلى معان جديدة يرمي إليها الكاتب تحقّقها الكناية، إذ أنّ المتلقّي بذكائه يلتفت في الكثير من الأحيان إلى المعنى اللاّزم إدراكه دون الاكتراث بالمعنى الأصلي الذي قد يبدو ساذجا. فالكناية إذن "**يتجاوز أثرها دلالة التركيب إلى مستويات دلالة النّصّ كلّه.**"[2]

ولقد أُشْتُهِرَ العرب باستعمال الكناية في كلامهم حتّى عدّوها من علامات الفصاحة والبلاغة، وجاء القرآن فوظّفها في مواضع كثيرة، لما لها من وقع في القلب، وتأثير في النّفس. وأضرب مثلا قوله عزّ مِن قائل: ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملوما محسورًا**﴾ الآية 29 من سورة الإسراء. وهاتان كنايتان عن البخل والتبذير. ولمّا كانت أهداف الكاتب متعلّقة بسياق كلامه، والموضوع المتناول فإنّ للكناية عدّة أغراض، وظّفها الإبراهيميّ من أجل الإقناع والإيجاز:

-فمن أغراضها تفضيل الأسلوب غير المباشر حسب مقتضى الحال. ولقد وظّف الإبراهيميّ الكناية من أجل هذا الغرض في مقالاته لمّا كان في مقام التلميح دون التصريح، كقوله عن تربّص الأعداء بالأمّة العربيّة: "**ووراء كل رأس مال رؤوس حيوانيّة تفكّر في الكيد، وأيد حريريّة تحمل القيد.**"[1] وهي كناية عن خداع ونفاق البريطانيّين حينما دخلوا جزيرة العرب، زاعمين نشر الحضارة، ولكنّهم في الحقيقة كان دافعهم استخراج كنوزها واستغلال خيراتها بأبخس الأثمان، وقد حقّق الكاتب غرضه بإيصال الفكرة بطريقة غير مباشرة.

ومن أمثلة الكناية التي تحقّق هذا الغرض ما نقرؤه في معرض انتقاده الحكومة المحتلّة التي تصدر القراراتِ المجحفةَ عمدًا، ثمّ تتكر فعل ذلك، فيقول: "...**وقد بلوناها في جميع حالاتها وألوانها، فإذا هي هي، تغطّي الشّمس بالغربال.**"[2] وهذه كناية صفة عن استحالة إخفاء الحقيقة السّاطعة التي لا تقبل أيّ نقاش. وقد استعمل الكاتب هذه العبارة للتّعبير بطريقة غير مباشرة عن أساليب المراوغة التي انهجتها الحكومة ممّا يدلّ على محاولة استغبائها لأفراد الشّعب.

[1] علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، ص131.
[2] سعد أبو الرّضا، في البنية والدّلالة، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1987، ص 171.
[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص531.
[2] المصدر نفسه، ص98.

-ومن أغراضها أن يكون التّعبير المكنّى به يدلّ على معنى لا يؤدّيه اللّفظ الصّريح، كقوله: "**فرفعوا أصواتهم يطلبون من فرنسا إرسال لجنة برلمانيّة للتّحقيق الذي لا يردّ فائتا، ولا يحيي مائتا، لكنّهم كانوا ينادون صخرة صمّاء.**"[1] وهذه كناية عن عدم مبالاة السلطات الفرنسيّة بنداءات الجزائريّين. ولو أنّ الكاتب قال مثلا: (لكنّهم كانوا ينادون فلا يردّ عليهم)، فذلك لن يكون أكثر وضوحا من المشهد السّاحر لهذه الصّخرة التي لا تتكلّم ولا تردّ حتّى الصّدى.

ومن الأمثلة التي أدّت فيها الكناية هذا الغرض ما جاء في حديثه عن النّضال، إذ أقسم أنّ النّضال الحقيقيّ هو ذلك المبنيّ على مقوّمات الأمّة، فيقول: "**ولعمري إذا لم توجد الأمّة فما صياح الصّائحين إلاّ نفخ في رماد.**"[2] وهذه كناية صفة عن عدم جدوى المطالبة بحقوق الأمّة دون أن تكون له مقوّمات. وقد أدّت صورة عدم اشتعال النّار بالنّفخ في الرّماد -بسبب غياب الجمرة التي تولّد الشّعلة- هذا الغرض الذي قد لا يؤدّيه اللّفظ الصّريح.

وكذلك حينما يفضح سياسةَ مماطلة الحكومة في التّعامل مع قضيّة فصل الحكومة عن الدّين، قائلا: "**...وما هذه الحركة الجديدة إلاّ فعلة من فعلاتها المعروفة التي تذرّ بها الرّماد في العيون.**"[1] وهذه كناية صفة عن التمّويه والتّستّر عن الحقيقة.

-ومن أغراضها أن يكون المكنّى به أجمل لفظا لمراعاة الجانب الجماليّ، كقوله مادحا الطّلبة المجدّين في طلب العلم: "**... ووصلتهم في طلبه سواد اللّيل ببياض النّهار.**"[2] وهي كناية عن العمل الدّؤوب، مع الإشارة أنّها مقابلة أدّت معنى المكنّى عنه بصورة فنّيّة جماليّة.

ونجد مثل هذا الغرض في حديثه عن اشتياقه إلى أرض الوطن حينما كان يجول في مشارق الأرض ومغاربها، فيقول: "**... وأكاد أطير شوقا.**"[3] وهذه كناية صفة عن شدّة اللهفة والحنين.

ونجد مثل هذا التّعبير في تأسّفه من قرار تقسيم فلسطين والاعتراف بالكيان الصّهيوني، وصبّ

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص194.
[2] المصدر نفسه، ص45.
[1] المصدر نفسه، ص193.
[2] المصدر نفسه، ص216.
[3] المصدر نفسه، ص486.

جام غضبه على الدعاة له، إذ يقول:"... **وما بالهم هلّلوا بالتّقسيم وطاروا به فرحا**..."[1] وهذه كناية صفة عن شدّة الفرح.

ومن الأمثلة التي حقّقت فيها الكناية هذا الغرض أيضا، ما جاء في معرض تحليله أسباب تخلّف الأمّة، فيلخّصها في التنكّر للمبادئ، والجري وراء الرّياسة والحكم، والبعد عن المقوّمات، حتّى ضاعت الأوطان "**والاستعمار من وراء الجميع يضحك ملء شدقيه وينام ملء عينيه**."[2] وزيادة عن وجود مجاز عقلي في إسناد فعلي (يضحك) و(ينام) إلى الاستعمار، وردت كناية صفة عن راحة بال العدو المحتلّ من أي هاجس.

وكذلك ما ورد في خطابه رئيسَ الجمهوريّة الفرنسيَّ، مخبرا إيّاه بما يعانيه التّعليم الدّينيّ في الجزائر من مضايقات، فيقول: "**والمحاكمات على التّعليم جارية على قدم وساق في هذه الأيّام**."[1] وهذه كناية صفة عن الانشغال بالعمل والجدّ في تنفيذه.

-ومن أغراضها كون المكنّى عنه ممّا يحسن ستره ويقبح التّصريح به، كقوله: "**إنّهم ورّثونا هذه الصّفقة الخاسرة التي هي رأس مالنا اليوم، من أخلاق <u>لا تزن جناح بعوضة</u>**..."[2] وهي كناية عن القيمة الرخيصة، فتجنّب الكاتب وصف الأخلاق التي ورثها الأبناء عن الآباء بالدّناءة والخساسة والرّخص تأدّبا، فاستوجبت الكناية هنا هذا التّوظيف.

-ومن أغراضها بيان صفات المكنّى عنه مع الاختصار، كقوله: "... **كبير العقل، مشرق الروح على تجهم في ظاهره، سديد التّصرّف**..."[3] وهي كنايات عن المعرفة، والسّكينة، والحكمة على التّوالي، فلم يسهب الكاتب في الوصف الطّويل المملّ بل اكتفى بالاقتصار على الصّفات بالاستعانة بهذه الكنايات.

والغرض نفسه نجده في كلامه عمّن تسبّب في ضياع الدّين، فقال: إنّه "**مظلوم من أهله...ومظلوم**

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص507.

[2] المصدر نفسه، ص46.

[1] المصدر نفسه، ص78.

[2] المصدر نفسه، ص301.

[3] المصدر نفسه، ص691.

من هذه <u>الحكومة ذات الألوان</u> التي تحكم الجزائر بما تمليه القوّة."[1] وهذه كناية صفة عن التبدّل والتغيّر والنّفاق.

-ومن أغراضها إرادة إبعاد اسم المكنّى عنه عن التّداول بذكر ما يدلّ عليه من ألقاب أو كنى أوصفات، كقوله: "... **وأنّ المفتي الحنفيّ كان تشويشا على مطالب المسلمين الحقّة."**[2] وهي كناية عن الشّيخ محمّد العاصميّ مفتي الجزائر العاصمة العميل.

ومن الأمثلة المندرجة ضمن هذا الغرض ذكرُه لما حلّ بالشّعب الجزائريّ من نائبات سببها الاحتلال الفرنسيّ، حتى كاد ينسيه مجد العروبة، فيقول: "...**فانحرفت فيه الحروف عن مخارجها إلاّ الضّاد."**[1] وهذه كناية موصوف عن اللّغة العربيّة.

وكذلك ما جاء في حديثه عن أفاعيل الاحتلال الفرنسيّ بالشّعب الجزائريّ المهينة، "**فانتزع خيراته الطّبيعيّة من أيدي أهله، ثمّ تسلّل إلى <u>مكان النّفوس</u> لينزع الإيمان من قلوبهم."**[2] وهذه كناية موصوف عن القلب.

وأورد الإبراهيميّ الكناية عن أعماق القلب حينما خاطب العرب الخانعين بكلمات مزلزلة، قائلا: "**إنّ غضبة العاجز لا تبكي ولا تنكي، <u>تشتعل في الحنايا</u>**..."[3]

في نهاية هذا المبحث الذي تعرّضت فيه إلى البيان في مقالات عيون البصائر، تجدر بي الإشارة أن أقول إنّ الإبراهيميّ المتمكّن في اللّغة العربيّة، أثبت قدرته على استعمال فنون البيان في مواضعها المناسبة، فأضفى على مقالاته تلك اللّمسة الجماليّة والبيانيّة تأثرا بالقرآن الكريم والحديث النّبويّ الشّريف والأمثال المأثورة. فحين تطلّب الموضوع منه التّعبير البسيط والأسلوب المباشر قلّل من التّصوير البيانيّ، وحينما حرّك فيه الموضوع مشاعر الحبّ أوالكره، والسّعادة أوالحزن، والغبطة أوالحسرة، والثورة أوالسّكون... تطلّب منه الإكثار من الخيال الذي يحمل القارئ إلى عوالم

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص137.
[2] المصدر نفسه، ص73.
[1] المصدر نفسه، ص36.
[2] المصدر نفسه، ص237.
[3] المصدر نفسه، ص601.

أخرى تجعله يفهم المغزى المقصود.

ثمّ إنّ الإبراهيميّ الذي خاطب الموالين من شرائح المجتمع الجزائري المختلفة، وكذلك الأعداء من رجال الاحتلال، ومن يدور في فلكهم وظّف البيان حسب المتلقي. فنجده أكثر من أساليب التّشبيه حينما وجّه كلامه إلى المتعلّمين المبدتئين من عامّة الشّعب لأنّه أبسط للفهم وأيسر للإقناع. ونجده استعمل أساليب المجاز والاستعارة والكناية لمّا استهدف الطبقة الواعية الأكثر ثقافة. فاللّجوء إلى هذه الصّور البيانيّة التي تخفي وراءها المعنى المرجوّ، أنجع للبرهان، وأوفى بالغرض، وأفضل للإيذاء.

خاتمة:

لقد تميّز مطلع القرن العشرين بعزم الشّعوب المقهورة على البحث عن الذّات، تحت ظلّ صراعات فكريّة، بثّها في بلدانها الغربُ المحتلّ. فتطلّب ذلك بروزَ نخبة من المفكّرين الذين تجاوزوا فكرة الوعي إلى العمل على نشر العلم والثّقافة في مجتمعات أنهكها الجهل والفقر، لا لشيء إلاّ لأنّ لهم رؤيةً حضاريّة بعيدة المدى، مخالفين بعض من نادوا إلى التحرّر دون الاهتمام بتربية الأجيال وتحضيرهم لما بعد الاستقلال.

وقد شكّل المقال أداة ذات فاعليّة كبيرة في تلك الفترة الحاسمة من تاريخ الأمّة العربيّة، بسبب تبوّء الصّحافة المكانة الأولى ممّا جعلته يلقى رواجًا كبيرًا، خاصّة عند طبقات المجتمع الّتي كان لها الحظّ في التّعليم، وبذلك وجد رجال الفكر والإصلاح المجال سانحا لنشر أفكارهم الإصلاحيّة لا سيّما أنّ دائرة التّلقّي كانت تتوسّع بمرور الوقت بسبب انتشار الجرائد والمجلاّت، فمسّت شرائح واسعة من المجتمع. ولقد تسبّب اختلاف وجهات النظر بين المفكّرين والسّاسة في الجزائر –كغيرها من البلدان– في نشوء جدال إيديولوجي تراوح بين الصّراع وتبادل التّهم والحوار، فأسهم في الرّقيّ بالأفكار، وبلورة المواقف إزاء المحتل الفرنسيّ، فكان المقال الإصلاحيّ الّذي اعتمده علماء جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين وسيلة فعّالة لخوض غمار هذا الصّراع.

يتجلّى المنهج الإصلاحيّ في مقالات عيون البصائر عند الإبراهيميّ في اتّباع طريقة الهدم قبل البناء، لأنّ التّراكمات الّتي شابت ثقافة الجزائريّ جرّاء سياسة الاحتلال تطلّبت اقتلاع جذور الجهل والشّرك وتخليصه من القهر والتّبعيّة– ولم يكن ذلك سهلا لوجود المعيقات والقوانين المستبدّة– ثمّ العمل على إرساء أسس المشروع النّهضويّ الذي يعدّ الإنسان الجزائريّ للمستقبل. وقد كان الشّيخ الإبراهيميّ ممّن يُشهد له بالرّيادة في مجال الإصلاح، إذ أبلى البلاء الحسن في ساحة النّضال، وكان ضمير الشعب الجزائري، وصوته الحيّ، فأسهم إسهاما كبيرا في حفظ تراث الشعب الجزائري وأصالته، والذّود عن اللّغة العربيّة وحمى الإسلام. وقد ركّز الشّيخ البشير الإبراهيميّ على الجانب الدّيني، والتّربويّ التّعليميّ لتحقيق ذلك بسبب خلفيّته العربية الإسلاميّة.

إنّ تجربة الكتابة عند الإبراهيميّ كانت مغامرة جريئة، في وقت كانت فيه اللغة العربيّة تعاني التّهميش والحصار؛ فلم يكن من السّهل أن يكتب بتلك اللّغة الفصيحة لمخاطبة جزائريّ كان همّه الوحيد القوت والاستفادة من أبسط سبل العيش. ولكي يوازن الشّيخ بين هذا الميول إلى الكتابة

الأدبيّة الرّاقية وصعوبة الفهم لدى المتلقّي المحدود الثّقافة، اجتهد في توظيف مفردات أكثر فيها من المترادفات والكلمات الغريبة عمدا للتّوضيح والتّأكيد، وفي الوقت نفسه للإسهام في إعادة الصّلة بين الجزائريّ ولغته، واستعمل الأسماء المشتقّة الّتي فرضت نفسها لثراء اللّغة العربيّة، كما انفتح على الألفاظ الدّخيلة الّتي شاعت بين أوساط الجزائريّين لما تحمله من دلالات أقوى وأبلغ من اللّفظ العربيّ.

ومن خلال قراءاتي المتكرّرة لعيون البصائر، استيقنت أنّ الإبراهيميّ قدّم خدمةً جليلةً للّغة العربيّة، إذ أعان كلّ من قرأ له على اكتشاف لغته الجميلة، وإثراء قاموسه اللّغوي، وتجديد عهده بلغته التي طالما افتقدها. وبالنّظر إلى أسلوب الإبراهيميّ، ندرك بسهولة تأثّرَه الشّديدَ بكلامِ الله تعالى، وحديثِ رسوله–صلّى الله عليه وسلّم– فلا نكاد نقرأ له مقالةً إلاّ ووجدنا فيها آية أو حديثا، تأسّيا بأسلوب القدماء الّذين رأوا فيهما النّموذجَ الأمثلَ في الكتابة الأدبيّة. ولقد حرص الإبراهيميّ على اختيارِ الكلمات والأساليب حسب موضوعاته التي تناولها، والتّصرّف بحنكة في أغراض الكلام وفنونه، فأساليب القصر والإيجاز والإطناب والخبر والإنشاء عنده أضافت على المعنى التّوكيد والتّوضيح دون أن يحسّ القارئ بالملل، بل جعلت النّفس تتحرّر من قيد العبارة إلى رحاب أوسع، وهذا دليل على تمكّن الإبراهيميّ من توظيف العبارة المناسبة في المكان المناسب، مع مراعاة سياق الكلام وحال المخاطب.

مثّلت الصّور البيانيّة والمحسّنات البديعيّة عند الإبراهيميّ آلية من آليات الإقناع مع ما تحمله من جماليّة تستميل القارئ، فتجعله يقتنع بما يسمعه من أفكار عن طريق إشباع عقله ومشاعره معًا. وقد كان لانتمائه إلى المدرسة المحافظة المعتمدة على الصنعة اللّفظية التي تُعنى باختيار الألفاظ وتزيين العبارة بألوان البيان والبديع دون إهمال المعنى، الدّورُ الرّئيس في اعتماده على هذه الأساليب التي تعكس رصيده الثّريّ من كلام العرب القدماء. ولم يكن الإبراهيميّ مجرّد مستنسخ لهذه الألوان، بل كان ينتقي ألفاظَه وعباراتِه حسب الأغراض التي كان يرمي إليها، تمامًا مثلَ الفنّان الذي يختار للوحته الألوان المناسبة للتّعبير عن مشاعره أو لتوصيل رسائله. فكان يمزج بين الصّور البيانيّة التي تحمل معانيَ تستوجب التّلميح أوالتّصريح عندما يطلق لقلمه العنان للتّصوير الذي يلقى صدى أكثر تأثيرا في قلب القارئ. وكان يستعمل أنواع البديع التي ترنّ في

الأذن وفي الوقت نفسه تؤثّر في الذّهن عندما يريد تزيين العبارة وإثراءها بالإيقاع. وكلّ هذه الفنون تداخلت وتكاملت فأدّت وظائف أسهمت في إبراز المعنى المقصود وغرضه من نصح وإرشاد وتذكير ووعيد وتحذير وتوبيخ...

وما يمكن قوله، إنّ الإبراهيميّ كان بحقّ مدرسة أدبيّة تمكّن من خلالها توصيل خطابه بتشكيل لغويّ حمل في طيّاته معانيَ قويّةً بألفاظ جزلة، ساعدته في إقناع النّاس وإرشادهم إلى ما كان يدعو إليه من قضايا الإصلاح.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

الحديث النّبويّ الشّريف.

المصادر:

– أبو الفتح عثمان ابن جنّي، الخصائص، ج2، دار الكتب العلميّة ، بيروت، 2001.

– أبو الفضل جمال الدّين ابن منظور، لسان العرب، ج8، دار صادر للطباعة والنشر، ط4، بيروت، 2005.

– أبو حيّان التوحيديّ، الإمتاع والمؤانسة، صحّحه وضبطه وشرح غريبه: أحمد أمين وأحمد الزين، ج1، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، د ت.

– أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، التربيع والتّدوير، تح: شارل بلات، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1955.

– أبو هلال العسكري، الصّناعتين، تح: علي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربيّة، 1952.

– أحمد أمين، الأخلاق، دار الكتاب العربي، بيروت، 1969.

– امرؤ القيس، الدّيوان، صحّحه: مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلميّة، ط5، لبنان، 2004.

– حسين محمّد نصار وآخرون، الموسوعة العربيّة الميسّرة، شركة أبناء شريف الأنصاريّ، ط3، بيروت، 2009.

– خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط 13، بيروت، 1998.

– عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، دار النفائس، ط3، بيروت، 2006.

– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمّد شاكر، دار المدنيّ، ط3، جدّة، 1992.

– عبد الله بن المقفّع، الأدب الكبير، تح: أحمد زكي باشا، جمعيّة العروة الوثقى الخيريّة الإسلاميّة، الإسكندرية، 1912.

– عبد الله بن المقفّع، كليلة ودمنة، دار الفكر، لبنان، 1985.

– علي بن عبد العزيز الجرجاني ، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح، إبراهيم محمد أبو الفضل ، علي محمد البجاوي، ط4 ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1966.

– لويس معلوف، المنجد في اللّغة والأدب والعلوم، المطبعة الكاثوليكيّة، ط19، بيروت، 1966.

– محمّد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، ج1 (1929–1940)، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1997.

– محمّد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيميّ، ج2، (1940–1952)، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1997.

– محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيميّ، ج4، (1952–1954)، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1997.

– محمّد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيميّ، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيميّ، ج5 (1954–1964)، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1997.

– محمّد البشير الإبراهيميّ، عيون البصائر، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، دت.

– مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، راجعه: درويش الجويدي، ج1، المكتبة العصرية، بيروت، دت.

– مصطفى لطفي المنفلوطي، النظرات، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، 1991.

– مفدي زكريّا، إلياذة الجزائر، المعهد التربوي الوطني، دت، الجزائر.

– منير البعلبكي، معجم أعلام المورد، دار العلم للملايين، بيروت، 1992.

– ميخائل نعيمة، البيادر، دار نوفل للطباعة والنشر والتوزيع، د ت.

المراجع:

– أبو العبّاس الشريشي، شرح مقامات الحريري، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، ج4، المكتبة العصريّة، بيروت، 1992.

– أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1900–1930، ج2، دار الغرب الإسلاميّ، ط4، بيروت، 1992.

– أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت، د ت.

– أحمد بن نعمان، اللغة العربية أسئلة التطوّر الذّاتي والمستقبل، مركز دراسات الوحدة العربيّة، لبنان، 2005.

– أحمد الهاشميّ، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دار ابن خلدون، الإسكندريّة، دت.

– الأزهر الزّنّاد، دروس في البلاغة العربيّة، المركز الثّقافيّ العربيّ للنّشر والتّوزيع، ط1، بيروت، 1992.

– اسماعيل الحسني، نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، 1995.

– بسام العسلي، عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثّورة الجزائريّة،دار النّفائس،ط2، بيروت، 1986.

– بكري شيخ أمين، البلاغة العربيّة في ثوبها الجديد، علم البديع، دار العلم للملايين، ط7، بيروت، 2003.

– بكري شيخ أمين، البلاغة العربيّة في ثوبها الجديد، علم البيان، دار العلم للملايين، ط7، بيروت، 2003.

– بكري شيخ أمين، البلاغة العربيّة في ثوبها الجديد، علم المعاني، دار العلم للملايين، ط7، بيروت، 2003.

– تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 4، الجزائر، 1984.

– توفيق الفيل، بلاغة التراكيب: دراسة في علم المعاني، مكتبة الآداب، القاهرة، 1991.

– جماعة من الباحثين، الإمام الرّائد محمد البشير الإبراهيميّ منوّر الأذهان وفارس البيان، المجلس الأعلى للّغة العربيّة، الجزائر، 2009.

– جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، العروة الوثقى، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2002.

– جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج3، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، 1983.

– جلال الدّين القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، شرحه: علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال، لبنان، 2000.

– حاكم ملك الزّيادي، التّرادف في اللّغة، دار الحرّيّة للطّباعة، بغداد، 1980.

– حسن عبد الرحمان سلوادي، عبد الحميد بن باديس مفسّرًا، المؤسسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، 1984، ص27.

– حنّا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربيّ، دار الجيل، بيروت، 1986.

– حنّا الفاخوري، منتخبات الأدب العربيّ، منشورات المكتبة البوليسية، ط5، بيروت، 1970.

– رفيق خليل عطوي، صناعة الكتابة، دار العلم للملايين، لبنان، 1989.

– سعد أبو الرّضا، في البنية والدّلالة، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1987.

– سعود بن غازي أبو تاكي، صور الأمر بين التّنظير والاستعمال، دار غريب للطباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، 2005.

– سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه،دار الشروق، ط8، القاهرة، 2003.

– شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف، ط10، القاهرة، 1992.

– شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، ط9، مصر، دت.

– عائشة حسين فريد، رشى الربيع بألوان البديع في ضوء الأساليب العربيّة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000.

– عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى العصر الحديث، مؤسّسة نويهض الثّقافيّة للتّأليف والتّرجمة والنّشر، ط2، بيروت، 1980.

– عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الاستاذ الإمام محمد عبده، دار مصر للطباعة، مصر، دت.

– عباس محمود العقاد، الفصول مجموعة مقالات أدبية واجتماعية وخطرات وشذور، دار المعارف، القاهرة، 1986.

– عباس محمود العقاد، يسألونك، دار الكتاب العربيّ، ط2، بيروت، د ت.

– عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، إعداد وتصنيف: عمّار الطالبيّ، ج1، م2، الشركة الجزائريّة للنّشر والتوزيع، ط3، الجزائر، 1997.

– عبد الجواد سعيد ربيع، فن الخبر الصّحفي دراسة نظرية وتطبيقيّة، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، 2005.

– عبد العاطي شلبي، فن النّثر الحديث، ج1، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية.

– عبد العاطي غريب علاّم، دراسات في البلاغة العربيّة، منشورات جامعة قان يونس، بنغازي، 1997.

– عبد العزيز شرف، فن المقال الصحفي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000.

– عبد العزيز عتيق، المدخل إلى علم النّحو والصّرف، دار النّهضة العربيّة، ط2، بيروت، 1974.

– عبد الفتاح لاشين، البديع في ضوء أساليب القرآن ، مكتبة الأنجلومصريّة، ط3، 1986.

– عبد اللّطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، دار الشّهاب للطّباعة والنّشر، باتنة، 1984.

– عبد اللطيف محمد السّيد الحديدي، فن المقال في ضوء النقد الأدبي، الدّار الإسلاميّة للطّباعة والنّشر، ط3، مصر، 2003.

– عبد الملك بومنجل، النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، جوان 2009.

– عبد الملك مرتاض، الثقافة العربيّة في الجزائر بين التأثير والتّأثّر، دار الحداثة بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعيّة ، الجزائر، 1982.

– عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931–1945، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1983.

– عبد الهادي الفضلي، مختصر الصّرف، دار القلم، بيروت، د ت.

– علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، دار المعارف، ط17، مصر، 1964.

– عيد بلبع، أسلوبيّة السّؤال: رؤية في التنظير البلاغي، دار الوفاء، القاهرة، 1999.

– مالك بن نبي، في مهبّ المعركة، دار الفكر، ط3، دمشق، 1981.

– محمّد أسعد النادريّ، فقه اللّغة مناهله ومسائله، المكتبة العصرية، بيروت، 2005.

– محمّد الصّالح الجابري، الفصحى وعاميّاتها، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر.

– محمّد مصطفى هدّارة، في البلاغة العربيّة: علم البيان، دار العلوم العربيّة، ، بيروت، 1989.

– محمّد يوسف نجم، فن المقالة، دار الثقافة، ط4، بيروت، 1966.

– محمود أحمد حسن المراغي، في البلاغة: علم البديع، دار العلوم العربية، بيروت، 1991.

– مختار عطيّة، الإطناب في القرآن الكريم دراسة بلاغيّة، دار الجامعة الجديدة للنّشر، الإسكندرية، 2008.

– مختار عطيّة، التّقديم والتّأخير ومباحث التراكيب بين البلاغة والأسلوبيّة، دار الوفاء لدنيا الطّباعة والنّشر،الاسكندرية، د ت.

– مختار عطيّة، علم البيان وبلاغة التّشبيه في المعلّقات السّبع، دار الوفاء لدنيا الطّباعة والنّشر، الإسكندريّة، دت.

– مسعود بودوخة، عناصر الوظيفة الجمالية في البلاغة العربية، عالم الكتب الحديث، الأردن ، 2011.

– ميشال زكريا، الألسنية علم اللغة الحديث، ط2، بيروت ، 1985.

– يوسف الحمّادي وآخرون، القواعد الأساسية في النّحو والصّرف، الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميريّة، القاهرة، 1994.

الكتب المترجمة:

– ديجن ستيوارت، السّجع في القرآن، تر: إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 1998.

– ياكوف برلمان، الفيزياء المسلّية، تر: داود سليمان المنير، ج1، دار مير للطباعة والنشر، ط3، موسكو، 1977.

المجلّات والجرائد:

– الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، ع87، دار الأمّة للطباعة والنّشر والتوزيع، 1985.

– جريدة البصائر، ع95، السنة الثالثة، 1938.

– جريدة البصائر، ع3، السّنة الأولى، 22 شوال 1354هـ / 17 جانفي 1936م.

– جريدة البصائر، ع5، السّنة الأولى، 6 ذو القعدة 1354هـ / 31 جانفي 1936م.

–جريدة الشروق، ع 4361، 29 أفريل 2014.

- جريدة الشروق،ع 3260، 11 أفريل 2011.

- مجلّة الهداية الإسلامية، ج10، م9، يونيو 1937م.

المواقع الإلكترونيّة:

- موسوعة ويكيبديا الحرة، http://ar.wikipedia.org/wiki.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات: